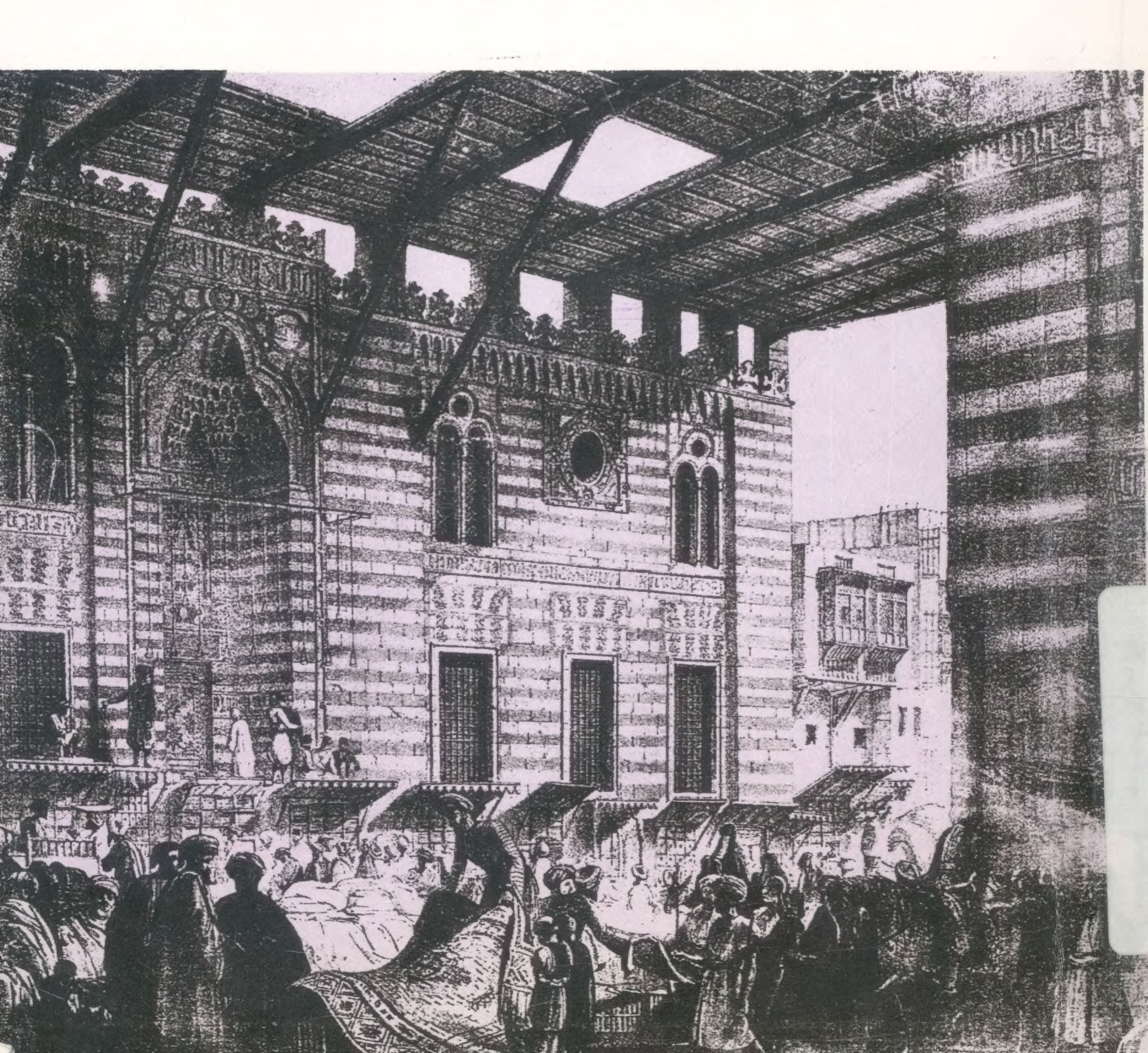
عبد الرحمن الرافعى

مصر المجاهدة في العصر الحديث

كفاح الشعب من عهد الحملة الفرنسية إلى ولاية محمد على



مصر المجاهدة
في العصر الحديث

تأليف

عبد الرحمن الرافعي

•

الحلقة الأولى

كفاح الشعب في عهد الحملة الفرنسية
١٧٩٨-١٨٠١

ومن جلاء الفرنسيين إلى ولاية محمد على
١٨٠١ - ١٨٠٥

•

دار الهلال

راجع هذا الكتاب

المستشار حلمى السباعى شاهين

نائب رئيس هيئة قضايا الدولة السابق

الطبعة الثالثة



عبد الرحمن الرافعي

ولد فى ٨ من فبراير ١٨٨٩ ـ وتوفى فى ٣ من ديسمبر ١٩٦٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

عنيت بدراسة أدوار الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث ، وأخرجت فى هذا الصدد خمسة عشر مجلدا أرخت فيها كفاح الشعب فى سبيل تحقيق أهدافه طوال قرن ونصف قرن من الزمان ، منذ أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر إلى وقتنا الحاضر .

وقد كنت قبل إتمام هذه المجلدات الخمسة عشر أفكر في أن أقتبس منها ملخصات تكون أقرب إلى متناول الشباب .

وفيما كنت أبحث عن الوسيلة لتحقيق هذه الفكرة تفضل الوزير المجاهد السيد كمال الدين حسين وزير التربية والتعليم فأعرب عن رغبته فى أن أخرج ملخصات من هذه المجلدات تضع أمام الشباب صورة كفاح الشعب فى مختلف أدوار الحركة القومية وتحبب إليه الاطلاع على تاريخ هذا الكفاح .

فاستجبت إلى هذه الرغبة شاكرا للسيد الوزير عنايته بتبصير الشباب بتاريخ بلاده وتزويده بحقائق الكفاح الشعبى المستمر على تعاقب الأجيال .

وقد جعلت لهذه المجموعة عنوانا شاملا لحلقاتها وهو : (مصر المجاهدة فى العصر الحديث) وفيها تلخيص وجيز للمجلدات التى أخرجتها ، وترغيب لمن يريد التوسع والاستقراء فى الرجوع إلى هذه المجلدات .

وإنى أقدم الحلقة الأولى من هذه المجموعة ، وهى تتناول كفاح الشعب فى العهد العثمانى المملوكى وفى عهد الحملة الفرنسية ، ومقاومته لهذه الحملة من سنة ١٧٩٨ إلى سنة ١٨٠١ ، ثم استمرار هذا الكفاح منذ جلاء الفرنسيين سنة ١٨٠١ إلى ولاية محمد على سنة ١٨٠٥ .

وهذه الحلقة مقتبسة من الجزءين الأول والثانى من تاريخ الحركة القومية .

والله أسأل أن يهدينا سواء السبيل .

أغسطس سنة ١٩٥٧ عبد الرحمن الرافعى

مقدمة الطبعة الثالثة

إن هذه الطبعة الثالثة من تلك الحلقة الأولى التى تفضلت دار الهلال بإخراجها تطابق تماما الطبعة الأولى التى أخرجتها وزارة التربية والتعليم سنة ١٩٥٨ . والطبعة الثانية التى أخرجتها هيئة الاستعلامات سنة ١٩٧٩ . عن تاريخ مصر فى عهد الحكم العثمانى المملوكى حتى قيام ثورة الشعب على الوالى التركى سنة ١٨٠٥ . لعل الشباب يتابع قراءة هذه الحلقات ليقف على تاريخ مصرنا تلخيصا للمراجع الكبيرة التى تضمها مؤلفات المغفور له والدنا عن تاريخ مصر القومى .

اكتوبر ١٩٨٩

كريمات المؤلف
عبدالرحمن الرافعى

تقـــديـــم

بقلم : المستشار حلمى السباعى شاهين

واجب علينا أن نذكر هنا أن صاحب الفكرة فى تلخيص مراجع استاذنا عبد الرحمن الرافعى فى تاريخ مصر القومى هو السيد /كمال الدين حسين سنة ١٩٥٨ عندما كان وزير التربية والتعليم ولبى الرافعى هذا المطلب حتى ينتفع الشباب من قراءة هذه الملخصات فيعلم وقائع تاريخ بلده بإيجاز ، وهذا ما نشاهده بين شباب الدول المتقدمة . إذ يصحب كل منهم كتابا مختصرا يقرأه فى "المترو" مثلا أو فى أى مكان تحلو له القراءة السريعة . ومن يريد التوسع والوقوف على تفصيلات الوقائع والأحداث وأسبابها ومحدثيها من رجالات مصر ونتائجها . ورأى الرافعى فى كل حدث .. الخ عليه أن يرجع إلى الكتب المطولة . وهذه الحلقة أعادتها إلى الوجود هيئة الاستعلامات عندما كان الوزير المشرف عليها الأخ الدكتور مراد غالب .

والحلقة الأولى عبارة عن تلخيص للكتابين المطولين ، تاريخ الحركة القومية الجزء الأول والجزء الثانى الذين ظهرا إلى الوجود سنة ١٩٢٩ (الطبعة الأولى) ضمن مؤلفات الرافعى فى تاريخ مصر القومى .

وتجمع هذه الحلقة الأولى حالة مصر فى عهد الحكم المملوكى العثمانى وكفاح شعب مصر من سنة ١٧٩٨ حتى ١٨٠١ . ضد الحملة الفرنسية ومقاومته فى سائر مدن القطر . القاهرة وفى القليوبية والشرقية والمقاومة السلبية وثورة القاهرة الأولى وصداها من مقاومة الشعب المصرى للفرنسيين فى مديريات ومحافظات المنوفية والغربية والدقهلية ودمياط وفى الوجه القبلى واستمرار المقاومة فى مصر وتجددها أثناء الحملة الفرنسية على سوريا وأحداث مصر خلال فترة قيادة الجنرال كليبر ثم ثورة القاهرة الثانية ومقتل كليبر وجلاء الفرنسيين عن مصر ثم ظهور العامل القومى على مسرح الحياة السياسية فى مصر والصراع بين القوات الثلاث والأتراك والمماليك والإنجليز وثورة الشعب المصرى على المماليك ثم على الوالى التركى سنة ١٨٠٥ .

هذا تلخيص وتقديم للحلقة الأولى من الكتاب المختصر مصر المجاهدة في العصر الحديث ـ وللرافعي الجزاء الطيب في الآخرة إزاء ما قدمه لسائر طبقات الشعب ومن بينهم شباب مصر وعدتها .

الفصل الأول :

مصر في العهد العثماني المملوكي

دخلت مصر فى حوزة الحكم العثمانى ابتداء من سنة ١٥١٧ (٩٢٣ هـ) باستيلاء السلطان سليم على البلاد ، واستتبع الفتح العثمانى وضع نظام جديد للحكم فى مصر وهو النظام الذى رزحت تحته البلاد نحو ثلاثة قرون متعاقبة من سنة ١٥١٧ إلى سنة ١٧٩٨ .

صارت مصر فى هذا العهد ولاية من ولايات السلطنة العثمانية ، بعد أن كانت دولة مستقلة ذات سيادة ، ووضع السلطان سليم قاعدة نظام الحكم فيها ، وهى إيجاد ثلاث سلطات تتنازع الحكم وتتقاسمه :

(الأولى) : سلطة الوالى التركى (نائب السلطان) ، وكان يلقب بالباشا ، ومقره (القلعة) ، وكانت الحكومة التركية تعين الوالى لمدة سنة واحدة قابلة للتجديد .

(الثانية)) سلطة رؤساء الجند وهم قواد الفرق التى تتألف منها الحامية العثمانية وتسمى كل فرقة « وجاقا » ولكل فرقة ضباط يسمون (الوجاقلية) .

(الثالثة) : سلطة الأمراء المماليك الذين قدموا طاعتهم للسلطان العثمانى ، فعينهم حكاما للمديريات ، وقد صار إليهم حكم البلاد منذ أواخر القرن السابع عشر ، وتضاءلت بجانبهم سلطة الوالى التركى ، وكانت البلاد مقسمة إلى مديريات أو أقاليم تسمى كل مديرية إقليما أو (سنجقية) ، يحكم كلا منها حاكم يقال له (سنجق) أو (بَك) .

استأثر المماليك بالنفوذ والحكم ، وساعدهم على ذلك ماصارت إليه السلطنة العثمانية من الضعف فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر بسبب حروبها المتواصلة واختلال شئونها الداخلية وفساد نظام الحكم فيها ، وزاد فى نفوذهم كثرة تغيير الولاة الأتراك وعزلهم ، فضعف شأنهم

وتراجع ، فى حين أن المماليك احتفظوا بعصبيتهم بما استكثروا من الجند والأتباع الذين كانوا يشترونهم من بلاد الشركس والقوقاز والكرج ، واستمالوا أيضا إلى جانبهم أفراد الحامية العثمانية إذ كان رجال « الوجاقات » قد استوطنوا مصر واستقروا بها واندمجوا فى أهلها وضعف إرتباطهم بعاصمة السلطنة العثمانية ، وكانت إدارة الحكومة المدنية والمالية بيد المماليك ، واليهم توزيع المرتبات على الجنود ، فصار هؤلاء تبعا لهم بحكم الروابط المالية ، ثم صار رؤساء الوجاقات وأغلب ضباطها من المماليك ، فانحصرت السلطة العسكرية والمدنية فى أيديهم ، وصار لرئيس المماليك الذى يختارونه زعيما لهم ويلقبونه (شيخ البلد) النفوذ الذى لايعارض والكلمة التى لاترد ، وصارت (مشيخة البلد) بمثابة إمارة مصر ، وعبث المماليك بالولاة وأخذوا يعزلون من لايرضون عنه .

نتائج نظام الحكم العثمانى المملوكى

فى حالة مصر السياسية والعمرانية :

كان لنظام الحكم الذى رزحت تحته البلاد من عهد الفتح العثمانى أسوأ الأثر فى حالتها السياسية والعمرانية ، فقد زال عنها الاستقلال الذى كان مصدر عزها وعظمتها ، وصارت مسرحا للفتن والمشادة بين السلطات الثلاث التى تنازعت الحكم فيها ، فحال ذلك دون قيام حكومة ثابتة مستقرة ترفع من شأن مصر وتقيم العدل وتحفظ الأمن بين ربوعها ، وتعنى بمرافقها ، فلا غرو أن اقترن نظام الحكم العثمانى بتأخر البلاد وتقهقرها وتناقص عدد سكانها ، ولو قارنت بين حالتها فى ذلك العهد وحالتها من قبل حينما كانت مملكة مستقلة فى عهد الدول الفاطمية والأيوبية والبحرية والبرجية لرأيت أن البلاد قد رجعت القهقرى خطوات واسعة .

فى الحالة الاقتصادية :

فقد أهمل الولاة العثمانيون والبكوات المماليك أمر الرى وتوزيع المياه وإقامة القناطر والجسور وحفظ الأمن ، فجفت الترع ، وتلفت الأراضى وتعطلت الزراعة ، وفقد الأمن ، وذهبت ثروة البلاد وهاجر الكثير من سكان القطر إلى البلاد المجاورة .

واضمحلت الصناعات والفنون التى كانت تزدان بها مصر فى سالف العصور ، بدأت فى الاضمحلال عقب الفتح العثمانى مباشرة بسبب اضطراب الأحوال وكثرة الفتن وفقد الأمن وإسراف الجنود العثمانية فى السلب والنهب ، أضف إلى ذلك أن السلطان سليماً بعد أن أستقر له الأمر فى القاهرة جمع رؤساء الصناعات المتخصصين فى الفن والصناعة ، ونقلهم إلى الاستانة لينشروا فيها صناعاتهم وفنونهم ، فكان ذلك سببا فى نضوب معين الصناعة والفن فى البلاد ، وتلاشت صناعات كانت عامرة ، وفى ذلك يقول ان ابن إياس المؤرخ المصرى الذى شهد الغزو العثمانى والسنوات الأولى من حكم الأتراك :

« ان السلطان سليم خرج من مصر ومعه ألف جمل محملة من الذهب والفضة فضلا عن التحف والسلاح وأعمدة الرخام والصينى والنحاس ، وأخذ من مصر من كل شىء أحسنه ، وذلك عدا ما غنمه وزراؤه من الأموال الجزيلة ، وكذلك عسكره فانهم غنموا من النهب ما لايحصى ، وبطل من مصر نحو خمسين صنعة[1] » .

وجاء الولاة والحكام المماليك الذين تركت لهم إدارة البلاد فكان حكمهم آفة على الصناعة والتجارة ، وكانت مصادرتهم لأموال التجار من أهم أسباب ركود الحركة التجارية فاختفت رءوس الأموال من أيدى الأهالى وغلب عليهم الفقر وصار الشعب إلى حالة محزنة من الضنك والفاقة .

فى الحالة الصحية :

وفتكت بهم الأمراض والأوبئة التى كانت تتحيف البلاد وتجتاح مئات الآلاف من الناس . وتأخذهم أخذا وبيلا ، كل ذلك والحكام يصرفهم الجهل عن مقاومتها[2] وليس فى البلاد طب ولاأطباء . والناس متروكون لرحمة

(١) الجزء الثالث من تاريخ مصر لابن اياس .

(٢) فى سنة ١٠٢٨ أصيبت مصر بطاعون جارف فى زمن الوزير جعفر باشا لبث أربعة أشهر مات فيه ستمائة الف نفس ، وفى سنة ١٠٣٥ اصيبت البلاد بوباء مات فيه ٣٠٠ الف نفس . وفى سنة ١٠٥٠ (١٦٤١ ميلادية) فى زمن مقصود باشا حصل طاعون لم يسمع بمثله وخرب بهذا الطاعون ٢٣٠ بلدة من الوجه البحرى كما قال ابن ابى السرور البكرى . وحدث طاعون آخر فى شياخة ذى الفقار بك سنة ١١٤٢ (١٧٢٩ ميلادية) وطاعون فى شياخة عثمان بك ، وفى سنة ١٢٠٥ (١٧٩١ ميلادية) أصيبت البلاد بطاعون فظيع سماه أهل مصر طاعون اسماعيل لأنه وقع فى عهد مشيخته كان يموت فى القاهرة زيادة عن ألف نفس فى اليوم ومات به اسماعيل بك ومعظم مماليكه وتغير الحكام فى اليوم الواحد ثلاث مرات لموتهم ومات به من سكان القاهرة نحو ستين الفا .

المنجمين والحلاقين .

فى العلوم والآداب :

وفشا الجهل فى البلاد ورزح الشعب تحت نير العبودية وظلام الجهالة ، وحرمت البلاد من معاهد العلم والتعليم ، ولم يبق بها سوى الجامع الأزهر الذى كان قائما قبل عصر البكوات المماليك وبعض المدارس الملحقة بالمساجد ، فكان الأزهر هو المعهد الوحيد الذى تدرس فيه العلوم ، ولولاه لانطفأت اخر شعلة للعلم فى مصر ، وكان بالقاهرة وبعض البنادر والثغور كتاتيب ينفق عليها من أموال الصدقات والأوقاف ، ولكنها كانت قليلة النفع ضعيفة الأثر فى تبديد ظلام الجهالة فى البلاد .

وذوت العلوم والآداب فى مصر بعد أن كانت زاهية زاهرة ، فقد ظلت الآداب العربية إلى عهد السلاطين البحرية والبرجية (الشراكسة) حافظة مكانتها التى كانت لها من قبل ، وإليهم يرجع الفضل فى إنقاذ آداب اللغة العربية من غزوات المغول التى كادت تقضى على العلوم والآداب العربية فى الشرق ، فكانت مصر ملجأ للناطقين بالضاد ممن فروا امام التتار فى العراق وفارس وسوريا وخراسان ، وبقيت لغة حكومتها عربية فى عهد تينك الدولتين ، واستظلت العلوم والآداب بحماية الملوك والسلاطين فى مصر ، ونبغ فيها طائفة من فطاحل الشعراء والأدباء والعلماء ، كالبوصيرى صاحب البردة ، والسراج الوراق ، وابن نباته المصرى ، والقلقشندى صاحب صبح الأعشى ، والأبشيهى صاحب المستطرف ، وابن منظور صاحب لسان العرب ، وابن هشام النحوى العظيم الذى يقال فيه إنه أنحى من سيبويه ، وابن عبد الظاهر ، والنواجى[٣] صاحب حلبة الكميت ، والقسطلانى المحدث المشهور ، وشمس الدين السخاوى صاحب الضوء اللامع ، وابن خلكان المؤرخ المشهور صاحب وفيات الأعيان ، والصفدى صاحب الوافى ، وابن حجر المؤرخ إمام الحفاظ المحدثين فى زمانه ، والعينى المؤرخ والمحدث ، وابن وصيف شاه ، وابن دقماق ، والمقريزى صاحب الخطط ، والمكين بن العميد ، وابو الفداء[٤] المؤرخ الجغرافى المشهور صاحب تقويم البلدان ،

---

(٣) نسبة إلى فواج احدى قرى مديرية الغربية .

(٤) هو الملك المؤيد صاحب حماه ، ويلاحظ أن الدولة المصرية كانت فى ذلك العصر تضم سورية .

والذهبى ، والنويرى صاحب نهاية الأرب فى فنون الأدب ، وابن فضل الله العمرى صاحب مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، وابن عقيل ، وابن تغرى بردى صاحب النجوم الزاهرة ، وجلال الدين السيوطى صاحب التأليف الشهيرة فى التفسير والعلوم الشرعية والتاريخ والأدب واللغة ، وهو آخر من ظهر فى ذلك العصر من كبار العلماء بمصر ، والدميرى صاحب حياة الحيوان ، وابن إياس المؤرخ الذى أدرك الفتح العثمانى .

وقد استضافت مصر فى ذلك العصر جماعة من أئمة العلم والفلسفة فى الشرق ، كالإمام ابن تيمية ، وابن قيم الجوزية ، وفيلسوف المؤرخين ابن خلدون .

أما فى عهد الولاة العثمانيين والبكوات المماليك فقد اضمحلت الآداب العربية وجمدت القرائح وركدت حركة العلم ، ولاغرابة فى ذلك فإن القاهرة صارت مركز ولاية تابعة للإستانة بعد أن كانت عاصمة دولة مستقلة ، بل عاصمة العالم العربى كله ، وصارت مخاطبات السلاطين والولاة باللغة التركية بعد أن كانت العربية لسان الحكومة لغاية انتهاء دولة السلاطين البرجية ، وتقهقرت البلاد وساءت إدارتها ، فأثرت هذه الأسباب مجتمعة فى حالة العلوم والآداب ، وآلت إلى الاضمحلال والذواء ، واندثرت المدارس التى كانت زاهرة فى عهد الفاطميين والأيوبيين وخلفائهم السلاطين البحرية والبرجية ، وتبددت خزائن الكتب التى يرجع انشاؤها إلى عهد الفاطميين ولم يبق منها إلا بعض المكاتب الملحقة بالمساجد كمكتبة الأزهر التى كان بها إلى عهد الحملة الفرنسية نحو ٣٢,٠٠٠ مجلد .

قال المرحوم على باشا مبارك يصف إهمال شأن المدارس فى مصر مدة ثلاثة قرون متوالية :

« من ابتداء القرن التاسع إلى القرن الثانى عشر[٥] يعنى مدة ثلاثة قرون قد أهمل أمر المدارس وامتدت أيدى الأطماع إلى أوقافها ، وتصرف فيها النظار على خلاف شروط وقفها ، وامتنع الصرف على المدرسين والطلبة والخدمة فأخذوا فى مفارقتها ، وصار ذلك يزيد فى كل سنة عما قبلها لكثرة الاضطرابات الحاصلة بالبلاد حتى انقطع التدريس فيها بالكلية ، وبيعت كتبها وانتهبت ، ثم اخذت تتشعث وتتخرب من عدم الالتفات الى عمارتها ومرمتها ، فامتدت أيدى الناس والظلمة إلى بيع رخامها وأبوابها وشبابيكها

(٥) وهذه المدة يقع معظمها فى عهد الحكم العثمانى .

حتى آل بعض تلك المدارس الفخمة والمبانى الجليلة إلى زاوية صغيرة تراها مغلقة فى أغلب الأيام وبعضها زال بالكلية وصار زريبة أو حوشا أو غير ذلك ، ولله عاقبة الأمور [٦] » .

هذه صورة لما آلت إليه العلوم والآداب من الاضمحلال والذواء فى عهد الحكم العثمانى ، من أجل ذلك قلما نبغ من عهد الفتح التركى شاعر أو عالم أو أديب ، ولاتكاد تعد فى هذا العصر سوى شهاب الدين الخفاجى ، والسيد محمد مرتضى زبيدى العالم اللغوى المشهور صاحب تاج العروس فى شرح جواهر القاموس ، وأصله من اليمن واستوطن مصر وتوفى بها ، وعبدالوهاب الشعرانى صاحب الطبقات وغيرها من المصنفات الكثيرة ، وابن أبى السرور البكرى الصديقى صاحب الروضة المأنوسة ، والصبان ، وعبدالرحمن الجبرتى المؤرخ المشهور ، ولو تأملت فى تراجم من ذكرهم الجبرتى فى كتابه من علماء ذلك العصر لما رأيت منهم من يصح اعتباره عالما نابها فى الفلسفة أو العلوم والآداب ، واقتصر التدريس فى الأزهر على العلوم الفقهية واللسانية ، وبطل تعليم العلوم العقلية والرياضية والطبيعية التى كان يدرسها أسلافهم والتى كانت تزدان بها جامعات بغداد وقرطبة فى عصر ازدهار الحضارة الاسلامية ، واعتزال الأزهر النهضة العلمية الأوروبية الحديثة فبعدت الشقة بينه وبين التقدم العلمى القديم والحديث ، واقتصر المؤلفون من علمائه على النقل ووضع الشروح والحواشى والتقارير والتعليقات ونحوها مما لا يمكن أن يكون أساسا لنهضة علمية صحيحة ، وانحط أسلوب الكتابة حتى قرب من العامية ، وكان المجيدون من الكتاب والأدباء ، لايتوخون فى كتابتهم إلا تنميق العبارات بالسجع الركيك والمحسنات البديعية كالجناس والتورية ، واضمحلت روح البلاغة ، ولم يبق فى متناول الجمهور من آثار الآداب العربية سوى قصص أبى زيد الهلالى وعنترة والزناتى خليفة وما إلى ذلك ، وتضاءلت مكانة الشعر والأدب لدرجة ان كلمة « شاعر » كانت تطلق على جماعة يجلسون فى القهوات ويلقون على مسامع الجماهير قصص أبى زيد والظاهر بيبرس وينشدونها على نغمات الربابة .

هذا التقهقر هو نتيجة حكم الولاة الأتراك والبكوات المماليك ، ومن الواجب أن نفرق بين عهد البكوات المماليك وعهد السلاطين المماليك من الدولتين البحرية والبرجية ، فإن عهد هؤلاء كان عهد عمران وحضارة ، وعلى

---

(٦) الخطط التوفيقية .. الجزء الأول .

ما كان يتخلله من المظالم فقد كان كثير من السلاطين ذوى علم وأدب وثقافة لقرب عهدهم بعصر الحضارة الإسلامية .

أما حكم البكوات المماليك فكان عصر تأخر وجهالة ، وكانوا هم والولاة الأتراك علة ما أصاب البلاد من التقهقر ، ومن الخطأ أن يظن بعض المؤرخين أن البكوات المماليك ظلوا على توالى السنين سلالة الدولتين البحرية والبرجية ، فإن المعروف أن افواج المماليك كانت ترد إلى مصر من بلاد الشركس والقوقاز ، فالصلة التى كانت تربط المماليك بالدولتين البحرية والبرجية عند الفتح العثمانى قد انقطعت مع الزمن ، أضف إلى ذلك أن المماليك كان معروفا عنهم العقم وقلة النسل ، وكانت ذريتهم تنقرض ونسلهم ينقطع فى جيل او جيلين فكانوا يسدون النقص الذى يبدو فى صفوفهم بشراء أفواج الأرقاء من أسواق الرقيق ، وإذا تأملت فى تراجم البكوات المماليك الذين ذكرهم الجبرتى فى تاريخه تجد أنهم ليسوا من سلالة الدولتين البحرية والبرجية بل هم مجلوبون من أسواق الرقيق ، وليس فيهم أحد لم يكن أصله مملوكا اشتراه أحد المماليك .

الفصل الثانى :

المجتمع المصرى الذى
كافح الحملة الفرنسية
سنة ١٧٩٨ - ١٨٠١

الآن وقد انتهينا من الكلام عن نتائج نظام الحكم العثمانى المملوكى ، فلننتقل إلى الحديث عن الحالة الاجتماعية للشعب المصرى فى أواخر القرن الثامن عشر ، ونبين عناصر المجتمع الذى واجه العدوان الفرنسى سنة ١٧٩٨ .

كان عدد سكان مصر فى ذلك الحين ثلاثة ملايين نسمة ، ينقسمون إلى حكام ومحكومين ، فالمحكومون هم الشعب المصرى ، والحكام هم فئة المماليك الذين استبدوا بحكم البلاد وكانوا من سلالات أجنبية .

أما الشعب المصرى فهو سلالة الفراعنة والعرب ، امتزج به الدم المصرى القديم بالدم العربى الحديث ، وكان يتألف من عدة طبقات اجتماعية نذكرها فيما يلى :

العلماء :

فأولها طبقة العلماء ورجال الشرع ، وكان لهم فى ذلك العهد تأثير عظيم فى نفوس الأمة وقيادة أفكارها ، ولهم الزعامة الأدبية والسياسية بين الجماهير ، واليهم ترجع قيادة الحركات التى ظهرت على مسرح الحوادث السياسية فى مصر .

وكان هؤلاء العلماء موئل المواطنين فى الاعتراض على مظالم الحكام والمطالبة برفعها ، وكانوا بحكم مكانتهم العلمية والدينية بمثابة نواب الأمة فى التعبير عن آلامها وآمالها ، وقد ظهرت نيابتهم عن الشعب فى القرن السابع عشر والثامن عشر ، وكان لهذه النيابة أثرها فى بعض المواطن فى رفع المظالم عن الشعب أو التخفيف منها .

الملاك والتجار :

وطبقة الملاك والتجار وهى تشمل أصحاب الأملاك العقارية والزراعية والمشتغلين بالتجارة والأعيان من سكان المدن والأقاليم من ذوى الثروات المتوسطة ، وفيهم عدد قليل من أغنياء الملاك والتجار .

وكان التجار يشغلون حيزا كبيرا فى المجتمع المصرى ، وكانوا أغنى طبقات الشعب ، ووصل بعضهم إلى درجة عظيمة من الثراء والجاه ، واتسعت تجارتهم الخارجية ، وكانوا يستمدون ثروتهم من نشاطهم ومن مركز مصر التجارى إذ كانت (ولاتزال) الملتقى الطبيعى للقارات الثلاث أفريقيا وآسيا وأوربا .

المزارعون (الفلاحون) :

ومنهم يتكون الشطر الأكبر من الأمة ، وكانوا فى حالة يرثى لها من الفاقة والجهل ، والزراعة فى تقهقر وتأخر بسبب حرمان البلاد من منشآت الرى والصرف ، وحرمانها حكومة عادلة توطد الأمن وتصون حقوق الأفراد .

الصناع والصناعات :

لم تكن البلاد وقتئذ تعرف الصناعات الكبرى ، واقتصر الشأن على الصناعات الصغرى ، وكان الصناع والعمال ينتظمون فى طوائف تشبه نقابات الصناع الحالية ، لكل حرفة طائفة يرأسها شيخ يسمى (شيخ الطائفة) ، واليه النظر فى شئونها .

وكانت الصناعات الصغرى منتشرة ومتفرعة إلى فروع عدة ، فمنها الصناعات والمهن المتعلقة بالمواد الغذائية ، والصناعات الخاصة بالملبس ، والصناعة المتعلقة بالبناء والعمران .

ومن الصناعات الأخرى الصياغة وتركيب الأحجار الكريمة وسك النقود .

ويدخل فى عداد الصناع السقاؤون وكان عددهم كبيرا جدا فى ذلك العهد لأنهم يحملون ماء النيل إلى جميع السكان فى القاهرة والبنادر . والمكارون[1] والحمالون . والنوتية فى النيل .

المسلمون والأقباط :

كان المسلمون والأقباط يشتركون على السواء فى احتمال ظلم الحكام

الطائفة التى تؤجر الحمير للانتقال بها من مكان إلى آخر

وسوء الادارة ، وشارك الأقباط إخوانهم المسلمين فى الزراعة والصناعة والتجارة ، وتخصص الأقباط فى الأعمال الحسابية والمالية ، فعهد اليهم البكوات المماليك بتحصيل الضرائب وتقديرها وتوزيعها على الأطيان والحاصلات ، فكانت لهم فى هذه الناحية من إدارة الحكومة سلطة لاينازعهم فيها منازع ، ورؤساؤهم يسمون (المباشرين) - جمع مباشر - وهم أصحاب النفوذ والسلطة عليهم ، ورئيسهم يسمى (كبير المباشرين) وله نفوذ عظيم يستمده من اتساع أعمال وظيفته وتفرعها فى الأقاليم ، وسلطته على من تحت يده من المباشرين والصيارفة والكتبة والمساحين .

وعاش المسلمون والأقباط شعبا واحدا عرف بالتسامح والاعتدال ، والبعد عن التعصب الدينى أو العنصرى ، وكان هذا ولم يزل من مميزات الشعب المصرى .

●

الفصل الثالث :

المقاومة الشعبية فى
الاسكندرية والبحيرة

إن الحملة الفرنسية هى حلقة من حلقات الاستعمار الأوروبى ، والعدوان على بلدان الشرق العربى ، وكانت من ناحية أخرى مظهرا للتنازع الذى قام بين فرنسا وانجلترا على الغزو والاستعمار ، هذا التنازع الذى يرجع إلى القرن السابع عشر واستمر خلال القرن الثامن عشر ، ففى مارس سنة ١٧٩٨ قررت الحكومة الفرنسية إنفاذ الحملة على مصر لاحتلالها وأسندت قيادتها إلى نابليون بونابرت .

وبلغت قوة هذه الحملة ٣٦٠٠٠ مقاتل مزودين بأحدث المعدات الحربية ، أقلتهم عمارة بحرية من ثلثمائة سفينة يحرسها أسطول من ٥٥ سفينة حربية .

كانت الحكومة الفرنسية تظن قبل تجريد هذه الحملة أنها لن تلقى مقاومة من جانب المصريين ، لما وقر فى الأذهان وقتئذ من ميلهم إلى الهدوء وكراهيتهم لحكامهم المماليك ، ولأنهم كانوا فى الجملة عزلا من السلاح ، فلم يكن الفرنسيون ينتظرون من جهة الشعب مقاومة أو محاربة .

ولكن الحوادث قد خيبت ظنونهم ، فإن المقاومة التى لقوها من جانب المصريين كانت أشد من مقاومة المماليك .

وإنك إذا تتبعت سلسلة المقاومات التى لقيها الجيش الفرنسى من المصريين تعجب لشدة مقاومة الأمة وقتئذ للاحتلال الفرنسى ، واستمرار هذه المقاومة وانفساح مداها فى أنحاء البلاد ، حتى كأن ثورة عارمة قد اندلعت فى وجه الفرنسيين واشتد لهيبها من أقصى البلاد إلى أقصاها .

ولقد هزت الحملة الفرنسية أعصاب الأمة المصرية ، فأخذت تنفض عنها غبار الجمود الذى كان يخيم عليها منذ الغزو العثمانى سنة ١٥١٧ ، فاستثار

العدوان الاستعمارى روح القومية فى نفوس المصريين ، وأخذوا يشعرون أن لبلادهم مركزا ممتازا فى العالم وأن لهم كيانا يدعوهم للمحافظة عليه والنضال فى سبيله ، وكان من نتائج هذا الشعور سريان روح المقاومة ضد الحملة الفرنسية فى البلاد كلها ، من الاسكندرية إلى أسوان .

فى الاسكندرية :

كانت الاسكندرية أول بلد قصدته القوات الفرنسية المغيرة ، وكان عدد سكانها لايزيد وقتئذ على ثمانية آلاف نسمة ، وقد توقع أهلها زحف الفرنسيين قبل مجيئهم بأيام وتأكدت أنباء هذا العدوان المتوقع من حضور الأسطول البريطانى بقيادة الأميرال (نلسن) إلى مياه الاسكندرية يوم ٢٨ يونيه سنة ١٧٩٨ يفتش عن العمارة الفرنسية فى أنحاء البحر الأبيض المتوسط ، ولم تكن هذه العمارة قد وصلت بعد إلى المياه المصرية .

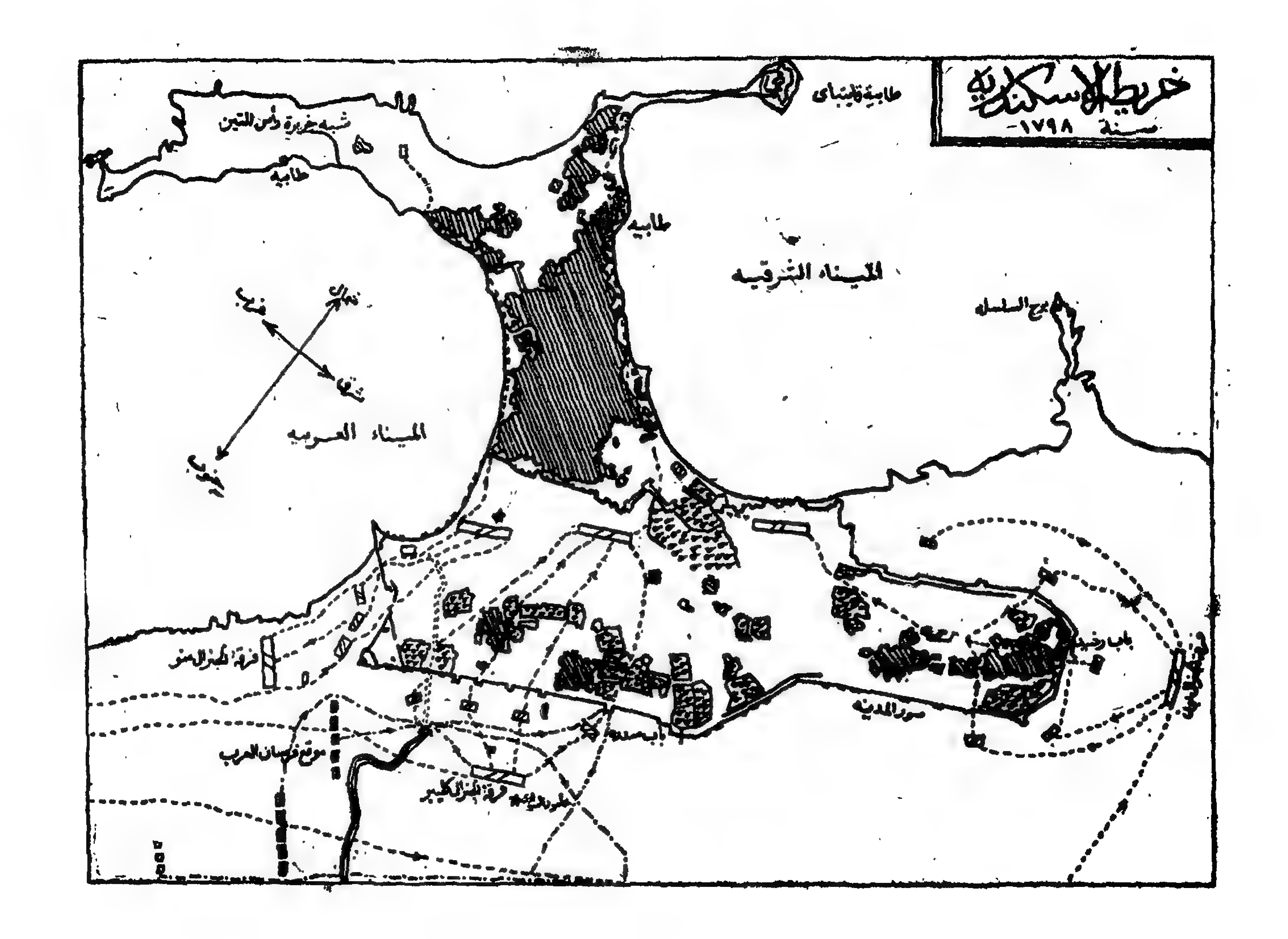
وقد أرسل نلسن إلى السيد محمد كريم حاكم المدينة الوطنى ينبهه إلى احتمال حضور العمارة الفرنسية ، وطلب منه أن يأذن له فى دخول الثغر ليتزود منه بما يحتاجه من المؤونة والماء العذب ، ولكن السيد كريم رفض طلبه وأساء الظن فى مقاصده ، وكان محقا فى موقفه ، إذ أن الانجليز والفرنسيين سواء فى أغراضهم الاستعمارية ، فأقلع الأميرال نلسن بأسطوله متجها إلى شواطىء الأناضول

وإذ علم الأهلون بقرب مجىء العمارة الفرنسية فقد أخذوا يستعدون للدفاع قدر ما استطاعوا ، ويحصنون القلاع ويزيدون عدد الجنود بالمتطوعين للقتال ويجمعون جيشا من المواطنين .

وقد جاءت العمارة الفرنسية ونزلت القوات الأولى من جيش الغزو ليلة ٢ يوليه سنة ١٧٩٨ بجهة العجمى التى تبعد عن المدينة غربا بنحو اثنى عشر كيلو مترا ، وظل نزول الجنود إلى الشاطىء متراسلا طوال الليل ، وفى الصباح الباكر من هذا اليوم (٢ يوليه) زحفت قوات الغزو على الاسكندرية فوصلت تجاه أسوار المدينة عند شروق الشمس .

السيد محمد كريم

كان السيد محمد كريم حاكم الاسكندرية الوطنى على رأس المقاومة الشعبية التى كافحت الغزاة . ولم تكن المدينة على أهبة القتال بسبب تراخى



خريطة الإسكندرية
سنة ١٧٩٨
طابية قايتباى
شبه جزيرة رأس التين
طابية
طابية
الميناء الشرقية
برج السلسلة
الميناء الغربية
شمال
شرق
غرب
جنوب
باب رشيد
سور المدينة
موقع فرسان العرب
فرقة الجنرال كليبر
فرقة الجنرال منو

حكومة المماليك وإهمالها شئون الدفاع عامة .

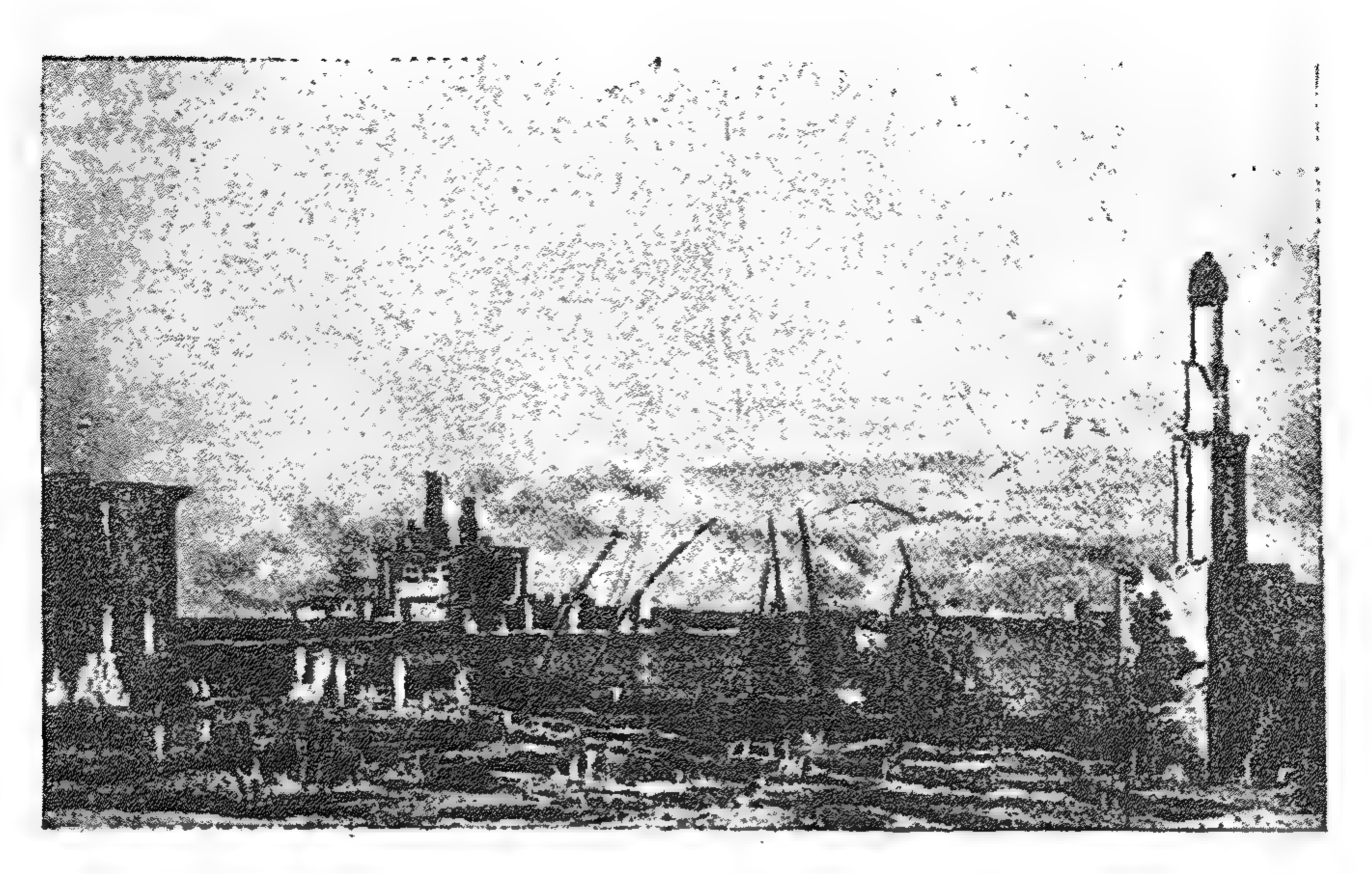
ومنذ قدوم العمارة الفرنسية أرسل السيد كريم السعاة إلي مراد بك بالقاهرة يطلب منه النجدة ، ولكن الوقت لم يكن فيه متسع لوصول السعاة برا إلى العاصمة ، ولا إلى وصول نجدة ما ، على أن الاسكندريين بقيادة سيد كريم قد بذلوا ما فى مقدورهم دفاعا عن المدينة ، فحصنوا الأسوار ، وشحنوا القلاع بالميرة والذخيرة جهد ما وصلوا إليه ، وفزعوا إلى السلاح فحمله قادرون منهم ، وركبوا المدافع العتيقة على أسوار المدينة ، وعهدوا إلى جماعة من الفرسان بمناوشة القوات الفرنسية قبل اقترابها ، فحدثت مناوشات بين الفرنسيين والفرسان ارتد هؤلاء على أثرها ، وتابع الفرنسيون زحفهم على المدينة .

● ● ●

احتشد الأهلون الذين يحملون السلاح على الأسوار وفى الأبراج التى تتخللها للدفاع ، وشاهد نابليون عن بعد أهل المدينة محتشدين بأعلى الأسوار مشاة وركبانا ، رجالا ونساء ، كبارا وصغارا ، ومعظمهم مسلح بالبنادق والرماح ، فأصدر أمره بالهجوم العام ، وأخذ الأهلون يطلقون النار من المدافع المركبة على الأبراج والأسوار إطلاقا من غير إحكام ، وهاجم الغزاة المدينة من عدة جهات ، فقابلهم الأهلون فى الشوارع بإطلاق النار إطلاقا شديدا من المدافع والبنادق ، وأخذوا يطلقون الرصاص من البيوت على الجنود المهاجمين ، وكاد نابليون نفسه يصاب برصاصة فى إحدى الحارات لولا الحظ الذى نجاه من الموت ، قال بوربين Bourienne سكرتيره الخاص فى هذا الصدد « دخل بونابرت المدينة من حارة لاتكاد لضيقها تسع اثنين يمران جنبا إلى جنب ، وكنت أرافقه فى سيره ، فأوقفتنا طلقات رصاص صوبها علينا رجل وامرأة من إحدى النوافذ ، واستمر يطلقان الرصاص ، فتقدم جنود الحرس وهاجموا المنزل برصاص بنادقهم ، وقتلوا الرجل والمرأة » .

وظل السيد محمد كريم يدافع بعد دخول الفرنسيين المدينة معتصما بقلعة (قايتباى) بالميناء الشرقى ومعه فريق من المقاتلة ، إلى أن كلت قواه ، ورأى استمرار المقاومة عبثا لايجدى ، فكف عن القتال ، فتلقاه نابليون لقاء كريما مقدرا شجاعته فى الدفاع ، وأبقاه حاكما للاسكندرية .

ولم يكن بد من استيلاء الفرنسيين على المدينة ، لأن قوة الدفاع عنها كانت أضعف من أن تقاوم جيش نابليون وهو فى عنفوان قوته .



الاسكندرية ـ الميناء الشرقية سنة ١٧٩٨ .

وقدر نابليون فى مذكراته خسائر الجيش الفرنسي فى مهاجمة الاسكندرية بثلاثمائة بين قتيل وجريح ، وقدر خسائر الاسكندريين بسبعمائة إلى ثمانمائة بين قتيل وجريح .

وقبل أن يغادر الاسكندرية أعاد إلى السيد محمد كريم سيفه وقال له : « لقد أخذتك والسلاح فى يدك ، وكان لى أن أعاملك معاملة الأسير ، ولكنك استبسلت فى الدفاع ، والشجاعة متلازمة مع الشرف ، لذلك أعيد إليك سلاحك وآمل أن تبدى للجمهورية الفرنسية من الاخلاص ما كنت تبديه لحكومة سيئة » .

على أن السيد محمد كريم لم يخلص لفرنسا ، إذ كان يدرك بفطرته السليمة أنها إنما جاءت للعدوان على البلاد تحقيقا لأطماعها الاستعمارية ، وأخلص السيد كريم لوطنه ، فأخذ ينظم المقاومة السرية ضد الاحتلال الأجنبى فى الاسكندرية ثم فى القرى المجاورة .

عين نابليون قبل زحفه على القاهرة الجنرال كليبر Kleber قومندانا للاسكندرية وضواحيها .

ولم يستتب الأمر للفرنسيين فى المدينة ، بل كان الأهلون لايدعون فرصة تمر دون أن يبدوا سخطهم على الاحتلال .

ومن ذلك أنه فى يوم ١٣ يولية سنة ١٧٩٨ قتل أحد جنود مدفعية الأسطول الفرنسى ، ولم يعرف قاتله ، ووجدت جثته ملقاة فى أحد الشوارع ،

وفي الوقت نفسه ألقى فى البحر خادم أحد الضباط الفرنسيين فمات غريقا ، حصلت الحادثتان فى يوم واحد ، فترامى الخبر فى المدينة ، وتحفز الأهلون للهياج ، فاتخذ الجنرال كليبر الشدة في معالجة هذه الحالة ، واعتقل بعض أعيان المدينة بصفة رهائن ، واستدعى السيد محمد كريم والقاضى الشرعى وكبار الأعيان ، وطلب منهم البحث عن الجناة ومحاكمتهم ، وتهدد بشنق من تقع عليه القرعة من الرهائن إذا لم يعاقب الجانى فى خمسة أيام .

وتعهد السيد كريم وزعماء المدينة بتعقب الجناة ومحاكمتهم ، ولكن البحث لم يؤد إلى نتيجة ، وعرف اسم القاتل وتبين انه نجا بنفسه ، فحوكم غيابيا بالمحكمة الشرعية وحكم عليه قاضى الاسكندرية بالقصاص (الاعدام) .

وتجلت روح الكراهية للفرنسيين حين أنفذ الجنرال كليبر كتيبة طوافة من الجنود لتجوب بعض جهات مديرية البحيرة وتعرج بدمنهور ثم تنثنى إلى رشيد « فأبو قير » فالاسكندرية للاطمئنان على سلامة مواصلات الجيش الفرنسى بين المدينة والمواقع المهمة .

لم تستطع هذه الكتيبة أن تتزود فى الاسكندرية بما يكفيها من الماء والزاد ، لأن الأهلين حين علموا بعزم القيادة الفرنسية على تجريد هذه الكتيبة هرّبوا الجمال لكيلا يستعين بها الفرنسيون ، ولقيت الكتيبة عنتا ومشقة بعملهم هذا ، وقوبلت الكتيبة فى طوافها بالمقاومة الشديدة من الأهلين ، وخاصة فى دمنهور ، فقد احتشد فيها نحو ستة آلاف من الثائرين واستعدوا لقتال الفرنسيين وتجمعوا فى الطرق والشوارع وفوق أسطح المنازل ، فاضطرت الكتيبة إلى إخلاء دمنهور وعدلت عن طوافها لما عانته من المتاعب والغارات فى طريقها ورجعت أدراجها إلى الاسكندرية مضعضعة منهوكة القوى .

واستنتج الفرنسيون من مقاومة دمنهور أن هناك مخابرات سرية بين الاسكندرية والمدن التى مرت بها الكتيبة وأن أهالى دمنهور كانوا على علم بقدوم الفرنسيين قبل وصولهم إلى المدينة .

وبدأت القيادة الفرنسية من ذلك الحين ترتاب فى السيد محمد كريم وتتهمه بالعمل ضدها ، فأمر الجنرال كليبر بالقبض عليه يوم ٢٠ يوليه سنة ١٧٩٨ ، وأرسله مقبوضا عليه إلى « أبو قير » حيث كان الأسطول الفرنسى راسيا ، واعتقل بالبارجة (أوريان) سفينة الأميرال (برويس) قائد الأسطول .



السيد محمد كريم ـ حاكم الاسكندرية
الوطنى حين مجىء الحملة الفرنسية .

وقد اتهمه كليبر بأنه كانت له يد فى المقاومة التى لقيتها الكتيبة الفرنسية التى اخفقت فى مهمتها ، وكان السيد كريم قبيل القبض عليه قد دافع عن أهل المدينة لمناسبة وضع سلفة إجبارية على تجار الثغر يدفعونها للجيش الفرنسى ، فعارض السيد كريم فى فرض هذه السلفة ، وتلكأ فى الموافقة عليها أو المعاونة فى تحصيلها ، فأسرّها كليبر فى نفسه ، ولما عادت الكتيبة وتحقق ما لحق جنودها من الخسائر بسبب توالى هجوم الأهلين عليها اجتمعت كل هذه العوامل وأفضت إلى القبض على السيد كريم .

ولما علم نابليون بما هو منسوب إلى السيد كريم أرسل إلى الأميرال برويس بأن يكبله بالحديد لكى لايهرب من الاعتقال .

وأرسل السيد كريم إلى القاهرة وظل سجينا رهن التحقيق ، وتولى الجنرال ديبوى Dupuy قومندان القاهرة أمر التحقيق معه ، فاستجوبه فى

التهمة الموجهة اليه وهى اتصاله بأعداء فرنسا ، وانتهى التحقيق بثبوت التهمة عليه ، وأصدر نابليون أمره فى ٥ سبتمبر سنة ١٧٩٨ باعدامه رميا بالرصاص ومصادرة أملاكه وأمواله . وسمح له ان يفتدى نفسه بدفع غرامة ثلاثين ألف ريال فى أربع وعشرين ساعة ، فلم يقبل السيد كريم أن يدفع هذا المبلغ ، وأظهر جلدا وشجاعة أمام حكم الاعدام ، فكان بطلا من أبطال المقاومة .

وقد نصحه المستشرق فانتور Venture كبير تراجمة الحملة الفرنسية بأن يدفع الغرامة وقال له : « إنك رجل غنى فماذا يضيرك أن تفتدى نفسك بهذا المبلغ » ؟

فأجابه السيد كريم : « إذا كان مقدورا على ان أموت فلا يعصمنى من الموت أن أدفع هذا المبلغ ، وإذا كان مقدرا لى الحياة فعلام أدفعه ؟» .

وظل على إصراره إلى أن نفذ فيه الحكم بالاعدام رميا بالرصاص فى ميدان الرميلة (القلعة) يوم ٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، فمات بطلا شهيدا .

تكريم الثورة لذكرى السيد محمد كريم بعد نيف ومائة وخمسين عاما

فى سنة ١٩٥٣ أمرت حكومة الثورة بتكريم ذكرى السيد محمد كريم ، فوضعت لأول مرة صورته مع صور محافظى الاسكندرية فى دار محافظة المدينة تخليدا لذكراه .

وأطلق اسمه على شارع من أهم شوارع الاسكندرية وهو (شارع التتويج) فصار اسمه (شارع السيد محمد كريم) .

وأطلق اسمه على المسجد الذى يحمل الآن اسم السيد محمد كريم والكائن بجوار قصر راس التين ، وكان منشأ داخل أسوار القصر ليحمل اسم فاروق ، فاستبدل به اسم السيد محمد كريم ووضعت في واجهة هذا المسجد لوحة رخامية تذكارية نقشت عليها العبارة الآتية :

« إكبارا للبطولة وتكريما للذكرى واعتزازا بالوطنية وإنصافا للتاريخ رأت وزارة الأوقاف أن يطلق اسم السيد محمد كريم على هذا المسجد فى حى رأس التين ، والسيد محمد كريم هو حاكم الاسكندرية وابنها البار وشهيدها العظيم ، اعتقله الجيش الفرنسى وقتله رميا بالرصاص فى مدينة القاهرة

بجوار القلعة يوم ٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ وهو يدافع عن أمته ويذود دنس الاحتلال عن شرف وطنه العزيز » .

وافتتح قادة الثورة هذا المسجد يوم الجمعة ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٥٣ ، وأدوا فيه فريضة الجمعة إيذانا بافتتاحه للشعب ، وهكذا كرمت الدولة ذكرى السيد محمد كريم بعد أن ظلت مغمورة فى عهد الحكومات المتعاقبة قبل ثورة ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ .

فى البحيرة

كانت البحيرة أول مديرية اجتازها الجيش الفرنسى في زحفه إلى القاهرة فلاقت من وراء اجتيازه لها شدائد وأهوالا ، منها نهب القرى التى مر بها الجيش ، وقد قاومت القرى زحف الحملة قدر ما استطاعت ، وبلغ الفرنسيون (الرحمانية) على شاطىء النيل يوم ١٠ يوليه سنة ١٧٩٨ ، ووصلت إليها عن طريق رشيد حملة نيلية يقلها أسطول من السفن الفرنسية الخفيفة .
ولما علم مراد بك وهو فى العاصمة بأنباء زحف الجيش الفرنسى تقدم بجيشه ليصد زحف الفرنسيين .

معركة شبراخيت
١٣ يوليه سنة ١٧٩٨

كان جيش مراد بك مؤلفا من نحو ١٢ ألف مقاتل ، منهم ثلاثة آلاف فقط من فرسان المماليك ، والباقون من المصريين ، وكان هؤلاء مسلحين بالبنادق والعصى (الشماريخ) ، ويحمى ميمنة هذا الجيش أسطول من السفن المصرية المسلحة يقوده القبطان خليل الكريتلى .
وقد التقى الجيشان فى شبراخيت يوم ١٣ يوليه سنة ١٧٩٨ ودارت فيها معركة تراوح الحظ فيها بين الفريقين ، فقد تلاقى الأسطولان المصرى والفرنسى فى النيل بالقرب من شبراخيت ، وأخذا يتبادلان إطلاق القنابل ، وكان مركز الأسطول الفرنسى فى بداية الواقعة محفوفا بالخطر ، اذ كان ألوف من الأهلين المسلحين على شاطىء النيل يهاجمونه من الجانبين ، فغرقت منه خمس سفن فى قاع النيل ، واستولى الأهلون على سفينتين مسلحتين ، ومرت لحظة كادت الدائرة تدور على السفن الفرنسية لولا إحكام

مرمى مدافعها ، فأصابت قنبلة منها سفينة من سفن الأسطول المصرى كان بها مستودع البارود . فانفجر ونسفت السفينة نسفا .

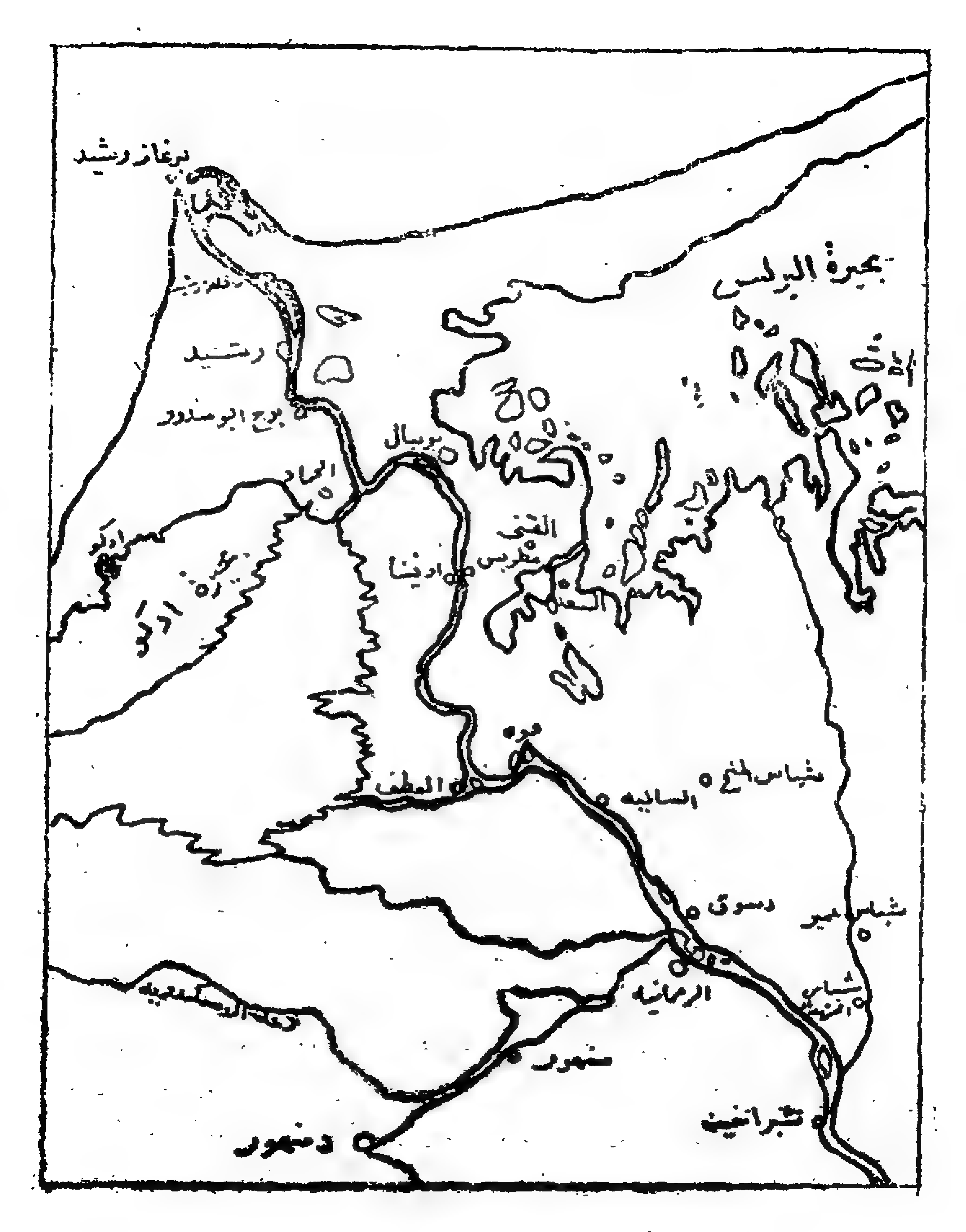
ونزلت قوة من الجنود الفرنسيين إلى البر لمقاومة الأهلين الذين كانوا يطلقون النار على السفن ، فاستطاعوا أن يبعدوا عن الشاطىء جموع الأهلين الذين كانوا يهاجمون الأسطول الفرنسى ، واستمر القتال ثلاث ساعات .

ثم دار القتال بين الجيشين برا ، وانتهى بهزيمة جيش مراد بك بعد أن قتل منه نحو مائتى قتيل ، وتعقبه نابليون بجنوده ، واحتل شبراخيت وأخلى شاطىء النيل من جموع الأهلين الذين كانوا يهاجمون الأسطول الفرنسى ، وتراجع جيش مراد بك إلى إمبابة للدفاع عن القاهرة .

يتضح من هذا البيان ان القسط الذى احتمله الأهلون فى معركة شبراخيت كان أكبر مما احتمله المماليك .

وبعد انسحاب مراد بك تابع الجيش الفرنسى زحفه قاصدا القاهرة ، وكان الأهلون يتعقبون فرق الجيش الزاحفة ويقتلون كل من يدركونه ممن يتخلفون عن الجيش اعياء أو تعبا ، أو ممن يتنقلون بين مختلف القرى لتبليغ الرسائل إلى قواد الفرق الفرنسية .

●



بين رشيد وشبراخيت (تخطيط سنة ١٧٩٨ ـ ١٨٠١).

وفيها مواقع رشيد ودمنهور وسنهور ودسوق
والرحمانية وشبراخيت وبقية المدن العامة

المقاومة فى القاهرة

كانت القاهرة فى اضطراب وفزع منذ أن علمت برسو العمارة الفرنسية فى مياه الاسكندرية ، فقد أرسل السيد محمد كريم الى مراد بك يخبره الخبر ، وكان أسلوب رسالته يدل على خطورة الحال ، قال فيها : « إن العمارة التى حضرت هذا اليوم مراكب عديدة ما لها أول يعرف ولا آخر يوصف ، فبالله ورسوله أدركونا بالرجال » .

فلما تلا مراد بك الرسالة اجتمع بزميله فى الحكم (ابراهيم بك) وعقد الاثنان جمعية عامة من كبار العلماء والمماليك ، وانتهوا إلى وجوب الاستعداد للقتال .

وسار مراد بك بجيشه فى البر وبمراكبه فى النيل لملاقاة الفرنسيين ، وكان ما كان من هزيمته فى واقعة شبراخيت كما سلف القول .

تطوع الشعب للقتال

ولما وصلت القاهرة أنباء واقعة شبراخيت وتراجع جيش مراد بك ، أحس الناس شرا مستطيرا .

أما المماليك فقد أدركوا حرج موقفهم أمام الجيش الزاحف ، فأخذوا يهتمون بشئونهم دون الدفاع عن المدينة ، وينقلون امتعتهم من قصورهم المشهورة إلى بيوت صغيرة لايعرفها أحد ، واستمروا عدة ليال ينقلون أمتعتهم ويستودعونها معارفهم وثقاتهم ، وأرسلوا بعضها للأقاليم ، كل ذلك حتى لاتصل إليها أيدي المغيرين بعد احتلال المدينة ، وبينما هم منهمكون في هذه الصغائر ، كان أهل القاهرة الذين طالما عانوا من ظلم المماليك ما عانوا ، يتطوعون للدفاع عن العاصمة في وجه الجيش الزاحف ، وظهر الشعب فى ساعة الخطر أرقى نفساً وانبل قصداً من حكامه الظالمين ، ففى يوم الثلاثاء ١٧ يوليه سنة ١٧٩٨ ـ اى قبل معركة الأهرام ببضعة ايام ،

نودى بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس ، فلبى الاهلون الدعوة واغلقوا الدكاكين والأسواق . وخرج الجميع الى جهة بولاق للدفاع عن القاهرة ، واشتركت طوائف الشعب فى التطوع ، فكانت كل طائفة من أهل الصناعات تجمع المال من أفرادها اكتتابا ويجتمعون ليرتبوا مايصرف عليهم ومايحتاجون اليه مما جمعوا ، وتبرع بعض الناس بالانفاق على البعض الاخر ، ومنهم من جهز بالسلاح والزاد بعض المقاتلة ، بحيث بذل جميع الناس ما فى وسعهم وفعلوا ما فى مقدورهم وطاقتهم ، وسمحت نفوسهم بانفاق اموالهم ، فلم يشحّ احد فى ذلك الوقت بشىء يملكه ، وخلت طرقات العاصمة وبيوتها من كل قادر على حمل السلاح ، واتجهوا جميعا نحو بولاق استعدادا لرد الجيش الزاحف على البلاد ، ولم يبق فى المنازل سوى النساء والصغار والضعفاء والمرضى الذين لايقدرون على الحركة .

سوء استعداد المماليك وضعف وسائل الدفاع

تلك كانت حالة الشعب النفسية واستعداده للبذل والتضحية دفاعا عن عاصمة البلاد ، ولم يكن فى الامكان ان تنجح هذه التدابير فى رد جيش نابليون المجهز بالعلم والنظام والسلاح والكفاءة الحربية التى أكسبته النصر فى حروب اوربا ، ولكن اهل القاهرة لم يقصروا فى الدفاع ، وإنما المقصر المسئول عن ضعف المقاومة هم طائفة المماليك الذين قضوا السنين الطوال يتخبطون فى الجهل والغباوة ، لا هم لهم الا ارتكاب المظالم وابتزاز أموال الناس بالباطل ، فاهملوا شأن الدفاع عن البلاد ، وتركوا القلاع التى انشأها أسلافهم السلاطين تتهدم وتتخرب ، ومن ثم سرى الخراب إلى قلاع الاسكندرية وأبو قير ورشيد ودمياط والبرلس والقرين ، وخلت من آلات الحرب والمدافع الصالحة للضرب ، وكذلك قلعة القاهرة لم تعد فى عهدهم تصلح للدفاع عن المدينة بما توالى عليها من الاهمال وقلة الاستعداد .

واقعة امبابة أو معركة الأهرام
٢١ يوليه سنة ١٧٩٨ - ونصيب المصريين فيها

يصور بعض المؤرخين واقعة الأهرام قتالا دار بين الفرنسيين والمماليك وحدهم ، والواقع أن المصريين قد اشتركوا فيها بمقدار مالديهم من قوة واستعداد ، وفى الحق ان قسطهم فيها كان اكبر من قسط المماليك .

بعد أن انسحب مراد بك من شبراخيت وتراجع إلى القاهرة ، أخذ يستعد

للقتال فى امبابة بالبر الغربى للنيل ، وأقام المتاريس بين امبابة وبشتيل (شمالى امبابة بغرب) ، وكانت قواته ممتدة من بشتيل وامبابة إلى الأهرام ، فميمنة الجيش كانت مرتكزة على شاطىء النيل وقاعدتها امبابة التى أنشأ فيها مراد بك الاستحكامات والمتاريس ورتب فيها المدافع ، والميسرة تمتد قريبا من الأهرام ، وبينهما القلب .

ورسا الأسطول المصرى على ساحل امبابة ، وكان مؤلفا من السفن الراسية تجاه بولاق وما انضم اليها من المراكب الحربية التى قدمت من دار صناعة الجيزة (الترسانة) .

أما ابراهيم بك فقد عسكر فى بولاق على الشاطىء الشرقى للنيل ، وتفاوض مع الوالى والعلماء فى اعداد معدات الدفاع ، فأجمعوا رأيا على اقامة متاريس من بولاق الى شبرا ، فصار البر الغربى والبر الشرقى للنيل مملوءين بالمقاتلة والمدافع والمتاريس .

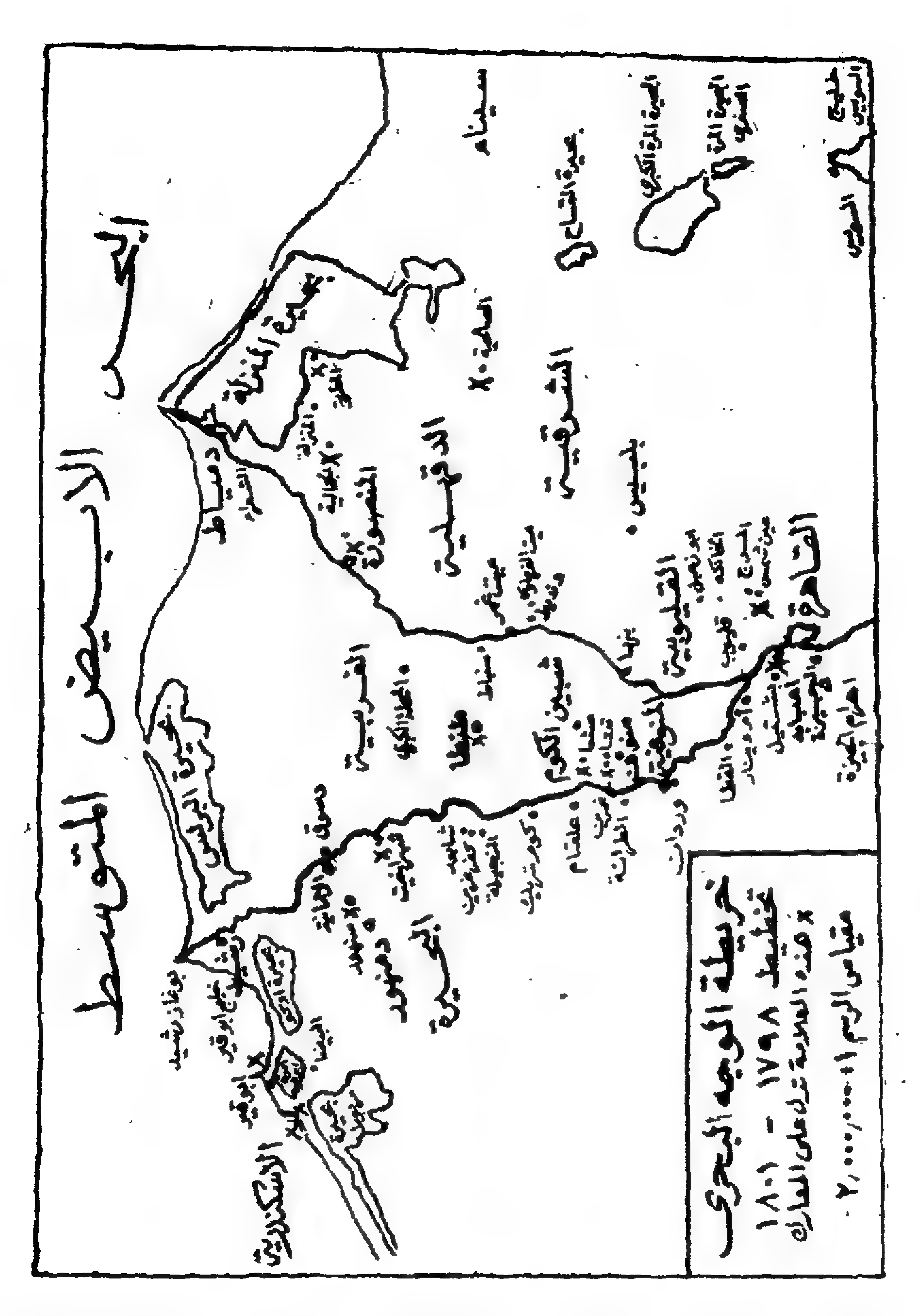
وفى الساعة الثانية من صبيحة يوم السبت ٢١ يوليه سنة ١٧٩٨ تحركت فرق الجيش الفرنسى كلها من ام دينار واستقرت فى نحو الساعة الثانية بعد الظهر بين وراق الحضر (بالبر الغربى للنيل) وبشتيل[١] ، فكانت الأهرام عن يمينهم ، والنيل عن يسارهم ، وأمامهم قرية امبابة وفيها جموع المقاتلة من المصريين وعددهم نحو عشرين ألفا تحميهم المدافع والمتاريس وتتألف منهم ميمنة جيش مراد بك ، وفى القلب والميسرة فرسان المماليك ومتطوعة القاهرة وعددهم نحو سبعة آلاف يرابطون فى خط يمتد بين النيل والأهرام ، وفى أقصى الميسرة فرسان العرب .

واطمأن نابليون لمّا شاهد جيش مراد بك وقابل بين قواته وقوات خصمه ، وكيف لايطمئن وهو قادم بجيش مؤلف من ثلاثين ألف مقاتل مزودين بأحدث الات الحرب والقتال مدربين على خوض غمار الحروب ممتازين بالنظام وكفاية القيادة معتزين بالانتصارات التى نالوها فى ميادين القتال بأوربا ، وامامهم جيش يعوزه الاستعداد والنظام والسلاح وكفاية القيادة ، اى ينقصه كل مايكفل له الفوز والظفر .

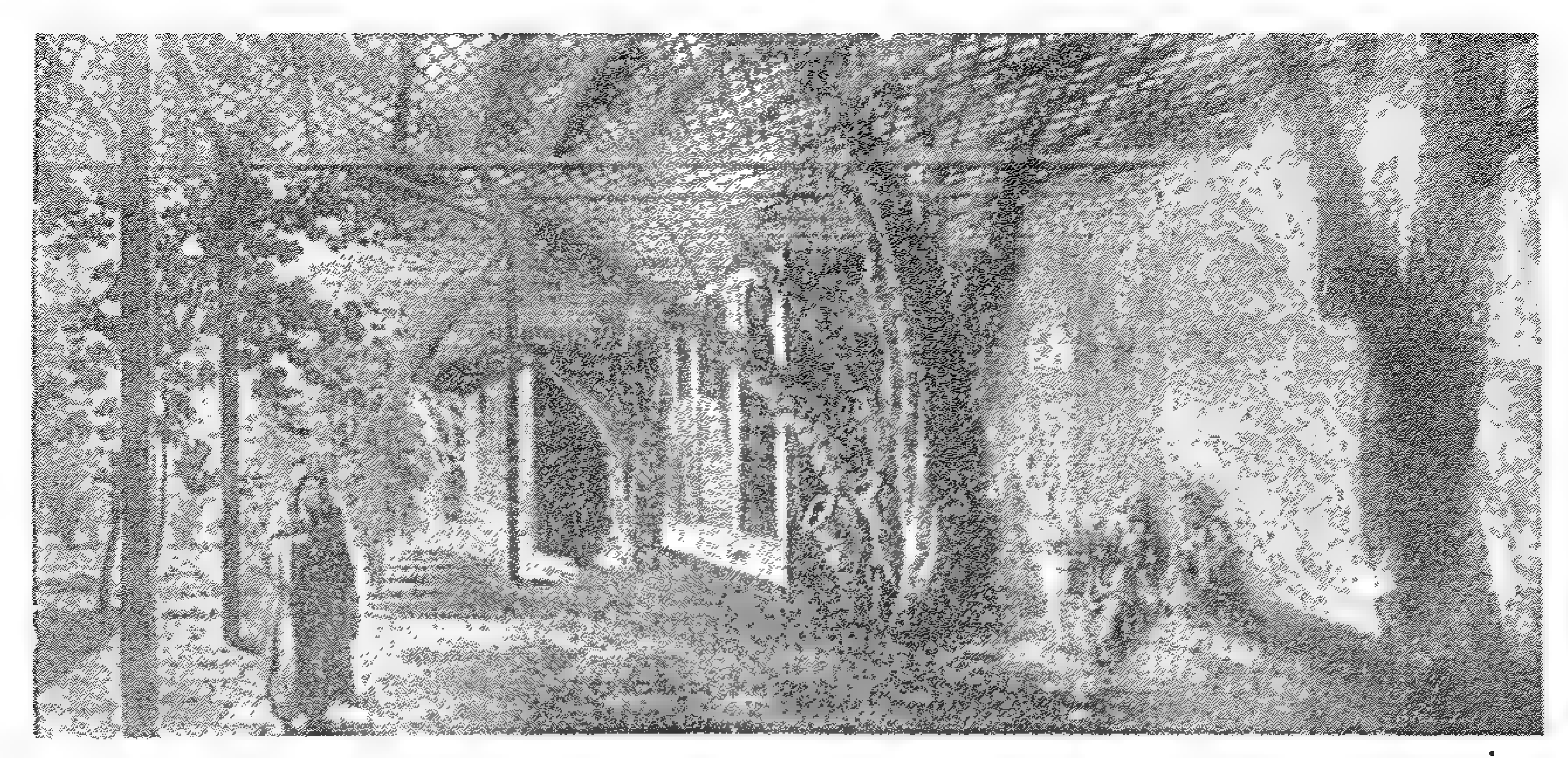
نشبت المعركة بعد أن رتب نابليون فرق الجيش على شكل مربعات ، ووضع المدافع على زوايا كل مربع ، وهجم بهذه الفرق على جيش مراد بك ، ودار قتال شديد بين الفرنسيين من جانب ، والمصريين والمماليك من جانب اخر ، وكر هؤلاء على الفرنسيين ، لكنهم ارتدوا امامهم ورجعوا الى معاقلهم ، وحاولوا صد هجوم الفرنسيين باطلاق النار من المدافع المركبة فى

---

(١) انظر مواقع هذه البلاد بخريطة الوجه البحرى (ص ٣٥) .



استحكامات امبابة ، لكن هذه المدافع كانت من الطراز العتيق فلم تطلق قنابلها الا مرة واحدة ولم يستطع رماتها أن يعيدوا الضرب بها ، فاختل نظام الجيش المصرى ، واحاط الفرنسيون بالاستحكامات لقطع خط رجعة المصريين إلى النيل ، وتمكنوا من تطويقها ، فوقع المصريون والمماليك بين نارين ، فكان العدو أمامهم ، والنيل من ورائهم ، فوقعت الهزيمة بجيش مراد



قصر مراد بك بالجيزة ـ وقد اتخذه نابليون معسكراً
لـه بعد إنتهاء معركة الاهرام (٢١ يوليه ١٧٩٨)

بك ومات معظم رجاله قتلا أو غرقا فى النيل .

واستولى الفرنسيون على امبابة وغنموا ما بها من المدافع والاستحكامات والمؤن .

فلما علم مراد بك بسقوط امبابة تحقق ان الهزيمة حلت به ، ففر بالباقين من جنوده وكان عددهم نحو ثلاثة آلاف الى جنوبى الجيزة ، وأغرق المماليك السفن المصرية التى كانت بالنيل حتى لاتقع فى ايدى الفرنسيين .

وانتهت المعركة فى نحو الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم بانتصار الغزاة والقضاء على قوة البلاد الحربية .

ولكن بقيت قوة الشعب المعنوية تغذى روح المقاومة فى مختلف أنحاء البلاد .

بلغت خسائر جيش مراد بك فى معركة الأهرام نحو ألفى قتيل من المماليك وخمسة آلاف من المصريين ، وهذا الاحصاء يدل قطعا على أن الشعب قد احتمل من أعباء الدفاع وتضحياته أكثر مما احتمل المماليك .

وقدر نابليون خسائر الفرنسيين بثلثمائة قتيل .

وبعد انتهاء المعركة سار نابليون إلى الجيزة ، واتخذ قصر مراد بك معسكرا له .

أما ابراهيم بك الذى كان يرابط بالشاطىء الشرقى للنيل فانه ظل يرقب تطورات المعركة ، وبقى جامدا لايتحرك حتى علم بهزيمة صاحبه مراد بك ، فركن إلى الفرار هو ومن معه من المماليك وغادروا العاصمة وقصدوا إلى بلبيس ثم إلى سوريا حاملين ماوصلت اليه أيديهم من المتاع والأموال والتحف لينجوا بها ويستخلصوها لأنفسهم ، وبذلك ترك رؤساء المماليك سكان القاهرة وأهل البلاد وجها لوجه أمام القوات الفرنسية الزاحفة .

ولايمكن لأمة عزلاء من السلاح أن تدافع عن كيانها بأكثر مما فعلت الأمة المصرية فى عهد الحملة الفرنسية .

الفصل الخامس :

المقاومة السلبية

دخل الفرنسيون القاهرة بعد معركة الأهرام ، فلم يستسلم أهلها للغزاة المستعمرين ، وكان من اسلحتهم فى النضال سلاح المقاومة السلبية ، إلى جانب المقاومة الايجابية .

اراد نابليون ان يستميل اليه الأهلين بادعائه أنه إنما جاء لمحاربة المماليك دون المصريين ، ولكن الشعب المصرى أدرك بفطرته السليمة ان الاستعمار انما يريد إخضاع البلاد وبسط سيطرته عليها ، فوجبت محاربته .

وقد أنشأ نابليون ديوانا فى القاهرة مؤلفا من بعض العلماء للمشاركة فى الحكم ، ولكنه كان مسلوبا كل سلطة .

سياسة الحفلات

وكان مما عمد نابليون لاستمالة المصريين اقامة حفلات الابتهاج فى مختلف المناسبات ، محاولا بذلك ادخال السرور إلى نفوسهم .

واقعة أبو قير[1] البحرية
أول اغسطس سنة ١٧٩٨

وكان له غرض اخر من اقامة هذه الحفلات ، وهو أنه أراد أن يحجب عن الشعب عظم النكبة التى حلت بأسطوله فى واقعة (أبو قير) البحرية التى وقعت يوم أول أغسطس سنة ١٧٩٨ فى خليج (أبو قير) بين الأسطول الانجليزى بقيادة الأميرال نلسن والأسطول الفرنسى بقيادة الأميرال برويس ، وانتهت بتحطيم الأسطول الفرنسى وتدمير معظم بوارجه وأسر

---

(١) كلمة ابو قير ليست مركبة من (ابو) و (قير) بل هى كلمة مفردة فلا تجرى على (ابو) قواعد الاضافة ، وفى (تاج العروس) للعلامة اللغوى المشهور السيد محمد مرتضى الزبيدى (الجزء الثالث) أنها (بوقير بالضم جزيرة قرب رشيد) وقد أوردها تحت كلمة (بقر) . فالباء من بنية الكلمة وهذا يثبت أنها كلمة مفردة .

الباقي وقتل اميراله وخيرة رجاله ونحو أربعة الاف من بحارته[٢] ، فكانت هذه الواقعة كارثة عظمى أصابت البحرية الفرنسية وقضت على امال فرنسا فى بسط سيادتها على البحر الابيض المتوسط ، وجعلت الحملة الفرنسية شبه محصورة فى مصر .

ومع عظم هذه الكارثة فقد قابلها نابليون بالجلد ، وتظاهر أمام المصريين أنه لايكترث لها ، وعمد إلى سياسة الحفلات يحجب بها جزعه ويحاول ان يستميل بها قلوب الشعب .

مهرجان وفاء النيل

فانتهز اولا فرصة وفاء النيل وأراد أن يشارك المصريين احتفالهم بهذا اليوم السعيد وأمر أن يجرى الاحتفال المعتاد وأن يشترك الجيش فى المهرجان (١٨ اغسطس سنة ١٧٩٨) ، واقيمت الزينات واطلقت المدافع والصواريخ من البر والبحر ، ولكن الاهلين لم يشتركوا فى هذا الاحتفال وقاطعوه ولم يخرجوا للتنزه ليلا فى المراكب كعادتهم كل عام ، ومن هذه المقاطعة تستطيع ان تعرف الحالة النفسية للشعب ومبلغ انصرافه عن الاشتراك فى الاحتفال بيوم يبتهجون له كل عام .

حفلة المولد النبوى

وجاءت مناسبة اخرى حاول فيها نابليون التودد الى الشعب ، وهى حفلة المولد النبوى الشريف (ليلة ١٢ ربيع الأول سنة ١٢١٣ ـ ٢٤ اغسطس سنة ١٧٩٨) ، فأمر ان يحتفل به كالمعتاد ، وأقيمت الليلة الكبرى للمولد فى منزل السيد خليل البكرى نقيب الاشراف ، وحضر نابليون الاحتفلال وشهد حفلة الذكر من بدايتها إلى نهايتها .

تعيين أمير الحج

وكانت التقاليد المتبعة فى ذلك العصر أن يعين أمير للحج كل عام فى حفلة حافلة ، فأمر نابليون أن تتبع هذه السنة ، فعين مصطفى بك وكيل الوالى التركى أميرا للحج يوم أول سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، وخلع عليه خلعة

---

(٢) راجع فى تفصيل واقعة (ابو قير) ووصفها الفصل الثامن من الجزء الأول من كتابنا (تاريخ الحركة القومية) .

خضراء ، وأهداه جوادا كريما واطلقت المدافع ابتهاجا بهذا التعيين .

عيد الجمهورية الفرنسية

وانتهز نابليون أيضا فرصة عيد الجمهورية الفرنسية الأولى (٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨) فأقام بميدان الأزبكية احتفالا عسكريا فخما ، ونصب الفرنسيون أقواس النصر ، واقيم عرض عسكرى ، وأضيىء ميدان الأزبكية ليلا ، ونصبوا فى وسط الميدان عمودا مرتفعا سموه (شجرة الحرية) ، واستمرت الموسيقى تعزف إلى مابعد منتصف الليل .

وبالرغم مما بذله الفرنسيون ليجعلوا احتفالهم حافلا بمظاهر السرور والبهجة ، فقد قاطعه المصريون وأعرضوا عنه ، وكانت نفوسهم منقبضة عن تلك المظاهر ، وكانوا يقولون عن (شجرة الحرية) انها (اشارة الخازوق الذى أدخلوه فينا ، واستيلائهم على مملكتنا) كما رواه شاهد عيان ممن سمعوا هذه العبارة .

واستمر هذا العمود منصوبا نحو عشرة أشهر ، ثم رفعه الفرنسيون ، فاستبشر الأهلون بازالته وابتهجوا فرحا .

●

المقاومة فى القليوبية والشرقية

سلف القول أن إبراهيم بك فرّ بمماليكه عقب انتصار الفرنسيين فى معركة الأهرام إلى جهة بلبيس ، وحمل معه ما استطاع من الأموال والمتاع ، ولم تحارب القوة التى اصطحبها معه فى معركة الأهرام ، فبقيت سليمة وإن كانت قليلة العدد ، لكن نابليون توجس من وجود هذه القوة فى شرق الدلتا وعلى مسافة ٤٠ كيلو مترا تقريبا من القاهرة ، ورأى فيها خطرا يتهدد مركز الفرنسيين ، فاعتزم بعد أن وطد مركزه فى القاهرة أن يتعقب ابراهيم بك ليخلص له الوجه البحرى ، وكذلك أجمع ان يطارد مراد بك الذى فر بالبقية الباقية من فلول جيشه إلى الوجه القبلى .

المعارك بين الخانكة وأبى زعبل

بدأت طلائع الجيش الفرنسى تزحف يوم ٢ اغسطس سنة ١٧٩٨ من القاهرة فمرت بالقبة ومنها سارت إلى المطرية ثم إلى المرج دون أن تجد مقاومة ما ، فإن الأهالى كانوا ينزحون عن بلادهم قبل قدوم الفرنسيين ، ومن المرج سارت القوة إلى الخانقاه (الخانكة) وبها استقرت واتخذها الفرنسيون قاعدة عسكرية للزحف ومركزا لتموين الجيش ، وانشأوا بها الأفران ومخازن البقسماط والزاد والعلف .

قصدت الكتيبة الفرنسية يوم ٤ من أغسطس قرية أبى زعبل ، ولكن صدهم عنها جمع من العرب والفلاحين مسلحين بالبنادق والعصى ، (الشماريخ) فعادت أدراجها الى الخانكة ، وأخذ الأهالى من العرب والفلاحين يتعقبونها إلى مستقرها .

وفى صباح ٥ من اغسطس هاجم الأهالى المخافر الأمامية لمعسكر الخانكة بقوة اكبر من قوتهم الأولى ، إذ انضم اليهم مائتان من المماليك ، وبدأ الهجوم ، فبرزت من غابة أبى زعبل قوة من فرسان العرب يتبعهم عدد حاشد من الفلاحين ، ولم يكن هؤلاء يحملون فى الغالب الا اسلحة ضعيفة

فلم يتجاوز عدد حملة البنادق منهم السدس ، فأحاطوا بالفرنسيين من كل جانب ، تخفيهم المزارع والغيطان ، وانضم اليهم سكان القرى المجاورة ، فاطلقوا النار على الفرنسيين من كل صوب ، ولكن نيران المدفعية والبنادق اوقفتهم بعيدا عن المعسكر ، فأعادوا الهجوم كرة بعد كرة ، واضطر جنود المقدمة إلى التراجع ، وأخلى الفرنسيون الخانكة مؤقتا .

احتلال الخانكة ثم بلبيس

وبعد ان تلقى الفرنسيون المدد احتلوا الخانكة بعد مقاومة عنيفة ثم احتلوا بلبيس .

معركة الصالحية
(١١ أغسطس سنة ١٧٩٨)

لم يضيع نابليون وقتا فى بلبيس بل أرسل قوة من فرسانه ليلة ١٠ أغسطس فى أعقاب إبراهيم بك ، ووصل الجيش إلى (القرين) فى ١٠ أغسطس دون أن يلحق بقوة إبراهيم بك الذى غادرها قبيل وصول الجيش الفرنسى قاصدا إلى الصالحية ، فتعقبه نابليون بفرسانه واشتبك مع قوة المماليك فى معركة عرفت بمعركة الصالحية (١١ اغسطس سنة ١٧٩٨) لأنها وقعت على مقربة منها ، وقد حمى وطيس القتال فى هذه المعركة ، وكادت تدور الدائرة على قوة الفرنسيين لانها كانت مؤلفة من عدد قليل من فرسانهم لايزيد على اربعمائة ، وكان فرسان المقاومة أكثر منهم عددا ، واشد بأسا ، فكانت هذه أول معركة نشبت بين فرسان الجيشين والتقى فيها الفريقان وجها لوجه ، واقتتلوا بالسلاح الأبيض ، فتحرج وقتا ما مركز الفرنسيين ، ولم ينقذ نابليون الا وصول المدد اليه ، فاضطر المماليك الى الانسحاب الى حدود مصر الشرقية .

ولم تنقطع حركات المقاومة فى الشرقية والقليوبية .

●

الفصل السابع :

ثورة القاهرة الأولى

٢١ ـ ٢٢ أكتوبر سنة ١٧٩٨

لم تكن القاهرة فى يوم من الأيام راضية عن الاحتلال الفرنسى أو مستسلمة له ، ومافتئت تتحين الفرص للتخلص منه ، وعبثا حاول نابليون بعد انتصاره الحربى أن ينتصر على ثورة النفوس وأن يجتذب إليه قلوب المصريين ، ولم يكن انشاؤه الديوان ، ولاتودده إلى الزعماء ، ولااشتراكه فى حفلات الشعب ، ليحل الصفاء والوئام محل الجفاء والخصام .

والواقع أن يد الفرنسيين الباطشة قد ضربت على الديوان فجعلته محدود السلطة ، مشلول الارادة ، وكان أعضاء الديوان أنفسهم يظهرون الطاعة للفرنسيين مداراة ومجاملة ، وقلوبهم منكرة نافرة ، اعتبر ذلك فى المشادة التى حصلت بين نابليون وأعضاء الديوان ، فقد طلبهم إلى داره ذات يوم (أول سبتمبر سنة ١٧٩٨) ، ولما استقر بهم المقام أراد أن يلبسهم رداء الجمهورية الفرنسية ذا الثلاثة الألوان ، ووضع بيده الرداء على كتف الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيس الديوان ، تكريما له وتعظيما ، فرمى به الأرض محنقا غاضبا ، واستعفى من الديوان ، وعبثا حاول الترجمان ان يقنع الأعضاء أن إلباسهم هذا الرداء هو تكريم لهم ، فلم يلق منهم قبولا ، وغضب نابليون على الشيخ الشرقاوى وقال إنه لايصلح للرآسة .

لم يعمل إذن أعضاء الديوان على تمكين علاقات نابليون بالشعب ، وما كان فى استطاعتهم ذلك لو أرادوا ، فأخذ سخط الأهالى يستفحل ، وزاد فيه أعمال كثيرة أحرجت صدورهم وانتهت بنشوب الثورة فى العاصمة .

ثارت القاهرة فى وجه الفرنسيين يوم الأحد ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ـ ١١ جمادى الأولى سنة ١٢١٣ .

لم يكن الفرنسيون يتوقعون أن تثور العاصمة فى وجههم وهم الذين فتحوا العواصم ودوخوا الممالك فى القارة الأوربية .

لكن ثورة القاهرة جاءت عنوانا لنفسية الشعب المصرى ، ولاغرو فإن الحملة الفرنسية قد استفزت فى نفوس الشعب روح المقاومة الأهلية ، وكانت

القاهرة مسرحا لتلك المقاومة ، كما كانت مصدرا لسريان الهياج والثورة إلى أنحاء البلاد كافة .

لماذا ثارت القاهرة ؟

إن لثورة القاهرة الأولى أسبابا ومقدمات عدة ، فهى ترجع أولا إلى كراهة الشعب للاحتلال الاجنبى .

واجتمعت إلى هذا السبب الرئيسى أسباب اخرى ثانوية وجوهرية .

فسلوك نابليون مع المصريين خالف فى كثير من المواطن ما وعدهم به فى منشوراته وبياناته ، لقد كان ينعى على المماليك ظلمهم واعتسافهم ، فانظر ماذا فعل هو فى إرهاق الأهالى بالضرائب والمغارم .

لما دخل الفرنسيون القاهرة فرضوا على سكانها ضريبة فادحة فى شكل سلفة اجبارية (مائة ألف جنيه) ، ولم يستطع « الديوان » أن يمنعها على الرغم من تدخله فى الأمر وتوسطه فى تخفيفها ، وتلك كانت سنة الفرنسيين فى فرض الضرائب على مختلف البلاد ، فقد فرضوا على تجار الاسكندرية ثلثمائة ألف فرنك وعلى تجار رشيد مائة الف فرنك ، وتجار دمياط ٥٠ ألف فرنك ، وعلى تجار المنسوجات بالقاهرة ٦٠ الف ريال نقدا و٤٠ ألف ريال عروضا (ملابس وأحذية للجنود) ، وعلى تجار البن والبهار بالقاهرة ٢٠٠ ألف ريال ، وعلى الأقباط الذين يتولون تحصيل الضرائب فى الأقاليم ١٠٠ الف ريال ، ثم فرضوا على تجار خان الخليلى عشرة آلاف ريال ، ووكائل الصابون عشرة آلاف ريال ، ووكائل الفاكهة ستة آلاف ريال ، والسقائين ١٥ ألف ريال ، وتجار السكر عشرة آلاف ريال ، وتجار الأقمشة الهندية بالغورية ١٥ ألف ريال ، فهذه غرامات فادحة تنوء بها البلاد ولاسيما اذا لاحظنا ما كانت تعانيه وتئتئذ من الضنك والفاقة .

وقد تفنن الفرنسيون فى ابتزاز الأموال ومصادرة الممتلكات بمختلف الوسائل ، فمن ذلك انهم أذنوا لنساء البكوات المماليك أن يفتدين أنفسهن بالمال ليسكنّ فى بيوتهنّ ، وإن كان عندهن شيء منه يصالحن على أنفسهن ويأمنّ فى دورهنّ .

فهذه طريقة بلغت حد الاعنات والارهاق فى جمع الأموال من النساء تلقاء أن يأمن على أنفسهن ! وهى أشد وطأة من الغرامات الحربية .

وقطعوا رواتب الأوقاف الخيرية عن مستحقيها الفقراء .

فبمثل هذه المغارم الفادحة لايمكن أن تجتذب القلوب وتسترضى النفوس .

ولم تقتصر هذه المغارم على الأيام الأولى من الاحتلال ، بل استمر الفرنسيون فى فرض الضرائب وجمع الأموال ولاسيما بعد أن تحطم أسطولهم فى معركة (أبو قير) واصبحت الحملة الفرنسية منقطعة عاجزة عن تلقى الأمداد والمساعدات من فرنسا متروكة لمواردها وموارد البلاد ، فأخذ الفرنسيون من ذلك الحين يتفننون فى ابتزاز الأموال من البلاد وأهلها ، وتذرعوا إلى ذلك بوضع نظام ابتدعوه لاثبات الملكية وتسجيل السندات والعقود وما تبعه من فرض اتاوات جديدة .

رأى الشعب أن الضرائب التى كانت تثقل كاهله فى عهد المماليك قد بقيت كما كانت وزادت عليها ضرائب جديدة ابتكرها الفرنسيون ، فصارت الحالة من الوجهة المالية أسوأ مما كانت فى عهد المماليك ، والمسائل الاقتصادية كانت فى مختلف العصور والبلدان من أهم أسباب تذمر الشعوب وشكواها .

مصادرة الأملاك وهدم المبانى

ومن مظالم الفرنسيين التى احرجت الصدور أنهم أخرجوا كثيرا من أصحاب البيوت من بيوتهم بحجة حاجتهم هم إليها ، وهدموا كثيرا من المبانى والآثار والمساجد بحجة تحصين قلعة القاهرة .

هدم ابواب الحارات

وأمروا كذلك بهدم أبواب الحارات والدروب ، وكانت هذه الأبواب تغلق فى الليل فتصير كل حارة فى مأمن من اعتداء اللصوص ، فاشتد قلق الناس من هدمها وتظننوا بالفرنسيين انهم عازمون على قتل الناس وهم فى صلاة الجمعة ، ولم يكن الناس واهمين فى ظنونهم ومخاوفهم ، فإن الفرنسيين كانوا يقصدون من هدم الأبواب إخضاع المدينة ومنع كل محاولة للمقاومة .

وقد اقفل التجار دكاكينهم احتجاجا على هذا العمل ، ثم عادوا وفتحوها تحت تأثير التهديد والارهاب .

القتل والارهاب

ومن المظالم التى اثارت نقمة الناس اعتقال الفرنسيين للسيد محمد كريم حاكم الاسكندرية الوطنى ، والحكم عليه بالاعدام وتنفيذ الحكم فيه كما سلف القول .

وكذلك وصول اخبار الفظائع التى ارتكبها الجنود فى المديريات ، وحضور الرهائن الذين قبض عليهم من البلاد وحبسهم بالقلعة .

والواقع ان الفرنسيين كانوا يسرفون فى قتل الناس ليدخلوا الرهبة في قلوب الأهلين ويحملوهم على الخضوع والاذعان .

كل هذه الأسباب مجتمعة جعلت فكرة الهياج تختمر فى الأذهان ، وجاءت الضرائب الجديدة فأشعلت بركان الثورة ، ومهما اختلف المؤرخون الفرنسيون فى بيان ثورة القاهرة وعزاها بعضهم الى الدعاية الدينية التى كان يبثها رجال الدين ، فإنهم يعترفون بأن فداحة الضرائب كانت من أهم العوامل التى عجلت بها .

كانت الدعوة الى الثورة تختلط علنا بأذان المؤذنين فيدعون الى الله والى الثورة على المآذن صباح مساء ، فبلغ تهييج النفوس أشده .

لجنة الثورة ورئيسها

كانت للثورة لجنة تديرها وتنشر دعوتها وتنظم صفوفها ، ومقرها فى الأزهر ، وأخذت هذه اللجنة تنظم المتطوعين للقتال وتستخرج الأسلحة المخبوءة ، وانتخب السيد محمد السادات رئيسا لهذه اللجنة .

فالأزهر إذن كان مركز الثورة في أواخر القرن الثامن عشر ، وقد شغل هذا المركز بعد أكثر من مائة عام ، فان الأزهر خلال ثورة سنة ١٩١٩ كان فى فترة من الزمن المعسكر العام للثورة .

نشوب الثورة

أخذ دعاة الثورة يحرضون الناس على الثورة ، وشرعوا فى الوقت نفسه ، يثيرون الشكوك والريب حول أعضاء الديوان ، ويتهمونهم بممالأة الفرنسيين حتى لايستمع الجمهور لنصائحهم فى الاخلاد الى السكينة ، وقد أفلحوا فى إحراج مركز أعضاء الديوان ، فأخذت منزلتهم تتضعضع فى نفوس الشعب .

وسرت روح الثورة إلى طبقة الملاك والتجار وأصحاب الصناعات ، وجاء تنفيذ نظام الضرائب الجديدة على طريقة مثيرة للخواطر ، لأن تقييد الأملاك فى دفاتر الضرائب اقتضى معاينة المنازل والدخول فيها لتقدير قيمتها ، وهذا أمر يستفز الملاك ، فاشتركت طبقات الشعب كلها فى ثورة القاهرة ، واغتنم دعاة الحركة فرصة تذمر الشعب من الضرائب الجديدة فبدأوا يعملون لاهتياج الخواطر ، واشعال النار ، وتعاهدوا على الاجتماع ليلة الأحد ٢١

اكتوبر سنة ١٧٩٨ لرسم الخطة الواجب اتباعها ، فاجتمعوا وكان عددهم فى ذلك الاجتماع ثلاثين ، فاتفقوا رأيا على البدء بالعمل فى اليوم التالى ، وأزمعوا إقفال الدكاكين ودعوة أكبر عدد من التجار والصناع للذهاب بجمع كبير من الشاكين الى مركز القيادة العامة لرفع الصوت احتجاجا على الضرائب الجديدة ، وبذلك تحدث فى المدينة حركة تكون مقدمة للثورة .

اليوم الأول للثورة
٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨

وقد وقع مارسموا ، ففى اليوم الموعود ـ ٢١ أكتوبر ـ كانت القاهرة فى حالة لم يألفها الناس من قبل ، كان الناس يتألبون فى الشوارع زرافات ، يشكون ، ويتهددون ، ويخطب بعض المعممين هذه الجموع فيشعلون نار الحماسة فى نفوسهم فتقابلهم الجماهير بالتأييد والتحبيذ ، وكان الناس يتلاقون على غير تعارف ، فيتبادلون الشكوى ويتعاهدون على المقاومة ، وأخذت سمات الغضب تبدو على الشعب الهادىء الوديع ، وظهرت الأسلحة فى أيدى المتجمهرين فى الشوارع والميادين بعدما كانت محجوبة عن الأنظار ، وأقبل القرويون وأهل الضواحى إلى القاهرة ، فاشتركوا فى هذا التجمهر ، واخذت صيحات السخط واللعنات تنصب على الفرنسيين ، ولم يعد هناك شك فى أن الثورة قد بدأت .

وهرعت جموع الناس إلى بيت القاضى التركى ابراهيم أدهم أفندى ، وكان رجلا وقورا يحترمه الناس وله فى نفوسهم مكانة ومنزلة ، وتقدم عشرون من الثائرين فقابلوه وقالوا له إنهم يريدون الذهاب إلى بونابرت ليلغى نظام الضرائب الجديدة ، وطلبوا منه أن يركب معهم ، فاستجاب لهم ، ولكنه لم يكد يتخطى عتبة داره حتى رأى الثائرين وجموعهم تزحف زحفا ، فأدرك خطورة الأمر وقال للجمع إن هذه الطريقة ليست مما يتبع لتقديم شكوى .. واعتذر من مصاحبتهم وانكفأ إلى بيته ، فثارت نفوس الجماهير ونادوا : إلى بونابارت ! إلى بونابارت ! القاضى معنا إلى بونابارت !

ولمّا لم يقبل القاضى مصاحبتهم انهالوا عليه وعلى رجاله ضربا بالعصى ورجما بالأحجار .

كانت هذه الحادثة كاعلان للثورة ، فاحتشدت الجموع فى الجامع الأزهر يضجون ويصيحون ويهتفون بالقتال ، وامتلأت الطرق والشوارع بالناس حاملين الأسلحة قاصدين إلى أحياء الفرنسيين لمهاجمتها .

حدث كل ذلك والسلطات الفرنسية لم تحسب حسابا لهذه الجموع أو تتوقع حدوث ثورة ما ولم تتخذ التدابير لمنع احتشاد الجماهير المسلحة ، فعمت الثورة مدينة القاهرة كلها فى أسرع من لمح البصر ، وأخذ الثوار طريقهم إلى مركز المخافر الفرنسية ، فقتلوا الجنود والحراس .

مقتل الجنرال ديبوى Dupuy

لم يقدر الجنرال ديبوى قومندان القاهرة فى مبدأ الأمر خطورة الحالة ، وجاءته أنباء غامضة عن الهياج . فلم يحسب له حسابا ، ولم يره أمرا ذا بال ، واكتفى بانفاذ بعض دوريات من الجند ، ولكنه لم يلبث أن أنبىء الخبر بما يدل على اشتداد الأمر وتفاقم الثورة ، فعزم على مواجهتها ، وكان معروفا بالجرأة والإقدام ، فاصطحب ياوره وتاجرا فرنسيا يدعى المسيو بودوف Baudeuf ليكون ترجمانا له فى مخاطبة الجماهير ، وسار يقصد بيت القاضى ليتعرف اسباب الهياج ، واصدر فى الوقت نفسه أمره الى الجنود المرابطة فى بركة الفيل بأن تحمل السلاح وتتأهب للقتال ، ومضى فى كتيبة من الفرسان قاصدا مركز الهياج ، فسار من بركة الفيل (حيث كان بسكن) الى الموسكى واتجه إلى شارع الغورية ، واراد ان يذهب الى بيت القاضى (بين القصرين) ، ولكن الشوارع ازدحمت بالجموع حتى صارت كأنها بحر يزخر بالناس ، فأخذ الجنرال ديبوى يشق لنفسه طريقا بين هذه الجموع الصاخبة ، وتساقطت الأحجار على الكتيبة من الناس ومن المنازل ، فخرج من بين القصرين وباب الزهومة ، وهناك لقى جمعا من الثوار أخذوا الطريق عليه ، فحاول بودوف أن يخاطب الناس فأجابوه بالسخط واللعنات ، ولم يحسب ديبوى حسابا لعواقب مواجهته هذه الجموع الثائرة ، فهجم عليها على رأس فرسانه ، فارتدت أول وهلة ، لكن الهجوم كان فى زقاق ضيق بحيث لم يستطع الفرسان أن ينطلقوا فى حركتهم ، فأطبق الناس على الجنرال ديبوى من كل جانب ، وانتهت هذه الملحمة بمقتل الجنرال .

ذاع خبر مقتل ديبوى فى أنحاء المدينة كالبرق ، فحمى الثوار وامتلأوا حماسة ، وزاد عددهم وتضاعف ، وانحازت الجموع إلى صفوف الثورة ، متشجعين بهذا « النصر الأول » واشتدت حمية القتال فى نفوسهم ، واستولوا على المواقع المحيطة بمعظم خطط القاهرة ، كباب الفتوح وباب النصر والبرقية الى باب زويلة وباب الشعرية الى جهة البندقانيين ، واتخذوا من مساطب الحوانيت متاريس اقاموها فى الشوارع والحارات يستدفعون بها الجنود ويعرقلون سيرهم ، واخذوا يطلقون النار من خلالها ، وزادت جموع

الثائرين بمن انضم اليهم من أهل الضواحى الذين اقبلوا من طريق الأهرام وبلبيس .

ولما بلغت الثورة هذا المبلغ أطلق مدفع الخطر وضرب النفير العام صائحا بالجنود الفرنسية إلى القتال ، فاخذوا يتجمعون ويطلقون النار على الثوار فى الشوارع وخلف المتاريس ، وطفقت جموع الثوار تحتشد فى حى الأزهر ، وامتتع بالجامع الأكبر خمسة عشر ألفا من أشد الثوار حماسة ، واقاموا المتاريس فى الطرق والأزقة الموصلة اليه .

وهنا حضر نابليون اذ كان يتفقد استحكامات مصر القديمة والروضة ، فاذا بالقاهرة كالشعلة يضطرم نارها ، حضر صحبة بعض قواده ، فلما أدرك خطورة الثورة اعتزم اخمادها بالقوة ، فأمر ان تنصب المدافع على مرتفعات المقطم شرقى القلعة لتعاون مدافع القلعة فى إطلاق القنابل على الجامع الأزهر .

وأمر بتنظيم قيادة الجنود المعسكرة فى الأزبكية واقامة مخافر من الجنود لمراقبة الجهات المجاورة لها ، وتسيير طلائع مسلحة لاكتشاف جهات القاهرة ووضع مدافع على منافذ الشوارع المهمة ، والتأهب لقمع الثورة فى اليوم التالى .

اليوم الثانى للثورة

يوم الاثنين ٢٢ أكتوبر سنة ١٧٩٨

انقضى الليل فى سكون ، والفريقان يتأهبان للغد ، ونصب الفرنسيون ليلا المدافع على سفح المقطم بالقرب من القلعة ، أما دعاة الثورة فقد ذهبوا فى جنح الليل الى القرى المجاورة يستصرخون الناس للقتال ، وفى الفجر كان اهالى هذه الضواحى يتوافدون على المدينة ، وكان معظم ابواب القاهرة لم تزل فى ايدى الثوار ففتحوها لهم ودخلوا المدينة وجابوا شوارعها حاملين اسلحتهم من عصى ورماح وبنادق .

وبدأ النهار بتجمهر الأهلين فى الشوارع . وكانت صيحات المتجمهرين تشق إلى السماء ، وأخذ نابليون ينفذ الخطة التى وضعها فى ليلته فوجه إلى كل جماعة من الثوار القوة الكافية للتغلب عليهم ، وعلم أن حشدا من الثوار قدّرهم هو بين سبعة آلاف وثمانية الاف خرجوا من باب الفتوح يرمون إلى الهجوم على المرتفعات المركبة فيها المدافع ، فصدتهم الجنود الفرنسية وفرقت شملهم ، وصعد جموع من الثوار على أسطحة جامع السلطان حسين

ومناراته لضرب القلعة ومن فيها من الجنود ، فلم يفوزوا بطائل ، وكانت كتيبة من الجنود الفرسان ومعها مدفعان تحتل مدخل الحارة الموصلة الى ميدان الأزبكية ، فعزم الثوار على مهاجمة هذه الكتيبة ولكنهم لم يستطيعوا ان يهاجموها من الشارع فتسلقوا المنازل وعلوا الاسطحة القريبة واحتلوا جامعا صغيرا يشرف على موقع الكتيبة ، واصلوها نارا حامية قتلت الكثير من الجنود ، فهجم العسكر على المسجد وحطموا أبوابه وقتلوا معظم الثوار بنار البنادق والمدافع ، وتنفيذا لتعليمات نابليون وزع القواد الفرنسيون جنودهم بعد الفجر فى ضواحى القاهرة لمنع سكانها أن ينحازوا إلى ثوار العاصمة ، وقد صدت القوات الفرنسية جموعا كثيرة من الأهالى وحالت بينهم وبين العاصمة ، وبذلك تمكن نابليون من حصر الثورة فى المدينة وعزلها عن البلاد المجاورة .

ضرب المدينة بالمدافع

وبينما كان الثائرون مجتمعين فى الأزهر قذفت اول قنبلة من المدافع القائمة على ربى المقطم ، فانفجرت فى المسجد ، وكانت هذه القنبلة نذيرا بابتداء ضرب المدينة بالمدافع . وابتداء الضرب فى الظهر واستمر إلى الليل .

أخذت آلاف القنابل تنهال على الأزهر وتترامى فى الأحياء المجاورة له ، كالصنادقية والغورية والفحامين ، وتنفجر بهول لم يعهده سكان القاهرة من قبل ، فألقت الرعب فى نفوس الناس ، وفى الوقت نفسه أقبلت كتائب الجنود فاحتلت الشوارع الموصلة الى الأزهر ، بحيث اصبح الثوار محصورين بين نارين ، نار المدافع من فوقهم ، ونار الجنود من حولهم ، واحدثت المدافع تخريبا فى الجامع الأزهر والبيوت القائمة فى الأحياء المجاورة له .

واوشك الجامع الأزهر ان يتداعى من شدة الضرب ، واصبح الحى المجاور له صورة من الخراب والتدمير ، فلم يكن يرى فيه الا بيوت مدمرة ، ودور محترقة ، ومات تحت الانقاض آلاف من السكان الآمنين ، وكانت الجهات القريبة من الأزهر ولاسيما شوارع الغورية والصنادقية مسرحا لهذه المشاهد الفظيعة .

واستمر الضرب الى الساعة الثامنة مساء ، فوقع الاضطراب فى صفوف الثوار ، وطلبوا الهدنة والتسليم ، وانتهت المفاوضة بالقاء السلاح ورفع المتاريس ، فدخل منها الجنود الفرنسيون حتى وصلوا الى الجامع الأزهر ، فاقتحموه عنوة وعسكروا فيه طوال الليل .

وبذلك انتهت ثورة القاهرة ، وباتت المدينة تلك الليلة غارقة فى لجة من الظلام ولجة من الفزع .

قمع الثورة

تغلبت قوة الحديد والنار مرة أخرى على مقاومة شعب أعزل لاسلاح معه ، واستهدف سكان القاهرة بعد إخماد الثورة لأشد ضروب الانتقام ، ونزلت بهم النوازل بخطوبها وأهوالها .

وبلغت خسائر الأهلين فى هذه الثورة على أرجح الروايات أربعة آلاف شهيد ، وهذا يدلك على ضخامة هذه الثورة .

وبلغت خسائر الفرنسيين ٣٠٠ قتيل ، منهم جنرال وهو (ديبوى) ، وكولونل (سلوسكى) ، وبعض الضباط والمهندسين الذين استهدفوا لسخط الشعب إذ كانوا يتولون اقتلاع أبواب الدروب والحارات وهدم البيوت ونبش القبور .

فظائع الفرنسيين فى إخماد الثورة

أسلفنا أن عدد من قتلهم الفرنسيون من سكان العاصمة فى إخماد الثورة بلغ على أرجح الروايات أربعة آلاف ، ولاجدال فى أن قمع الثورة فى مدينة اشتهر اهلها بالوداعة والسكينة ما كان يدعو إلى إفناء هذا العدد الكبير من السكان ، على أن قواد الفرنسيس لم يكن همهم إلا قمع الثورة بكل وسائلهم فى الفظاعة والارهاب ، ولم يحسبوا حسابا لتضميد جراح النفوس واجتذاب قلوب الشعب بعد هذه الضربة ، والواقع ان ثورة القاهرة وماتخللها واعقبها من الفظائع قد باعدت بين المصريين والفرنسيين . فالدماء التى سالت فى شوارع العاصمة فى ايام ٢١ و٢٢ و٢٣ أكتوبر مابعدها قضت نهائيا على امال نابليون فى اكتساب قلوب الشعب المصرى ، على انك اذا تأملت فى الفظائع التى ارتكبها الفرنسيون بعد تسليم المدينة واخلادها إلى السكينة وجدتها أبعد ماتكون عن مقتضيات الحرب والقتال ، ولهى أجدر أن تعتبر من ضروب التنكيل والانتقام .

ولم تقتصر الفظائع على اليوم الذى أخمدت فيه الثورة بل استمرت بعد ذلك ولاضرورة لها من حرب ولا من سياسة .

ففى يوم الثلاثاء ٢٣ أكتوبر ، غداة إخماد الثورة ، بعد أن سادت السكينة واستولى الفزع على النفوس ، كانت الجنود لم تزل مرابطة بالأزهر وما حوله فكانوا يمنعون الناس من دخول الجامع ، وشردت الجنود فى الأحياء المجاورة للأزهر ونهبوا بعض البيوت بحجة التفتيش على السلاح حتى

اضطر سكان تلك الجهة الى الرحيل عن دورهم والنجاة بأنفسهم ، وأخذ الجنود يتسكعون فى الأسواق ويقفون صفوفا ، فإذا مر بهم أحد فتشوه وأخذوا ما معه ، وربما قتلوه ، وصاروا يقبضون على الناس جزافا بحجة أنهم كانوا يخبئون السلاح أو أنهم اشتركوا فى الثورة ، فوقع الفزع وكثرت الوشايات ، وراجت الدسائس ، وتغالت المفتريات ، وتعددت المظالم ، واستبيحت الحرمات ، وامتلأت السجون بالأبرياء ، وذاق الناس فيها أنواع الأذى والهوان ، وقتل منهم الكثير بلا محاكمة ولاحساب .

ففظائع الفرنسيين جاوزت الغرض من اخماد الثورة الى الانتقام والارهاب ويعترف الفرنسيون بأن إعدام كثير من المتهمين فى الثورة تم سرا فى القلعة من غير محاكمة ، فقتلوا بحد السنك ، ويعترف القواد الفرنسيون فى رسائلهم التى تبادلوها بالفظائع التى ارتكبت فى قمع الثورة .

ومما يذكر فى هذا الصدد أن نابليون أمر الجنرال برتييه رئيس أركان حرب الجيش الفرنسى بتاريخ ٢٣ أكتوبر أن يصدر تعليماته الى قومندان المدينة ، بقطع رءوس جميع المسجونين الذين اخذوا ومعهم أسلحة ، وإرسال جثثهم إلى شاطىء النيل فيما بين بولاق ومصر القديمة ، وإغراقها فى النهر .

وفى مذكرات نابليون أن رجال الشرطة قبضوا على ثمانين من أعضاء لجنة الثورة وسجنوهم بالقلعة ، وأن نحو أربعة آلاف من سكان العاصمة هاجروا منها قبل شروق الشمس قاصدين الى السويس ليلتجئوا اليها (وكان الفرنسيون لم يحتلوها بعد) وأن أعضاء لجنة الثورة (أى الثمانين) قد ثبتت ادانتهم ، فاصدر المجلس العسكرى يوم ٢٤ اكتوبر سنة ١٧٩٨ قرارا باعدامهم جميعا ، ونفذ فيهم الحكم ، ولعل هؤلاء هم الذين أعدموا سرا بدون محاكمة كما سلف القول .

وقد أسرف الفرنسيون فى القتل ، ولم تأخذهم رحمة حتى بالنساء فقتلوا كثيرا منهن ، وهذا من أفظع ماسمع فى التنكيل وسفك الدماء ، قال (بوريين) سكرتير نابليون الخاص فى مذكراته : « سيق المسجونون إلى القلعة ، وكنت أتولى فى مساء كل يوم كتابة الأوامر القاضية باعدام اثنى عشر سجينا وكل ليلة ، وكانت جثث القتلى توضع فى زكائب وتغرق فى النيل ، واستمر ذلك ليالى عديدة ، وكان كثير من النساء ممن نفذت فيهن احكام الاعدام الليلية » .

وفى مذكرات نابليون أيضا ان السيد محمد السادات الذى انتخب رئيسا للجنة الثورة نفى عن نفسه تهمة التحريض على الثورة بأنه كان مريضا ، وقد

تردد نابليون في شأنه ، وقال فى مذكراته انه مع قيام البيانات على انه زعيم الثورة ، فقد عفا عنه ورأى ان الضرر من قتله اكثر من نفعه ، لما كان له من المنزلة الرفيعة فى الشرق ولأن قتله يجعله شهيدا فى نظر الشعب .

اما الذين حوكموا رسميا من المقبوض عليهم باعتبارهم زعماء الثورة فهم : الشيخ اسماعيل البراوى . والشيخ يوسف المصيلحى . والشيخ عبد الوهاب الشبراوى . والشيخ سليمان الجوسقى (شيخ طائفة المكفوفين) . والشيخ احمد الشرقاوى . وكلهم من اواسط علماء الأزهر .

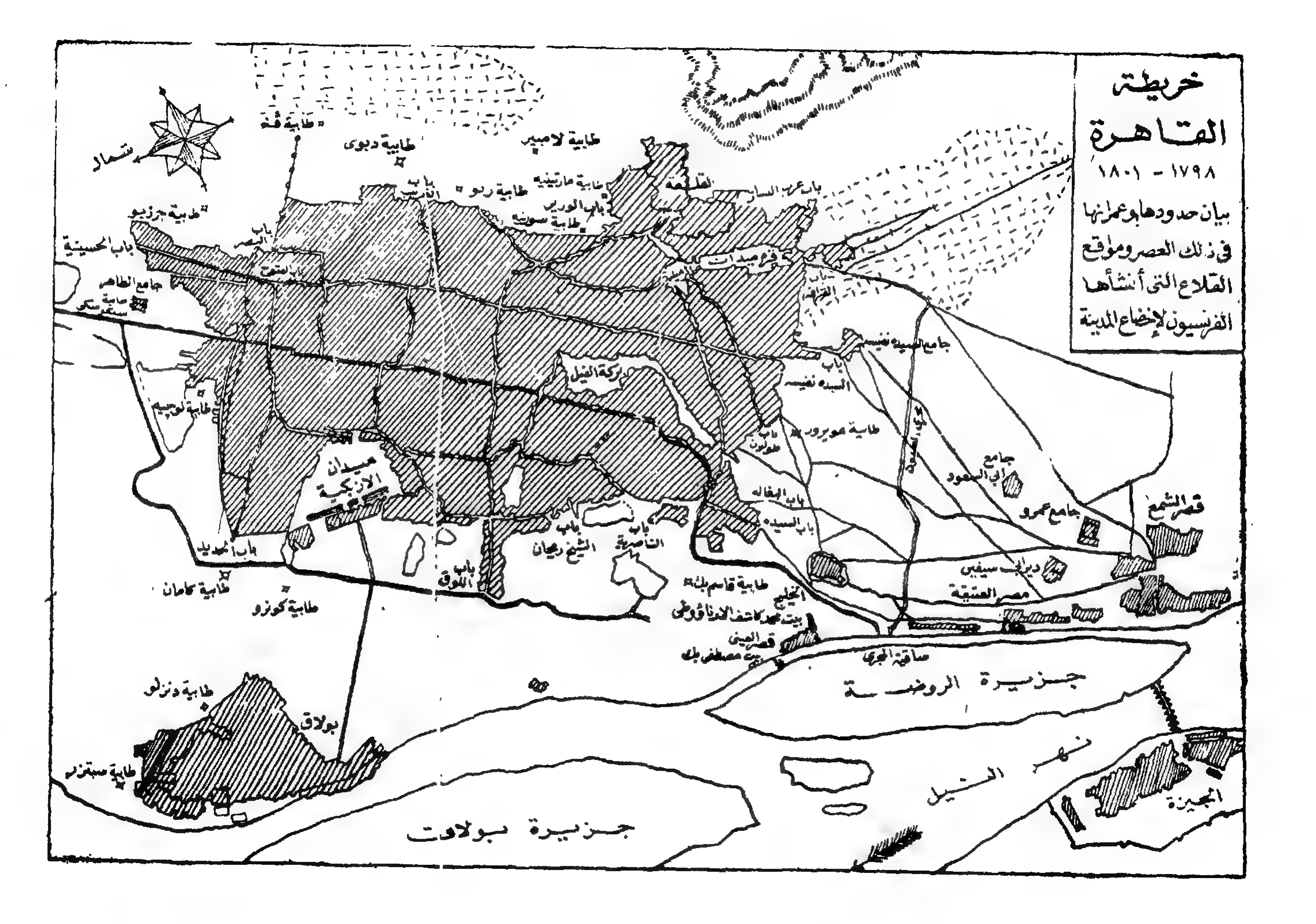
حبس هؤلاء العلماء فيمن قبض عليهم بعد اخماد الثورة ولم يكن احد يعلم التهمة التى اخذوا بها .

وفى يوم الأربعاء ٢٤ اكتوبر ذهب الى نابليون وفد كبير من الشيوخ يسألونه العفو عن أهل المدينة لتطمئن قلوب الناس ويسكن روعهم ، فوعدهم وعدا مشوبا بالتسويف ، وطالبهم بارشاده عمن تسبب من المعممين فى اثارة العوام فلم يتهموا احدا ، ثم طلبوا منه اخراج الجنود من الجامع الأزهر ، فأجابهم الى ذلك ، وامر بإخراج الجنود على ان يبقى سبعون جنديا أسكنوهم فى خط الأزهر للمحافظة على النظام .

ولما علم الشيخ باعتقال المتهمين بالتحريض على الثورة شفعوا لهم ، واختلفوا الى ولاة الأمور من الفرنسيين لاطلاق سراحهم ، فلم يتلقوا جوابا صريحا ، وقبض كذلك على ابراهيم افندى كاتب جمرك البهار واتهم بأنه ألب الجموع وكان يوزع عليهم السلاح و« المساوق » وأنه كان يؤوى عدة من المماليك والرجال المعدودين ، وقد تردد الشيوخ غير مرة للافراج عنه وعن باقى المتهيمن ، أما ابراهيم افندى فاطلق سراحه ونقل الى بيته ، وأما باقى المشايخ المتهمين بالتحريض على الثورة فقد بقوا فى السجن . وهناك حكم عليهم بالاعدام يوم ٣ نوفمبر سنة ١٧٩٨ ، وكانت محاكمتهم فى السر فلم يعلم بها أحد ، ونفذ فيهم الحكم يوم ٤ نوفمبر ، ففى الساعة الثامنة صباحا جىء بهم الى القلعة مخفورين بشرذمة من الجنود ، وهناك تلى عليهم حكم الاعدام وأعدموا رميا بالرصاص ، وغيب حالهم عن أكثر الناس أياما .

وأمر الفرنسيون الأهالى الساكنين حول ميدان الأزبكية - حيث كان معسكر القائد العام وقواد الجيش - ان يتحولوا من بيوتهم ليسكن بها رجالهم العسكريون والملكيون الذين كانوا موزعين من قبل فى القاهرة حتى يجتمعوا فى حى واحد ، إذ لم يعودوا يأمنون على أنفسهم بين الأهالى ، وقد استيقنوا أن الشعب معاد لهم ساخط عليهم يتربص بهم الدوائر .

وأصدر نابليون أمرا عسكريا أذاعه بين الجنود يأمرهم فيه بألا يبتعدوا


خريطة
القاهرة
١٧٩٨ - ١٨٠١
بيان حدودها وعمرانها
في ذلك العصر وموقع
القلاع التي أنشأها
الفرنسيون لإخضاع المدينة
شمال
طابية دبوى
طابية لامبير
طابية جرزيو
باب الحسينية
جامع الظاهر
باب النصر
باب الفتوح
القلعة
بركة الفيل
ميدان الأزبكية
باب الحديد
طابية كامان
طابية كونزو
باب اللوق
باب الشيخ ريحان
باب الناصرية
باب السيدة
باب السيدة نفيسة
جامع السيدة نفيسة
باب القرافة
طابية مويرون
جامع أبي السعود
جامع عمرو
قصر الشمع
مصر العتيقة
طابية قاسم بك
الخليج
قصر العيني
ساقية الجري
بولاق
طابية دنزلو
طابية سبتزر
جزيرة الروضة
نهر النيل
جزيرة بولاق
الجيزة

عن معسكراتهم .

وأصدر أمرا آخر يحظر فيه على الجنود والضباط إصلاح أسلحتهم عند صناع الأسلحة (البندقلية) الوطنيين وأن يسترجعوا منهم كل الأسلحة التى لديهم .

وانتزعت الثقة التى كانت قائمة بين الجنود والأهلين ، فكانت ثورة القاهرة كالهوة العميقة التى باعدت إلى الأبد بين الأمة المصرية والجيش الفرنسى ، وراح كل جندى لايمشى إلا بسلاح ، بعد أن كانوا لايمشون به أصلا من حين دخولهم القاهرة ، وصار من لم يكن معه سلاح من الفرنسيين يحمل فى يده عصا أو سوطا أو نحو ذلك ، ونفرت قلوبهم من المصريين ، وكفّ هؤلاء من جهتهم عن الخروج والمرور بالأسواق من العشية إلى ظلوع النهار ، وعامل الفرنسيون الشعب بالشدة والقسوة ، وشرعوا فى إحصاء الأملاك والمطالبة بالضرائب الجديدة التى كانت سببا فى نشوب الثورة ، وساد حكم الارهاب فى مدينة القاهرة ، فلا عدل ولا أمن ولاطمأنينة .

إبطال الديوان وإنشاء القلاع لاخضـاع القاهرة

أبطل نابليون اجتماع الديوان عقب إخماد الثورة عقابا لسكان القاهرة على ثورتهم ، وانصرف إلى تحصين المدينة وجعلها بمأمن من وقوع ثورة أخرى ، فأقام الفرنسيون القلاع على التلول المحيطة بالمدينة ، ونصبوا فيها المدافع ، وهدموا كثيرا من الأماكن بالجيزة ومصر القديمة وشبرا وحصنوها تحصينا منيعا ، وأقاموا المعاقل فى أهم شوارع القاهرة ، وأصلحوا قلعة المقطم وزادوها مناعة وهدموا عدة مساجد ، منها المساجد المجاورة لقنطرة امبابة ومسجد المقسى المعروف الآن بجامع أولاد عنان ، وقطعوا كثيرا من النخيل والأشجار لعمل الحصون والمتاريس ، وهدموا جامع الكازرونى بالروضة والجامع المجاور لقنطرة الدكة غرب الأزبكية ، وخربوا دورا كثيرة وكسروا شبابيكها وأبوابها وأخذوا أخشابها ليجعلوها فى بناء الحصون الجديدة ، ولم يمض ستة أسابيع على إخماد ثورة القاهرة حتى اصبحت محاطة بسلسلة من القلاع والاستحكامات التى أقامها الفرنسيون لاخضاعها ، وبلغ عددها تسع عشرة قلعة ، وهذا العدد من القلاع يدلك على مبلغ المقاومة التى لقيها الفرنسيون من المصريين فى عهد الاحتلال الفرنسى (أنظر الخريطة ص ٥٣) .

الفصل الثامن :

صدى الثورة فى الأقاليم

مافتئت القاهرة فى خلال العصور مصدر كل حركة ومنبع كل تطور فى الديار المصرية ، ولاغرو فهى بمثابة الرأس المفكر الذى يرسم الخطط ويدبر البرامج ويبتكر الأفكار ، أو هى بمثابة القلب يوزع دم الحياة فى شرايين البلاد ، وهى أبدا حافظة لمنزلتها بين سائر البلدان التى تظلها سماء مصر ، تلك المنزلة التى جعلت لها الزعامة الفكرية والسياسية فى البلاد بلا منازع ولامزاحم ، وجعلتها دائما مصدر كل تطور سياسى ، فلا تحدث فيها حركة إلا ويتردد صداها فى الأقاليم .

فالثورة التى شبت فى القاهرة خلال شهر أكتوبر سنة ١٧٩٨ كان لها صدى فى سائر البلاد ، والمقدمات التى سبقت تلك الثورة والحالة الفكرية التى كانت عليها القاهرة من أواخر سبتمبر وأوائل أكتوبر عمت الأقاليم ، حتى اعتقد الفرنسيون أن هناك تدبيرا سابقا لقيام ثورة عامة فى كل أنحاء القطر ، والواقع أنك إذا تتبعت الحركات التى قامت هنا وهناك من أقصى البلاد إلى أقصاها أخذتك الدهشة من تقارب تلك الحركات وتشابهها ، على أنه ليس ثمة تدبير ولااتفاق ، بل هى القاهرة عاصمة القطر السياسية والفكرية ، تغذى البلاد بأفكارها وعواطفها ، وتفيض عليها من أمانيها وآمالها ، وتشركها فى أفراحها وأحزانها ، فكأن البلاد مرآة تنعكس عليها صورة القاهرة ، أو كأنها الأفق يتردد فيه صدى نداء العاصمة .

بهذا التفسير نفهم الحوادث التى وقعت فى الوجه البحرى فى شهر سبتمبر وشهر أكتوبر من تلك السنة .

فى القليوبية والجيزة والبحيرة

فمن ذلك أن البلاد الواقعة على مقربة من القاهرة أو على طريقها قد اشتركت فعلا فى الثورة وأمدتها بالرجال والعتاد ، وإنك لتقدر مبلغ اشتراكها

فى الثورة بما وقع عليها من القصاص بعد إخمادها ، فقد أمرت القيادة الفرنسية بعض كتائب من الجيش بالطواف فى القرى التى اشتركت فى الثورة للبحث عن الأعيان ومشايخ البلاد الذين كان لهم ضلع فيها ، وعهدت إلى ضباط هذه الكتائب بمواجهة مشايخ البلاد (العمد) وتكليفهم تسليم الرسائل التى وردت عليهم ليلة الثورة تدعوهم إلى الانضمام لصفوف الثائرين بالقاهرة وشد أزرهم .

وقد ألقت القوة الفرنسية فى طوافها القبض على جماعة من الأعيان ومشايخ البلاد بتهمة الاشتراك فى الثورة ، وعادت بهم إلى القاهرة ، فأعدم بعضهم واعتقل البعض الآخر ، منهم الشيخ سليمان الشواربى شيخ ناحية قليوب وكبيرها فقد اعتقلوه وحبسوه بالقلعة واتهموه بأنه كان يوم ثورة القاهرة يحرض رجال البلاد المجاورة على الانضمام للثوار ، فحكموا عليه ومعه ثلاثة من عرب الشرقية بالاعدام ، وقطعت رءوسهم بالرميلة ، ونقل رفات سليمان الشواربى إلى قليوب ، ودفن هناك مع أسلافه .

• وفى أول نوفمبر أنفذ نابليون كتيبة من الجنود إلى القطا[1] . لاعتقال بعض الزعماء ليكونوا رهائن ، ثم إلى النجيلة وكفر غرين[2] لمعاقبة أهلها ، وكانت تهمة هذه القرى الثلاث أنها أطلقت الرصاص على السفن الفرنسية الجارية فى النيل وهددت الملاحة بين القاهرة والرحمانية ، وقد اعتقل قائد هذه الكتيبة الرهائن من هذه القرى وأنذر الأهلين بأنه إذا وقع أى اعتداء على أى من السفن تحرق القرية بالنار وتقطع رءوس الرهائن ، وقد أحرق الفرنسيون قرية (القطا) وهاجر أهلها منها قبل إحراقها .

وأصدر نابليون أمرا بتأليف كتيبة من الأورام المقيمين فى ذلك العهد بالقاهرة ورشيد ودمياط ، وعهد إليها حراسة السفن الفرنسية أثناء مرورها بالنيل وأراد نابليون من هذا الأمر أن يوفر بعض الجنود الفرنسية وأن يستخدم في هذه المهمة الأروام الذين أظهروا ولاءهم للجيش الفرنسى ، ولكن الأروام لم يتطوعوا لهذه المهمة بالعدد الذى ينتظره الفرنسيون ، وكانت المهمة فى ذاتها خطيرة لكثرة حوادث مهاجمة السفن إذ كانت هذه الحوادث لاتفتأ تكرر منذ انحدار أسطول السفن الفرنسية من بوغاز رشيد إلى القاهرة ، أى فى أوائل عهد الاحتلال الفرنسى ، فكانت جموع الأهالى تعطل سيره وتطلق عليه الرصاص باستمرار من الشاطئين ، وقد شهد مدير مهمات

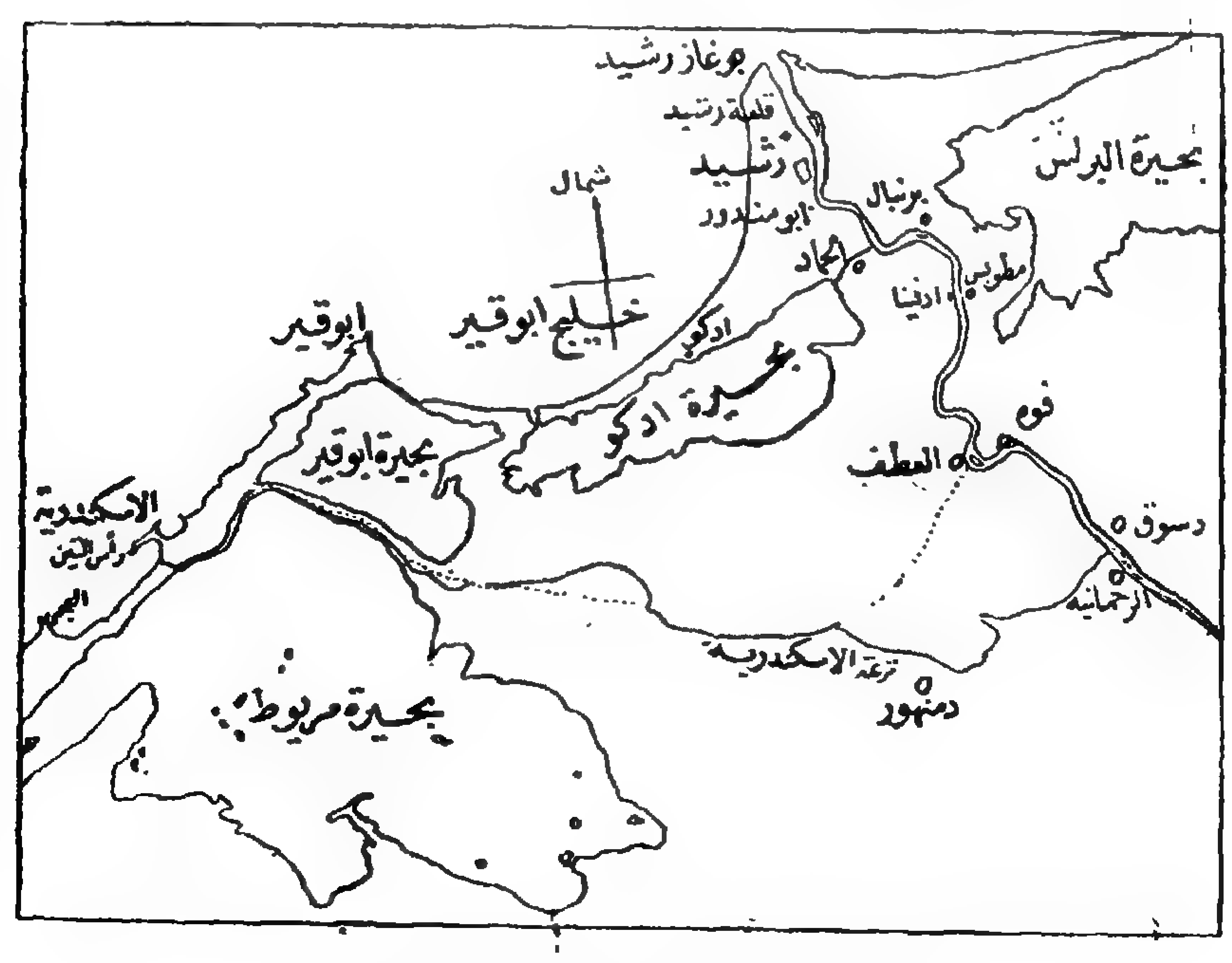
---

(١) من بلاد مركز امبابة الآن بالبر الغربى لفرع رشيد بين ام دينار ووردان (انظر مواقع هذه البلاد فى خريطة الوجه البحرى ص ٣٥) .

(٢) بلدتان واقعتان على البر الغربى للنيل من بلاد مركز كوم حمادة الآن .

الجيش الفرنسى إحدى هذه الحوادث ، فإن السفينة التى كانت تقله مع ضباط أركان الحرب جنحت بالقرب من (كوم شريك) فهجم عليه الأهلون وقتلوا بعض ركاب السفينة وأصيب مدير المهمات بجرح بالغ فى ذراعه .

وحدث للكابتن جوليان Julien ياور نابليون ما هو أشد وأدهى ، فقد أوفده نابليون من القاهرة إلى الاسكندرية برسالة منه إلى الجنرال كليبر ، وأخرى إلى الاميرال برويس Bruesy فى (أبو قير) ، فاستقل سفينة ومعه بعض الجنود وجنحت به على الشاطىء الغربى لفرع رشيد ، فما كاد ينزل هو وجنوده إلى الشاطىء حتى هجم عليهم أهالى « علقام » (من بلاد مركز كوم حمادة الآن) . فقتلوهم عن آخرهم ، فلما علم نابليون بنبأ هذه الحادثة أمر بإحراق القرية عقابا لها على اعتدائها ، فأحرقها الجنود وخربوها ولم يبقوا منها بيتا قائما ، ثم فكر نابليون فى اتخاذ طريقة فعلية لحماية المواصلات النيلية ، فشرع فى إنشاء أسطول نيلى مسلح ألفه من السفن الصغيرة الحربية ، التى نجت من كارثة (أبو قير) ومن المراكب المصرية التى استولى عليها الفرنسيون ، وسلحوها بالمدافع ، وجعل قواعد هذا الأسطول وسفنه فى موانىء بولاق ومصر القديمة ورشيد ودمياط والوجه القبلى .



من اسكندرية إلى رشيد

وفى شهر نوفمبر سنة ١٧٩٨ أصدر أمره بتسيير دوريات من السفن الحربية فى فرعى النيل تتولى كل منها حراسة الملاحة فى قطاعات محدودة ، ففى فرع رشيد ثلاث منهن جعلت الأولى بين رشيد والرحمانية ، والثانية بين الرحمانية والطرانة (من بلاد مركز كوم حمادة الان) والثالثة بين الطرانة وبولاق .

وفى فرع دمياط ثلاث اخرى ، الأولى من دمياط إلى المنصورة ، والثانية من المنصورة إلى ميت غمر ، والثالثة من ميت غمر إلى بولاق ، وكل دورية مؤلفة من ثلاث أو أربع سفن مسلحة بقيادة ضابط بحرى نيطت به حراسة المواصلات فى القطاع الذى هو فيه ، وعليه أن يطوف بسفنه وأن يرسل للقيادة الحربية فى كل فرصة تقريرا عما يحدث فى قطاعه ، وهو مسئول عن الحوادث التى تقع فى ناحيته ، وخصص عدة سفن مسلحة لتجوب النيل فى الوجه القبلى وتحمى مواصلات الجيش الفرنسى ، وتحرس نقل الغلال إلى القاهرة .

ولقد لقى الفرنسيون أشد الجهد فى استخدام النوتية المصريين فى مراكبهم لامتناع الكثير منهم واستعصائهم أن يخدموا المحتلين فى نافعة أو ضارة .

تدخل العلماء
وبياناتهم للشعب

فى خلال المدة التى ساد فيها حكم الارهاب وأبطل الديوان ، تدخل كبار العلماء (أعضاء الديوان) وتوسطوا لدى نابليون ليعيد الطمأنينة إلى النفوس ، فطلب اليهم نابليون كتابة بيان للأهالى ينكرون فيه الثورة ويذكرون عواقبها من قتل المصريين ونهب بيوتهم وتدميرها وينصحون الأهالى بالاخلاد إلى السكينة تفاديا من الهلاك ، فلم تفد هذه البيانات شيئا فى صرف الأهلين عن المقاومة .

●

الفصل التاسع :

المقاومة فى المنوفية والغربية

عين نابليون قوادا من الحملة لاخضاع مديريات الوجه البحرى ، وأصدر تعليماته إليهم أن يتعاونوا على توطيد سلطة فرنسا فى هذه المديريات وأن يجردوا الأهلين من السلاح ويصادروا خيولهم ويعتقلوا أعيانهم رهائن ، كل ذلك لإخضاع البلاد وإلقاء الرهبة فيها .

وسائل همجية

وكتب إلى قومندان المنوفية ينبئه بسفر قومندان الغربية ويقره على إعدام خمسة من الأهلين فى كل قرية من القرى الثائرة ، وأمره أن تقدم كل قرية جوادين من خير الجياد ، وأن كل قرية لاتذعن لهذا الأمر وتمضى خمسة أيام على إعلانها به تفرض عليها غرامة ألف ريال ، وقد كان لهذه الأوامر الظالمة أثرها فى تأجيج نار الكراهية ضد الفرنسيين .

مشاركة النساء للرجال فى المقاومة

سار قومندان الغربية فى قوة من الجند من القاهرة قاصدا منوف فى اغسطس سنة ١٧٩٨ ، ثم غادرها قاصدا الغربية واصطدم فى طريقه بمقاومة عنيفة من قريتى (غمرين) و(تتا) وهما بلدتان متجاورتان[١] شمالى منوف .

ثار أهل القريتين ، وحملوا السلاح ، وأغلقوا الأبواب فى وجه الجنود ، فحاول القائد الفرنسى عبثا أن يكره البلدين على فتح أبوابهما فلم يستطع ، ولما أعيته الحيل طلب المدد من قومندان المنوفية الذى كان مرابطا بمنوف فأمده بقوة من جنوده ، وتعاونت القوتان على اخضاع القريتين بعد مادافع

---

(١)انظر موقعهما فى حريطة الوجه البحرى (ص ٣٥)

أهلهما دفاعا شديدا ، واشتد القتال بخاصة فى غمرين ، واشتبك الأهالى والجنود فى طرقاتها ، فانهمرت فيها الدماء ، وغطيت الأرض بجثث القتلى ، قال أحد الضباط الفرنسيين : « جاءنا المدد ، وتعاونت الكتيبتان على مهاجمة قرية غمرين ، فأخذناها عنوة بعد قتال ساعتين ، وقتلنا من الأهالى من أربعمائة إلى خمسمائة بينهم عدد من النساء كن يهاجمن جنودنا بكل بسالة وإقدام ، أما خسائر الفرنسيين فكانت قتيلا واحدا واثنى عشر جريحا ، ولم تكن عندنا فئوس ، فكان ذلك من الأسباب التى اخرتنا عن اقتحام أبواب القرية » .

فانظر الى هذا الوصف ، وتأمل كيف كان النساء يشاركن الرجال فى مقاتلة الفرنسيين ودفاعهم ، وهذا لعمرى من أبلغ مايذكر عن استبسال شعب فى الدفاع عن كيانه ، وأبلغ منه أن الشهادة به جاءت من عدو ، وسترى فى خلال الوقائع التالية ان النساء كن فى بعض البلاد يشاركن الرجال فى مقاومة الفرنسيين .

استولى الفرنسيون أولا على (غمرين) ثم قصدوا إلى (تتا) فاستولوا عليها ، وأضرموا النار فى القريتين عقابا لهما على الثورة .

ونفدت ذخيرة الجنود فى محاربتهم لبلدتى غمرين وتتا ، فعاد قائدهم إلى منوف ينتظر المدد وبقى هناك ثمانية أيام ، ولما كان الفيضان قد بدأ يغرق الطرق فقد نزل بجنوده فى السفن ووصل إلى المحلة الكبرى من طريق ترعة مليج واستقر بها .

فى المحلة الكبرى

كانت المحلة الكبرى عاصمة الغربية ، وهى يومئذ أكبر بلاد الدلتا فى اتساعها ومركزها الصناعى ، واشتهرت فى ذلك العصر (كشهرتها الآن) بنسيج الأقمشة الحريرية والقطنية .

وكان عمال نسيج القطن قبل الحملة الفرنسية يبلغ عددهم فيها ألفى عامل فنزل عددهم مدة الحملة إلى خمسمائة وهذا يدلك على تقهقر البلاد من الوجهة الاقتصادية فى عهد الحملة الفرنسية .

وقد رابط قومندان الغربية فى المحلة الكبرى ، ثم انتقل منها فى خلال الحملة الى سمنود التى اتخذها الفرنسيون عاصمة لمديرية الغربية وفضلوها

على المحلة الكبرى لوقوعها على النيل ، وسهولة اتخاذها مركزا للمواصلات النيلية والحركات العسكرية .

الثورة فى طنطا

كانت طنطا كما هى الآن أكبر بلاد الدلتا من الوجهة التجارية ، بلغ عدد سكانها فى ذلك العصر عشرة آلاف نسمة ، وترجع مكانتها إلى مركزها التجارى وإلى ضريح السيد أحمد البدوى ومواسمه المعروفة ، فكان يزورها سنويا فى أيام المولد الأحمدى نحو مائة ألف زائر من مختلف المدن والأقطار .

ظهرت اعراض الهياج والثورة فى طنطا أوائل أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، وأجمع أهلها على الامتناع عن دفع أى ضريبة أو غرامة تفرض عليهم .

وكان نابليون ينظر إلى طنطا كمدينة مقدسة عند المسلمين ، تلى مكة والمدينة فى الأهمية ويستشعر احترامها محافظة على إحساس الأهالى ، فتحاشى أول الأمر أن يرسل اليها قوة من الجنود كيلا يصطدموا بالأهالى أو يعتدوا على الشعائر الدينية فتثور ثائرتهم ، ولكن قومندان الغربية رأى روح الهياج والتمرد تقوى وتشتد ، فأرسل اليها كتيبة من الجنود وعهد اليها اعتقال زعماء المدينة واخذهم رهائن ، وكلفها كذلك أن تخضع الأهالى فيما جاورها وفى البلاد الواقعة على طريق الجنود وأخذ الرهائن منها ، وكان دعاة الثورة فى القرى يحرضون الأهالى على عصيان الفرنسيين .

وصلت الكتيبة تجاه طنطا يوم ٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ورابط قائدها بجنوده وكلف حاكمها سليم الشوربجى أن ينفذ إليه أربعة من كبراء المدينة يكونون رهائن ، فجاءه بأربعة من أئمة مسجد السيد أحمد البدوى ، ورفض أكابر المشايخ أن يحضروا معه ليعطوا القائد الفرنسى موثقا بالمحافظة على السكينة فى طنطا ، وكان المولد قائما فى ذلك اليوم ، وقد تجمع فيه خلق كثير من أرجاء البلاد ، فلم يكد قائد الكتيبة ينزل الرهائن الأربعة إلى المراكب ليبعث بهم إلى القاهرة ، حتى هرعت الجماهير مسلحين بالبنادق والحراب يصيحون صيحات الغضب والسخط ، رافعين الرايات والبيارق ، فلما رآها أهالى البلاد المجاورة أقبلوا من كل حدب وانضموا الى الثائرين وفيهم ١٥٠ من الفرسان ، فاندفعت هذه الجموع على الكتيبة وكادت تستولى على المراكب التى معها فقابلتها الكتيبة بنار شديدة من البنادق الحديثة ، فانهزمت الجموع الى المدينة ، وعادت غير مرة تهاجمها ثم ترتد الى داخل

البلد ، ورأى قائد الكتيبة الا سبيل الى تعقب الثائرين فى مدينة كبيرة كطنطا لقلة عدد جنوده وافتقاره الى المدفعية ، فلزم خطة الدفاع واقتصر على منع الثائرين أن يحيطوا بجنوده ، وعلى الدفاع عن مراكبه ، وتمكن من انزال معظم قوته بالسفن ومعهم الرهائن ، ثم أقلعت سفنه ، وترك قوة من رجاله على شاطىء الترعة لمنع الثوار أن يلحقوا به ، وانسحب الثوار بعد معركة دامت أربع ساعات ، وقد قرر القائد الفرنسى عدد الثوار بعدة آلاف ، وقدر خسائرهم بثلثمائة بين قتيل وجريح ، وطلب من نابليون معاقبة اهالى طنطا لان معظم الثوار كانوا منهم ، وألح فى طلب المدد من الرجال والمدافع لاخضاعهم .

ولكن نابليون جنح وقتا ما إلى الحكمة ، وآثر أن يتريث ولايتمادى فى التقتيل والتنكيل ، إذ خشى عاقبة انفجار الهياج فى مدينة لها حرمتها عند الأهلين .

وكان القائد الفرنسى قد نبه نابليون إلى أن الثوار قد استعانوا بالعرب ، فكلفه نابليون أن يأخذ الرهائن منهم لاخضاعهم ، وأن لم يذعنوا فلينكل بهم .

وقد عزم نابليون على تجريد الحملة عليهم بقيادة قائد جديد عينه قومندانا لمديرية المنوفية ، وأمره أن يسير إلى العرب فى سنباط حيث يرابطون بها ويحاربهم ، وينتزع منهم الرهائن والأسلحة .

المقاومة فى عشما

كان القائد الجديد (الجنرال لانوس) يهاجم حينئذ قرية عشما[٢] (من بلاد مركز شبين الكوم) لاخضاع زعيمها المشهور فى ذلك العهد بسطوته وشدة بأسه ، واسمه « أبو شعير » وقد اتهمه الفرنسيون بعدائه لهم ، وممالأته على الجنود ، فجرد القائد الفرنسى حملة عليه ، وسار ليلة ٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨ قاصدا قرية عشما فى كتيبة من الجنود ، فوصلها الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، وفاجأ مخفرين من المخافر التى وضعها أبو شعير حول القرية لحراستها ، فتخطاهما حتى وصل إلى مدخل البلد ، وهناك التقى بمخفر ثالث أطلق رجاله الرصاص على الفرنسيين ، لكن الجنرال لانوس تمكن من تطويق القرية بالجنود ومحاصرة منزل أبى شعير الذى وصفه لانوس بأنه قصر محصن تحصينا تاما بالنسبة لحالة البلاد ، وقد علم أبو

---

(٢) انظر موقعهما فى خريطة الوجه البحرى (ص ٣٥) .

شعير بوصول الفرنسيين ، فركب فى رهط من رجاله استعدادا للقتال ، وسعى لانوس فى أخذه بالحسنى ، ولكنه أجاب باطلاق الرصاص على الفرنسيين ، فأمر الجنرال لانوس رجاله باقتحام أسوار القصر ، وأدرك (أبوشعير) أنه واقع لامحالة فى أسر الفرنسيين ، فأمر جنوده أن يطلقوا النار على الجنود ليشغلهم عن نفسه ويلوذ بالنجاة ، وقد تمكن من تسلق الأسوار ثم ألقى بنفسه فى الترعة وقطعها سباحة ، ولكنه لم يكد يصل الى عدوتها الأخرى حتى اصابته رصاصة جندلته ، فمات شهيدا ، وكان بطلا من أبطال المقاومة الأهلية ، والظاهر أن الفرنسيين اعتبروا قتل أبى شعير انتصارا كبيرا ، فقد ابتهج له الجنرال لانوس ، وأرسل إلى نابليون بتاريخ ٢٣ أكتوبر ينبئه بمصرعه ، ويذكر عنه أنه لحق الجيش الفرنسى منه أذى كبير وأنهم وجدوا بمنزله بعض شارات للضباط الفرنسيين ، وقد ذكر لانوس عن أبى شعير أنه إذا مشى سار معه ألف ومائتا رجل فى سلاحهم ، واعترف فى رسالته لنابليون أنه لولا مفاجأته لأبى شعير فى قريته لما استطاع أن يظهر عليه ، ولو هو علم بمقدم الفرنسيين وأعد لملاقاتهم ، لأصابهم منه جهد وشدة وأذى ، وقد استولى لانوس على ماوجده فى القصر من الأسلحة ، ومنها ثلاثة مدافع وعدد كبير من البنادق .

وكانت الملاحة فى الترع بدأت تتعطل لنقص مياه النيل ، على حين أن المواصلات فى البر متعذرة ، فتأخرت الحملة التى كلف بها الجنرال لانوس إلى اوائل نوفمبر حتى جاءه المدد من القاهرة .

ولما وصله المدد سار بجنوده وأوقع بكثير من القرى المحاذية للنيل بحجة مهاجمتها للسفن الفرنسية على فرع رشيد ، وبلغ طنطا دون أن يلقى مقاومة ، وأمكنه أن يحصل بعض الضرائب وشتت قوات العرب التى كانت تشد أزر الثوار ، لكنه لم يستطع أن يقهرها أو يتغلب عليها ، ثم عاد إلى منوف .

●

الفصل العاشر :

المقاومة فى الدقهلية ودمياط

على أثر تعيين أحد قواد الحملة قومندانا لمديريتى المنصورة[1] ودمياط فى أوائل أغسطس سنة ١٧٩٨ ، مضى بفرقته إلى المديريتين لاخضاعهما ، فقصد أولا إلى المنصورة ومكث بها قليلا وترك بها حامية تحتلها ، ثم تابع سيره إلى دمياط ليجعلها مقرا لفرقته ، فاحتلها واحتل عزبة البرج .

واقعة المنصورة

ائتمر أهالى المنصورة والبلاد المجاورة بجنود الحامية واتفقوا على الفتك بهم ، فبينما كان الجنود فى معسكرهم يوم ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٨ دخلت المدينة جموع كثيرة من أهالى البلاد المجاورة ، وكان اليوم يوم السوق العامة ، فاختلطوا بأهل المدينة ، ووافقوهم على الفتك بجنود الحامية ، فهاجموا الجند ، ونادت المدينة كلها بالثورة ، رجالا ونساء ، وكان النساء يحرضن أزواجهن على أن يثوروا بالفرنسيين ، ولما شعر الجنود بالخطر امتنعوا فى معسكرهم فحاصره الثائرون وشرعوا فى دكه وأشعلوا فيه النار ، فاضطر الجنود الى اخلائه هاربين وانحدروا إلى السفن قاصدين الفرار ، ولكن الجموع تكاثرت عليهم وأبى رجال السفن أن يحملوهم ، فالتجأوا إلى البر وقصدوا إلى دمياط ولكن الثوار أخذوا عليهم الطريق ثم قتلوهم عن اخرهم ، وكان من الناجين امرأة أحد الضباط وابنتها ، فأبقى عليهما الثوار ، ولم يمسوهما بسوء ، وفى المراجع الفرنسية أن الفتاة قد اشتراها شيخ العرب (أبو قورة) بميت العامل (مركز أجا) وتزوج بها فلبثت عنده حتى مات عنها سنة ١٨٠٨ فى عهد محمد على ، وبقيت حافظة عهده قائمة على تربية اولادها منه بعد وفاته ، وقد زارها كلوت بك كبير أطباء الجيش المصرى

---

(١) كانت مديرية الدقهلية تعرف بمديرية المنصورة ، ولم يكن اسم الدقهلية شائعاً فى ذلك العصر .

فى عهد محمد على سنة ١٨٢٤ وتحقق منها صحة هذه الرواية فى جملتها .

أشعلت واقعة المنصورة نار الثورة والهياج فى البلاد المجاورة ، ثم وصل الجنرال دوجا Dugua الذى عينه نابليون قومندانا لمديرية المنصورة ، فلما علم بواقعة المنصورة أخذ يفحص عن المحرضين عليها ، وتبين انهم غادروا المنصورة ومنهم رجلان كانت لهما شهرة فى تلك الجهات بالسطوة والجاه وشدة البأس ، وهما الأمير مصطفى ، وعلى العديسى ، فاكتفى الجنرال دوجا بالحكم على اثنين من أهالى المنصورة بالاعدام ، لثبوت اشتراكهما فى القتل ، وأنفذ الحكم فيهما وطافوا برأسيهما فى شوارع المدينة عبرة وارهابا ، وأخذ الجنرال دوجا يتأهب لتعقب المعتدين فى بلاد البحر الصغير والقبض على الأمير مصطفى وعلى العديسي ، وتجريد حملة عسكرية لمعاقبة القرى التى اشتركت فى الاعتداء على الجنود .

وطلب نابليون إلى الجنرال دوجا إخضاع بلاد مديرية المنصورة ، وأخذ رهائن من كل قرية اشترك أهلها فى الاعتداء على الجنود ، ثم إحراق القرى التى يرى أنها كانت أبلغ فى الاعتداء ، وأمر نابليون بفرض غرامة ثلاثة آلاف ريال على أعيان المنصورة عقابا لهم على سوء صنيعهم ، وفرض ألفى ريال خاصة على السيد على الشناوى أحد أعيان المدينة ، ثم ألفى ريال على القرى التى اعتدت على الجنود .

ولقى الفرنسيون عناء كبيرا فى إخضاع مديرية المنصورة ، فقد اشتدت فيها المقاومة وامتنع كثير من البلاد عن دفع الضرائب ، وكان محصلو الأموال الأميرية إذا ذهبوا الى القرى لجباية الضرائب أو مصادرة الأملاك يقابلون بالرصاص رميا ، أو بالعصىّ ضربا ، وفى بعض الأحيان كانوا يصحبون بعض الخفراء لحراستهم ، فلا يعصمهم ذلك أن يلقوا مثل هذه المقابلة ، وعطل الفيضان حركات نقل الجنود فى البر ، فساعد هذا العامل على فيضان روح الثورة فى القرى ، واضطر الجنرال دوجا إلى تأخير ما عهد إليه من إخضاع ذلك الاقليم ومعاقبة القرى التى ثارت فى وجه الجيش أو التى اشتركت فى قتل الحامية الفرنسية بالمنصورة .

واشتدت الاضطرابات فى منطقة ميت غمر ودنديط وميت الفرماوى .

فيضان الثورة

كان طائف الثورة يطوف فى مختلف البلاد ، بحيث كانت كلما أخمدت فى جهة انبعثت فى جهة أخرى ، قال ريبو أحد مؤرخى الحملة الفرنسية فى هذا

الصدد : « كان الجنود يعملون على إخماد الثورة باطلاق الرصاص على الفلاحين وفرض الغرامات على البلاد ، لكن الثورة كانت كحية ذات مائة رأس ، كلما أخمدها السيف والنار فى ناحية ظهرت فى ناحية أخرى أقوى وأشد مما كانت ، فكأنها كانت تعظم ويتسع مداها كلما ارتحلت من بلد إلى آخر » .

وقال فى موضع آخر يصف حالة الشعب النفسية ومركز الفرنسيين : « إن مصر قد فوجئت بالحملة الفرنسية ، فأخذت تنتفض وتجاذب للتخلص من قبضة الفاتح الحديدية ، لقد كنا نرابط فى مصر ونحتلها احتلالا عسكريا ، وعلى الرغم مما بذلناه من الجهود ليقبلنا الشعب كما يتقبل محرريه (كذا !) فقد بقيت سلطتنا قائمة على القوة لا على الاقناع ، وكان اختلاف الدين واللغة والطباع والعادات مما يجعل الامتزاج بين الغالب والمغلوب عسرا بعيد الاحتمال ، فكانت سياستنا قائمة على إكراه الشعب على الاذعان بالحزم مرة ، وبالقوة مرة ، وقمع كل ثورة ، ومكافأة من يخدم السلطة الفرنسية ، ولادراك هذه الغاية وزع بونابرت الجيش على مختلف أنحاء القطر لاخضاعها وجعلها موضع مراقبة دقيقة ، وكان قواد الفرق فضلا عن اختصاصاتهم الحربية ، يتولون الاشراف على الأعمال الادارية والمالية فى مديرياتهم ويراقبون جباية الأموال والغرامات فى الأقاليم » .

الحملة على البحر الصغير

اهتم نابليون باخضاع بلاد البحر الصغير ، الكائنة بين المنصورة وبحيرة المنزلة ، وارتياد الجهات الموصلة إلى البحيرة ، وكان يرمى من جهة إلى إخضاع تلك البلاد ، ومن جهة أخرى إلى تأمين المواصلات بين دمياط والمنصورة والصالحية وبلبيس حتى يطمئن على حدود مصر الشرقية .

فجرد الجنرال دوجا حملة عسكرية لاخضاع البحر الصغير ومعاقبة القرى الثائرة فى هذا الاقليم ، وعهد الى هذه الحملة ضمن ما عهد به اليها معاقبة بلدتى « منية محلة دمنة » و« القباب الكبرى » الواقعتين على بحر أشمون (البحر الصغير الآن) إذ جاهر أهلهما بالعصيان والامتناع عن دفع الضرائب والغرامات التى فرضت عليهم .

حسن طوبار

وكان لهذه المهمة شأن وخطر فى تلك الجهات ، لما امتد فى انحائها من

أسباب الثورة والهياج ، ولظهور جماعة من زعماء الأهالى يحرضون الناس على مقاومة الفرنسيين ، وقد تكرر فى كثير من رسائل وتقارير القواد الفرنسيين فى مديريتى المنصورة ودمياط اسم « حسن طوبار » شيخ بلد المنزلة فى ذلك الحين كزعيم للمحرضين ، وخصم عنيد لايستهان به ، ومدبر لحركات المقاومة فى هذه الجهات ، كما تردد اسم الأمير مصطفى وعلى العديسى كمحرضين فى واقعة الاعتداء على حامية المنصورة .

كان حسن طوبار زعيما لاقليم المنزلة ، وكان هذا الاقليم جياشا بمتاعب كثيرة للفرنسيين .

معركة الجمالية

واصلت الحملة سيرها حتى بلغت (برنبال الجديدة) ثم غادرتها ووصلت بحرا تجاه (الجمالية) (على البحر الصغير) ، فوحلت السفن الفرنسية فى بحر أشمون (البحر الصغير) من قلة المياه ، وانتهزها الأهلون فهاجموا السفن الفرنسية وكانوا يتبعونها من بعيد ، واشترك فى هذا الهجوم أهالى الجمالية ، فأطلقوا النار على السفن وأمطروها وابلا من الحجارة من أعلى سور بلدتهم ، فأمر قائد الحملة بانزال الجنود إلى البر لرد هجوم الأهلين ، وأمكنه أن يفرق الجموع التى احدقت بالقوة الفرنسية ، ولكنه بعد قتال أربع ساعات انسحب من الموقع الذى نزل به ورأى انه لايستطيع الثبات به ولامتابعة السير فى بحر أشمون ، فأضرم النار فى الجمالية وعاد أدراجه إلى المنصورة ومعه جرحاه وقتلاه .

كانت معركة الجمالية ذات شأن وخطر ، وصفها أحد ضباط الحملة فى تقريره عنها وكان ممن اشتركوا فيها ، قال :

« لما وصلنا بحرا تجاه الجمالية ، وهى قرية كبيرة قوية على الشاطىء الغربى من بحر أشمون ، فوجئت السفن التى كانت تنقل الجنود بعاصفة من الأحجار والرصاص انهالت من أسوار البلدة وبيوتها ، وفى الوقت نفسه رأينا جموعا كثيرة من العرب والمماليك والفلاحين مسلحين بالبنادق والسيوف والعصىّ (والشماريخ) تهرع من الجهات المجاورة مسرعة إلى مهاجمتنا ، وكان بعضهم راكبين الخيل ، وأكثرهم مشاة ، فدهشنا لهذه الهجمة العنيفة ، ولكننا لم نؤخذ على غرة ، ونزلت الجنود حاملة سلاحها إلى البر الشرقى المقابل للقرية وتأهبوا للقتال منتظرين قدوم الأعداء (الأهالى) ، فرأينا

أكثرهم شجاعة يغامرون بأنفسهم ويهجمون إلى أن يصبحوا في وسط جنودنا ، لكن الجنود حاربوهم ببسالة ، وقد رأيت بنفسى جماعة من الفلاحين ليس بيدهم سلاح سوى العصىّ يهاجموننا بحماسة فيستشهدون بين أسنة رماحنا ، وصدر لى الأمر باطلاق النار على المهاجمين ، فأطلقنا النار عليهم ، وفرقنا هذه الجموع بعد أن تركت الميدان مغطى بجثث القتلى ، ولقد تمكن بعضهم من أن يعبروا الترعة ثانية ويمتنعوا فى الجمالية ، وهى قرية محوطة بالأسوار تحميها ترعة اشمون (البحر الصغير) من جهة والمستنقعات التى تغمرها المياه من جهة اخرى ، فأمرنى قائد الحملة أن آخذ القوة الكافية واستولى عنوة على القرية ، فعبرنا الترعة بجسر أقمناه على عجل ، ووزعت جنودى ، فعهدت إلى جزء منهم ردّ الهجمات الاتية من خارج القرية وهجمت بقوتى على القرية ، واقتحمنا الباب الكبير رغم مقاومة أهلها الذين دافعوا عنها دفاعا قويا ، فاستولينا على جزء من القرية ، ولكن الأهالى ظلوا يدافعون عن الجزء الآخر ممتنعين فى البيوت والشوارع ، وهجم الثوار على القوة التى دخلت القرية ولكن صدتهم البنادق والحراب ، وحصر جزء منهم فى القرية ، وتمكن جماعة آخرون أن يتسللوا منها فتلقتهم القوة المرابطة حولها ونجا منهم من ألقوا بأنفسهم فى المستنقعات وذهبوا سباحة يحملون بنادقهم » .

وقد قدر هذا الضابط خسائر الفرنسيين فى هذه المعركة بخمسة قتلى وخمسة عشر جريحا ، وقدر خسائر الأهالى بخمسمائة .

انتهت معركة الجمالية باحراق البلدة وانسحاب الفرنسيين ، وعادت الحملة الى المنصورة يوم ٢١ سبتمبر بعد أن مرت وهى راجعة بالكردى ومنية محلة دمنة ، وكان الأهالى فى معظم القرى التى مر بها الجيش يخلون بلادهم خوفا من انتقام الفرنسيين بحيث كان الجيش يصلها فلا يجدها ألا خالية .

فى دمياط

كانت دمياط (كما هى الآن) من اهم بلاد القطر المصرى من الوجهتين الاقتصادية والحربية ، وكانت مركزا تجاريا وصناعيا كبيرا ، تصدر منها متاجر البلاد وترد اليها وارداتها القادمة من سوريا وقبرص والاناضول وتركيا واليونان .

امتدت شعلة الثورة الى دمياط وظهرت علائم الاضطراب والهياج حولها

من أوائل سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، فأرسل الحاكم العسكرى الفرنسى بها الى الجنرال دوجا قومندان مديرية المنصورة ينذره بقرب هجوم الثوار على المدينة ، ويطلب منه المدد ، وينبىء بأن حسن طوبار يحشد أسطولا كبيرا فى بحيرة المنزلة لمهاجمة المدينة .

وقع الهجوم المنتظر ليلة ١٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، واشترك فيه أهالى البلاد المجاورة لدمياط ، واشترك فيه ايضا أسطول حسن طوبار الذى تحرك فى بحيرة المنزلة قاصدا شطوط دمياط ، فوصل إلى (غيط النصارى) شرقى المدينة ، والتقى الأهالى القادمون من القرى بالنازلين من السفن ، وكانوا مسلحين بالبنادق والرماح ، وساروا قاصدين دمياط لمهاجمة القوة الفرنسية ، فقتلوا الحراس الفرنسيين المرابطين فى المخافر الأمامية للمدينة ، وظل القتال متواصلا ليلة ١٦ سبتمبر إلى أن رتب الفرنسيون قواتهم فتحول موقفهم من الدفاع إلى الهجوم ، وتمكنوا من التغلب على الثوار ، وردهم على أعقابهم بعد ما كبدوهم خسائر جسيمة ، وانسحب معظمهم إلى شاطىء البحيرة ، فركبوا السفن التى كانت تنتظرهم ، واتجهت فرقة منهم إلى قرية (الشعراء) جنوبى دمياط ، فتحصنوا بها ، وهذه القرية من دمياط على مرمى المدفع ، فاتخذها الثوار معسكرا لهم ، وجاءهم المدد من بحيرة المنزلة ، وفى خلال ثورة دمياط قام أهالى عزبة البرج وثاروا بالحامية الفرنسية فقتلوا من أدركوهم من رجالها ، ولما علموا فى اليوم التالى أن ثورة دمياط أخمدت وأن الفرنسيين لابد آتون للاقتصاص منهم أخلوا البلدة بعيالهم ونسائهم وانحدروا فى المراكب قاصدين إلى سواحل سوريا ، وقد أنفذ الحاكم العسكرى بدمياط حملة على تلك البلدة فوجدتها خالية من السكان فنهبتها وأحرقتها ، وعادت إلى دمياط .

واقعة الشعراء

تشجع قائد القوة الفرنسية بدمياط بالمدد الذى جاء من المنصورة ، فتقدم جنوده يوم ٢٠ سبتمبر سنة ١٧٩٨ للاستيلاء على الشعراء ، وكان يدافع عنها نحو ١٥٠٠ من الثوار تحميهم البحيرة من جانب ، والنيل من جانب اخر ، فاقتحم الجنود الفرنسيون القرية واستولوا عليها عنوة ، ونهبوها وأضرموا فيها النار ، واستولوا على مدفعين للأهالى وعلى السفن التى كانت على مقربة من الشعراء ، وخسر الثوار فى هذه المعركة نحو خمسين شهيدا ، وخسر الفرنسيون اثنى عشر قتيلا وثلاثين جريحا .

تفاقمت الثورة فى البلاد الواقعة بين المنصورة ودمياط ، وتعددت حوادث مهاجمة الثوار للسفن الفرنسية المقلة للجنود فى النيل .

وقد أمر نابليون الجنرال دوجا بالانتقال إلى دمياط لمواجهة الحالة الثورية فيها ، وكانت فظائع الحاكم العسكرى بها وجنوده قد أججت فى النفوس نار الكراهية واستفزت الأهالى للأخذ بالثأر ، والاستماتة فى مقاومة الفرنسيين .

وأرسل نابليون إلى دمياط بعض السفن المسلحة لتكون عند أمر الجنرال دوجا فى بحيرة المنزلة ، ولتضمن بسط سيادة الفرنسيين فيها ، على أن مركز الفرنسيين فى جهات فى دمياط والمنزلة ظل مزعزعا وسلطتهم مردودة فى معظم البلاد .

الحملـة الثـانيـة
على البحر الصغير

رأى نابليون أن نفوذ حسن طوبار يخلق للفرنسيين كثيرا من المصاعب ويزعزع سلطتهم فى جهات البحر الصغير والمنزلة ويثير فى نفوس الأهالى روح الثورة فجرد عليه حملة ثانية لاخضاعه .

وقد انتهت هذه الحملة بالاستيلاء على المنزلة فى ٦ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، وكان أهلها ومعهم حسن طوبار قد أخلوها ولم يبق بها سوى الشيوخ الذين لايقدرون على السير والعجائز من النساء ، فدخل الجنود المدينة .

وبعد أن تم للفرنسيين احتلال المنزلة سقطت المطرية فى أيديهم واحتلوها ، ثم وصلت اليها السفن الفرنسية من طريق بحيرة المنزلة بعد أن أخلاها أهلها وغادروها على ظهر مراكبهم .

قضى احتلال المنزلة والمطرية على قوة المقاومة التى كانت يديرها حسن طوبار ، فلم يجد أمامه سوى الهجرة إلى غزة ، وبذلك انتهت تلك الحركة الواسعة المدى التى أقلقت بال الفرنسيين زمنا ، وطويت صحيفة مقاومة ذلك المجاهد الذى أزعج قواد الجيش الفرنسى ، وتردد اسمه فى تقاريرهم ورسائلهم ، وورد اسمه غير مرة فى رسائل نابليون كعنوان للمقاومة الأهلية القوية .

هذا ولايزال حسن طوبار يذكره كبار السن إلى الآن فى جهات البحر الصغير والمنزلة ويسمونه « حسن طوبار الكبير الذى حارب الفرنسيس » .

●

الفصل الحادى عشر :

المقاومة فى الوجه القبلى

فر مراد بك من معركة الأهرام منهزما أمام الجيش الفرنسى كما سلف القول ، وكان نابليون يحسب لقوته حسابا كبيرا ، فعهد بعد انتهاء المعركة وقبل أن يدخل القاهرة إلى الجنرال ديزيه Desaix احتلال المنطقة الواقعة جنوبى الجيزة واقامة الاستحكامات والمواقع اتقاء لهجوم مراد بك ، ولكن مراد بك لم يفكر فى الهجوم ، بل اتجه بفلول جيشه إلى الصعيد ليكون بعيدا عن هجمات نابليون ، وقصد إلى الفيوم واستقر عند ناحية البهنسا ، ولحق به المماليك الذين لم يرضوا أن يتبعوا ابراهيم بك فى فراره إلى سوريا .

لم يفكر مراد بك فى مقاومة الجيش الفرنسى مقاومة جدية ، بل معظم ما لقى الفرنسيون فى الصعيد إنما نالهم من الأهلين الذين شدوا أزر المماليك فى مقاومة الجيش الفرنسى ، ولولا هذا التأييد وتلك المؤازرة لما سمع للمماليك صوت ولاانبعث لهم حركة بعد هزيمة إمبابة .

اعتزم نابليون إخضاع الوجه القبلى ، إذ رأى أن بقاء قوة معادية فى الصعيد يهدد سلطة الحكومة المركزية ويكون مركزا للمقاومة الأهلية ويعطل الملاحة فى النيل ويحبس الغلال عن الوجه البحرى فيستهدف سكان القاهرة والدلتا وجنود الحملة للمجاعة ، وقد تعطلت الملاحة فى النيل فعلا فى الشهور الأولى من احتلال القاهرة ، وحبس مراد بك فى الوجه القبلى السفن المحملة غلالا إلى القاهرة ، فاعتزم نابليون احتلال الصعيد ، وقد أراد قبل تجريد جيشه أن يسعى إلى الاتفاق مع مراد بك على أن يترك له حكم مديرية جرجا وما يليها إلى الشلال ويكون تابعا للحكومة الفرنسية .

المقاومة الأهلية

والظاهر ان مراد بك كان معتزا بقوته ، معتقدا أنه باعتصامه فى الوجه القبلى لايستطيع الفرنسيون أن ينالوا منه منالا وبخاصة إذا وثق من

معاضدة الأهلين وتأييدهم ، فرفض شروط الصلح ، أو بعبارة أخرى رفض التسليم ، فعزم نابليون على تجريد جيش للقضاء على قوته من جهة وإخضاع سكان الوجه القبلى من جهة أخرى ، وإذا تتبعت خطوات الجيش الفرنسى فى الحملة على الصعيد وجدت أنه أفلح فى القضاء على قوة مراد بك ، ولكنه أخفق فى الغرض الثانى وهو اخضاع المقاومة الأهلية .

قوة الحملة وطبيعة المقاومة فى الصعيد

جعل نابليون الجنرال ديزيه قائدا للحملة على الوجه القبلى ، وكانت الحملة مؤلفة من نحو خمسة آلاف من المشاة والفرسان والمدفعية والمهندسين ، مزودين بالأسلحة والذخائر والمدافع الحديثة والسفن الحربية ، وقد ظل الجنرال ديزيه مرابطا فى الجيزة يترقب الفرصة للبدء فى الزحف ، فلما بلغ الفيضان حدا مناسبا صدرت له الأوامر بالزحف ، وكانت مهمته عسرة شاقة ، فقد دلت وقائع الوجه القبلى على ان المقاومة التى لقيها الجيش الفرنسى فى انحائه كانت أشد ما أصاب الفرنسيين فى مصر ، لأن طبيعة البلاد فى الصعيد ، وبعد المسافات ، وصعوبة المواصلات ، وأخلاق السكان ، جعلت الجيش الفرنسى يقابل حركات ثورية ذات صبغة حربية منظمة ، قال أحد ضباط الحملة فى هذا الصدد « إن المقاومة التى لقيتها الجنود الفرنسية فى الوجه البحرى كانت فى الغالب ذات صبغة محلية ، ولكن فرقة الجنرال ديزيه هى التى اضطرت أن تواجه حركات حربية حقيقية » .

احتلال بنى سويف

احتلت الحملة بنى سويف يوم ٣١ أغسطس سنة ١٧٩٨ ، وهناك علم الجنرال ديزيه أن مراد بك مرابط فى ناحية البهنسا بين بحر يوسف والجبل وأنه جمع أسطوله فى هذا البحر يحمل زاده ومؤونته وذخيرته .

وكان لابد للوصول إلى موقع مراد بك على بحر يوسف والاستيلاء على أسطوله أن تمضى الحملة فى النيل إلى ديروط ، وهى مأخذ بحر يوسف ، ومن ثم تنحدر فيه إلى أن تلتقى بقوة مراد بك ، فتحركت من بنى سويف يوم ٤ سبتمبر صباحا ووصلت فى مساء يوم ٥ تجاه (أبو جرج) ، وكانت أهم

القاهرة
الجيزة
السويس
خليج السويس
الجيزة
بركة قارون
اطفيح
مطرطارس
الروبيات
الواسطى
سيله
الفيوم
الفيوم
اللاهون
بني سويف
سدمنت
بركة الغرق
بني سويف
البرانقه
ببا
الفقاعى
الفشن
مغاغه
القايات
ابو جرج
بني مزار
البهنسا
المنيا
المنيا
ملوى
أسيوط
ديروط
القوصية
منفلوط
بني عدي
أسيوط

من القاهرة إلى أسيوط
تخطيط ١٧٩٨ - ١٨٠١
x هذه العلامة تدل على المعارك
مقياس الرسم ١ : ٢,٠٠٠,٠٠٠

مدينة فى المديرية بعد بنى سويف .

احتلال البهنسا

وسارت القوة الفرنسية حتى وصلت الى البهنسا الواقعة على بحر يوسف ، وقبل أن تصل اليها شعر مراد بك باقترابها ، فأمر بانسحاب أسطوله إلى أسيوط حتى لايقع فى ايدى الفرنسيين ، وأخلى البهنسا ، فاحتلها الجنرال ديزيه واستولى فيها على عدة مراكب للمماليك لم تستطع اللحاق بالأسطول ، وأخذ ما بها من الذخيرة والغلال ، وعلم أن مراد بك انسحب إلى اللاهون ورابط بها ، وأن أسطول مراد بك سار إلى أسيوط . (أنظر هذه المواقع فى الخريطة ص ٧٣) .

تعقب أسطول المماليك إلى أسيوط

وعزم ديزيه أن يستمر جنوبا حتى أسيوط ليستولى على أسطول مراد بك .
فترك قسما من قوته فى ديروط على مدخل بحر يوسف لاحتلال هذا الموقع ومراقبة الملاحة فى النيل وانتظار الكتيبة التى استولت على مراكب المماليك فى بحر يوسف ، ومضى الى الجنوب ومعه جزء من جيشه فى السفن قاصدا إلى أسيوط .
فوصل اليها يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، ولم يجد أسطول المماليك ولم يوفق الى الاستيلاء عليه ، اذ تمكن قبل وصول ديزيه من الافلات قاصدا جرجا ، ولم ير ديزيه من الصواب أن يمضى فى زحفه ، مخافة أن يبتعد عن بقية جنوده الذين كانوا يرابطون على مدخل بحر يوسف .

رجوع ديزيه إلى الفيوم

عزم ديزيه على أن يرجع إلى ديروط ، فكانت رحلته الاسيوطية عقيمة ، لأنه لم يظفر بأسطول المماليك ولا واجه قوتهم ، وأضاعت عليه هذه الرحلة ثمانية ايام اغتنمها مراد بك ليقوى صفوفه فى الفيوم ، وانحاز إليه عدد كبير من الأهلين وحالفوه على الفرنسيين ، واتخذ هو وحلفاؤه معسكرهم فى اللاهون .

وزحفت الحملة الفرنسية على مواقع المقاومة فى الفيوم .

واقعة سدمنت
٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨

واصلت الحملة سيرها برا يوم ٥ اكتوبر ، فشاهد الجنرال ديزيه عن بعد جيش مراد بك مرابطا فى المرتفعات المشرفة على بحر يوسف ، فأراد أن يهاجمه ، لكن مراد بك تقهقر شمالا ، وتعقبه ديزيه طول النهار ، فلم يستطع اللحاق به اذ كان جنوده قد أنهكهم التعب من سيرهم فى رمال الصحراء .

وفى يوم ٦ أكتوبر بدأ الأهالى والمماليك يناوشون طلائع الجيش الفرنسى ، فأقبل الجيش يهجم عليهم ، ولكنهم انسحبوا ليرابطوا فى مواقع حصينة ، وفى صباح اليوم التالى (٧ أكتوبر) أخذت الحملة تتابع سيرها حتى اقتربت من « سدمنت »[١] ، وهى بلدة صغيرة واقعة غربى بحر يوسف فى الجنوب الغربى للاهون ، وتسمى سدمنت الجبل ، وهناك التقى الجمعان على مقربة من هذا البلد ، ودارت معركة من أشد المعارك هولا ، كادت تسحق فيها قوات ديزيه لولا قوة المدفعية الفرنسية .

كان مراد بك قد جمع قوة كبيرة من أهالى الفيوم فرسانا ومشاة ، وتحصن فى آكام سدمنت ، وكان هو وحلفاؤه المصريون قد أعدوا معدات الهجوم ، وقوى أملهم فى سحق الجيش الفرنسى لقلة عدد جنوده بالنسبة اليهم ولمغامرته فى الصحراء وفى بلاد معادية بعيدا عن قواعدهم الحربية .

كان عدد المصريين والمماليك فى هذه الموقعة يزيد على ضعف الجيش الفرنسى ، وكانوا يحتلون مرتفعات حصينة ، ولكن فرقة ديزيه امتازت بالنظام الحربى وكفاية القيادة وقوة المدفعية ، وكثرة الذخيرة فلما اقتربت الفرقة هجم عليها الأهالى والمماليك منحدرين من المرتفعات التى كانوا يعتصمون بها ، وكان عدد الفرسان من أربعة آلاف إلى خمسة آلاف فارس ، هجموا على قرع الطبول بحماسة عظيمة ، وأحاطوا بجيش الجنرال ديزيه من كل صوب ، وكانوا أكثر عددا وأشد حماسة من الأعداء ، لكن نار المدفعية الفرنسية فتكت بهم فتكا ذريعا وكسرت هجمتهم ، فأعادوا الكرة ثانية وثالثة بمثل الحمية التى هجموا بها أول مرة ، ودامت الموقعة عدة ساعات لاتخمد حماسة المهاجمين ، ولايضعف أملهم فى النصر ، وكان مراد بك قد نصب على أكمة تشرف على ميدان القتال ثمانية مدافع أخذت تطلق النار على

---

(١) انظر موقعهما فى خريطة (من القاهرة إلى أسيوط ص ٧٣) .

الجنود الفرنسية ، فأوقعت بهم خسائر جسيمة ، وكادت تدور الدائرة على الجيش الفرنسي لولا أن أمر ديزيه بالهجوم العام على مصدر الخطر فهجم جنوده على موقع المدافع وانقضوا على رجالها وقتلوا بعضهم وأجلوا البعض الآخر ، وهجمت جموع الأهالي والمماليك مرة أخرى على الجيش الفرنسي وأنزلوا بالفرنسيين خسائر فادحة ، لكنهم اضطروا إلى التقهقر بعد ما أفنت نيران المدافع والبنادق عددا كبيرا منهم ، وتركوا في الميدان أربعة مدافع غنمها الفرنسيون ، وانتهت الواقعة بانتصار الجنرال ديزيه ، وبلغت خسائر الفرنسيين ٣٤٠ قتيلا و١٥٠ جريحا ، وخسائر المصريين أربعمائة شهيد .

سميت هذه المعركة واقعة « سدمنت » وهي تعد في تاريخ الحملة الفرنسية من المعارك المهمة التي كان لها أثر كبير في سير القتال وتطور الأحوال ، وهي تلي واقعة الأهرام في الأهمية ، لأنها قضت على آمال مراد بك في أن ينتصر في معركة منظمة ، وفتحت أمام ديزيه اقليم الفيوم الغني بمزروعاته .

تغير وجه القتال بعد هذه المعركة ، فصارت الحرب مقاومات محلية تتجدد تبعا للأحوال والمفاجآت ، وكان هذا النوع من المقاومة أشد خطرا على الجيش الفرنسي من المعارك المنظمة .

انسحب مراد بك وحلفاؤه غربا ، وأوغلوا في الصحراء حتى استقروا وراء بركة (الغرق) وهي بركة كبيرة واقعة جنوبي الفيوم بغرب ، واحتل ديزيه في اليوم نفسه قرية سدمنت ، وتكبد الفرنسيون متاعب شاقة في هذه المعركة ، وأضناهم السير في الرمال ، وعلى التلال والآكام القائمة بتلك الجهات ، فلم يفكر ديزيه في اللحاق بمراد بك ، وعزم على إراحة جنوده من الأهوال التي كابدوها ، وسار بهم الى اللاهون ، واستقر هناك ينتظر الفرصة ليعاود كرة الهجوم على الأهالي والمماليك .

وعسكر هو وجنوده في اللاهون من ٩ إلى ١٢ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، واستراحوا في خلالها ، وأرسل الجرجي منهم الى القاهرة ، ثم سار قاصدا مدينة الفيوم عاصمة المديرية ، فوصلها يوم رحيله ولم يبق بها إلا بضعة أيام ، ثم أخلاها خوفا على مواصلات جيشه أن تنقطع إذا ابتعد كثيرا عن النيل ، ولأنه علم أن الأهلين والمماليك لما تحققوا وجوده في مدينة الفيوم ، عزموا على الرجوع الى معقلهم الأول في سدمنت على بحر يوسف ، وبذلك يهددون مواصلات الجيش الفرنسي ، فعاد ديزيه الى اللاهون يوم ١٦ أكتوبر ، وأعتزم أن يعاود تعقب المماليك والأهالي ، لكنه وجد صعوبة كبرى في تعقبهم لأن ماء الفيضان كان في ذلك الحين يغمر البلاد فيحول دون تقدم

الجيش واتصاله بالقرى ، وكانت المؤن والزاد قد نقصت ، وفتكت الأمراض بالجنود ولاسيما الرمد .

الموقف الحربى فى بنى سويف والفيوم والمنيا

لم يكن انتصار الفرنسيين فى واقعة سدمنت ليوطد مركزهم فى الوجه القبلى ، وبالرغم من أن الجيش الفرنسى قد فتح فى طريه ثلاث مديريات ، وهى بنى سويف والمنيا والفيوم ، وهزم مراد بك هزيمة كبرى ، فان الحالة ظلت مضطربة فى تلك المديريات ، وسلطة الفرنسيين تكاد تكون مجهولة عند الأهالى ، ولم يستطع الفرنسيون لاضطراب الأحوال أن يحصلوا من تلك المديريات على مايلزمهم من الغلال والجياد .

وبالرغم من احتلال الفرنسيين لمدينة الفيوم فان الثورات قامت فى القرى المجاورة لها ، وقد هاجم الثوار مدينة الفيوم فردّتهم القوة الفرنسية .

وطلب الجنرال ديزيه من نابليون أن يوافيه بالمدد ليستأنف الحملة فى الوجه القبلى ، فلما جاءه المدد استأنفت الحملة زحفها من بنى سويف .

سير الحملة من بنى سويف إلى جرجا

تحركت الحملة الفرنسية من بنى سويف برا على الشاطىء الأيسر للنيل ، واتخذت المراكب سبيلها فى النهر حذاء الحملة تحمل الأقوات والذخائر والمهمات .

وقد كان توغل الجنود فى الوجه القبلى محفوفا بالمتاعب والأخطار ، لأن الجيش كلما سار جنوبا ابتعد عن القاهرة التى كانت مركز القوة الفرنسية وتغلغل فى بلاد مجهولة منه وبين أقوام يكرهونه ويتربصون به ريب المنون .

قال أحد قواد هذه الحملة فى مذكراته : « إننا نستهدف لأخطار كثيرة كلما أوغلنا فى بلاد يحمل جميع أهلها السلاح » .

سارت الحملة من بنى سويف يوم ١٦ ديسمبر سنة ١٧٩٨ ووصلت ليلا إلى (البرانقة) على البر الغربي للنيل .

وفى الصباح استأنفت السير فبلغت (ببا) وسارت منها قاصدة (الفشن) وقبل ان تصل إليها استراجت لتنتظر قدوم المدفعية ، وكانت

طلائع الفرقة ترابط على مقربة من قرية الفقاعى[٢] .

فدائى من (الفقاعى)

وقد حدث بقرب (الفقاعى) حادث دهش له الجنرال « ديزيه » وكبار الضباط الفرنسيين ، ذلك أنه بينما كان الجنود ينتظرون وصول بقية الجيش تقدم فدائى من شبان القرية وتغفل بعض جنود الفرسان الفرنسيين ، فاستولى على بنادقهم وكان يقصد توزيع هذه البنادق على الفدائيين من زملائه القرويين ليقاوموا الغزاة المستعمرين ، فرآه جندى آخر وتعقبه وهو يعدو حاملا بندقية ، إلى أن أدركه وضربه بالسيف على ذراعه ، وساقه جريحا إلى الجنرال ديزيه للاقتصاص منه ، فعقد الجنرال « ديزيه » فى ظلال النخيل مجلسا عسكريا للتحقيق مع الفدائى الشاب ومحاكمته ، وسأله الجنرال عما دعاه إلى ارتكاب هذا العمل ، فأجاب رابط الجأش ناظرا الى السماء : إن الله القادر على كل شىء قد أمره بذلك ، فسأله الجنرال عمن حرضه على فعلته ، فقال لم يحرضنى أحد وإنما ألهمنى الله أن أفعل مافعلت ، ثم رفع رأسه ونظر إليه وقال له فى هدوء وثبات : دونك رأسى فاقطعوه ، فدهش الجنرال لشجاعته ، واكتفى بأن يجلد بالسوط ثلاثين جلدة ، فجلد الغلام لايتأوه ولايتململ حتى استوفى الثلاثين سوطا ، ولم تكن سنه تتجاوز الثانية عشر ، وقد قص الجنرال « بليار » أحد قواد الحملة حكايته فى يومياته قائلا : « إن هذا الغلام اذا عنى بتربيته كان ذا شخصية نادرة المثال » . وروى المسيو « فيفان دينون » أحد أعضاء بعثة العلوم والفنون التى صحبت نابليون فى مصر حكاية هذا الفدائى فى رحلته ، وهى تتفق فى جوهرها مع رواية الجنرال بليار وإن اختلفت فى بعض التفاصيل ، غير أنه قال إن الجنرال ديزيه عفا عن الغلام ولم يأمر بعقابه ، ورواية الجنرال بليار فى يومياته أدعى إلى الثقة لأنها قاصرة على سرد الواقعة وخالية من عبارات التصور والتخيل التى وردت فى رواية المسيو دينون ، وقد رسم هذه الحادثة فى كتابه عن الحملة .

إستمرار زحف الحملة

وصل الجيش الفرنسى إلى (الفشن) يوم ١٧ ديسمبر ، ثم ابتعد عن النيل وقصد شاطىء بحر يوسف يتعقب المماليك وحلفاءهم الأهلين ، لكن

(٢) من بلاد مركز ببا بالبر الغربى للنيل (انظر الخريطة ص ٧٣) .



فدائى من الفقاعى ـ وترى الجنرال ديزيه جالسا تحت الشجرة ستجوب الفدائى والفدائى يجيبه بشجاعة ورباطة جاش .

مراد بك استطاع أن يتراجع قبل أن يدركه الجيش الفرنسى ، وظل الجيش يتعقبه ثلاثة ايام يتنقل من قرية الى قرية دون أن يفوز منه بطائل ، فعاد إلى شاطىء النيل ووصل إلىَ المنيا يوم ٢٠ ديسمبر ، وكان المماليك قد غادروها قبل قدومهم ببضع ساعات تاركين بها سفنهم وكانت واحدة منها مسلحة بثلاثة من المدافع ، والمراكب الأخرى بها بعض المدافع القديمة وبعض الأقوات والذخائر ، فغنمها الفرنسيون .

ثم سار الجيش من المنيا مبتعدا قليلا عن النيل فمر ببنى أحمد ، فريدة ، فكوم الزهير ، ثم عرج على النيل ووصل الى (ساقية موسى) ثم الى (ملوى) وكانت كما هى الان من أهم مدن الوجه القبلى ، وصفها الجنرال بليار فى يومياته بأنها مدينة كبيرة وأنها أجمل ما رآه من المدن فى رحلته ، ذات شوارع واسعة مستقيمة وبيوت منتظمة ، وقد وجد الفرنسيون فيها ثمانية مدافع كان الأهالى يقذفون منها الجلل على المراكب الفرنسية حيث شرعوا فى تحصين المدينة واقامة سور لحمايتها ، فاستولى الفرنسيون على تلك المدافع ، واستمر الجيش فى زحفه فمر بطوخ ، فتانوف ، فديروط ، فالقوصية .

احتلال أسيوط

وفى صباح يوم ٢٤ ديسمبر قام الجيش الفرنسى من القوصية قاصدا أسيوط فاحتلها يوم ٢٥ ديسمبر سنة ١٧٩٨ .

انسحب مراد بك من أسيوط بعد أن أغرق المجاهدون سفينة مسلحة من أسطولهم وتركوا ست سفن أعجلهم عنها ماكانوا فيه فلم يأخذوها ولم يغرقوها ، فاستولى الفرنسيون عليها وعلى ما فيها من الأقوات والذخائر ، ثم سار الجيش من أسيوط يوم ٢٦ ديسمبر وانقسم إلى فرقتين : فرقة أخذت طريق سفح الجبل ، والفرقة الأخرى المؤلفة من الفرسان أوغلت فى السهل ثم التقتا فى (الغنايم) فاحتلتها ونهبها الجنود .

احتلال جرجا

غادر الجيش (الغنايم) ووصل فى زحفه الى (فزارة) وعسكر فى غابة على مقربة منها ، وفى يوم ٢٨ ديسمبر وصل الى (بلصفورة) وفى يوم ٢٩ غادرها وحاذى النيل عند (المنشأة) ثم مر بالخارقة ، فالنويرات ، فطوخ

العسيرات ، فأولاد حمزة ، إلى أن وصل إلى جرجا فى اليوم نفسه ، فعسكر حول المدينة ، وكان أسطول مراد بك قد غادرها قبل أن يصل الفرنسيون .

وهكذا قطع جيش الجنرال ديزيه المسافة من بنى سويف إلى جرجا فى ثلاثة عشر يوما (من ١٦ إلى ٢٩ ديسمبر سنة ١٧٩٨) كان فى خلالها يطارد جيش مراد بك من بلد الى بلد دون أن ينال منه منالا .

حطّ الجيش الفرنسى أثقاله بجرجا ليستريح الجنود من عناء تلك الرحلة التى أنهكت قواهم ، ولينتظر وصول المراكب التى بها ذخائره ومهماته ومؤونته ، وقد تعطل سيرها وتأخرت عن متابعة الجيش لهبوط المياه ، واختلاف الريح ، ومرض كثير من الجنود ، وامر الجنرال ديزيه بترحيل من لايرجى شفاؤهم الى القاهرة لكيلا يكونوا عالة على الجيش .

ورأى ديزيه الا يغامر بجيشه فيما وراء جرجا ، لأنه أصبح بعيدا عن القاهرة ووجد فى جرجا مدينة كبيرة فى وسط مديرية خصبة تصلح لتموين الجيش ، فرأى من الحكمة أن يستقر بها حتى يصل أسطوله ويتأهب لاستئناف الايغال فى الصعيد .

الثورة فيما بين أسيوط وجرجا

كان الجنرال ديزيه يتوقع قدوم اسطوله إلى جرجا بعد أيام معدودات ، ولكنه تأخر فى الوصول ، فأضطر أن يبقى بها ثلاثة أسابيع دون أن يزحف أو يعمل عملا ، وكان تأخره مدعاة لتنظيم قوة المقاومة فى البلاد التى لم يفتحها ، وسريان روح الثورة فى المدن التى فتحها ، فصارت البلاد فيما بين أسيوط وجرجا شعلة من الهياج والثورة .

شبت الثورة فى نحو أربعين بلدا ، وانضوى إلى علمها نحو سبعة آلاف من الأهلين ، فانتهز مراد بك هذه الفرصة ليلم شعثه ويضم إليه الأعوان والأنصار من أهل البلاد .

واجه الفرنسيون فى الصعيد فيما بين جرجا وأسيوط ثورة واسعة النطاق ، بعيدة المدى ، ولكنهم عاجلوها قبل ان تجتمع قواها وتتحد عناصرها ، وغلبوا قواتها المبعثرة ، معتمدين على نظامهم الحربى ومدافعهم القوية وبنادقهم الحديثة ، فكانت المعارك التى نشبت بينهم وبين الأهالى أشبه بمذابح فتكت فيها نيران المدافع والبنادق بحشود من الأهلين محرومين من النظام الحربى غير مزودين الا بأسلحة قديمة .

معركة سوهاج
٣ يناير سنة ١٧٩٩

كلف ديزيه فرقة الفرسان قمع هذه الثورة ، فقامت الفرقة من جرجا ووصلت الى سوهاج يوم ٣ يناير سنة ١٧٩٩ حيث كانت تحتشد قوة من الثائرين قدرهم قائد الفرقة بأربعة آلاف من الأهلين مسلحين بالبنادق والحراب ، يشد أزرهم سبعمائة من الفرسان ، ونشب القتال بين الفريقين ، ولكن الأهالى على كثرة عددهم لم يكونوا معتادين خوض المعارك الحديثة ، فأصلتهم فرقة الفرسان نارا حامية تراجعوا أمامها تاركين ثمانمائة من القتلى كما يقدرهم الجنرال ديزيه .

كانت هذه الواقعة كارثة أصابت الأهلين ، وكان متوقعا أن تقضى إلى إرهاب البلاد الأخرى ، وإخماد الثورة فيها ، لكنها على العكس لم تكسر شوكة الثائرين ، ولم تثنهم عن عزمهم ، واحتشدت جموعهم المسلحة على مقربة من أسيوط قادمين رجالا وركبانا من مديريات المنيا وبنى سويف والفيوم ، فكلف ديزيه فرقة الفرسان التوجه لمهاجمة هذه الجموع وليطمئن على الأسطول الفرنسى الذى انقطعت اخباره وتأخر وصوله إلى جرجا ، وكان مركز هذا الأسطول محفوفا بالمخاطر لأنه كان يتسحب فى النيل بين بلاد ثائرة وجموع هائجة .

معركة طهطا
٨ يناير سنة ١٧٩٩

سارت فرقة الفرسان ووصلت تجاه طهطا يوم ٨ يناير سنة ١٧٩٩ ، وكان بها عدد من الأهلين يبلغون نحو ثمانمائة فارس يقصدون مهاجمة الفرنسيين ، فاقترب الجيش الفرنسى يتحداهم للقتال ، فتقهقروا ، فترجل الجنود الفرنسيون تجاه طهطا واستراحوا ساعتين ثم استأنفوا سيرهم ، فتبعهم فرسان الأهالى عن بعد ، وأخذت جموع الثوار تخرج من القرى مشاة وركبانا وتنضم اليهم فازداد عددهم حتى بلغ عدد الفرسان منهم ألفى فارس ، وهجم الثوار على مؤخرة الجيش الفرنسى ، فأمر قائد الجيش باطلاق النار عليهم ، ففتكت بهم فتكا ذريعا ، وخسر الأهالى عددا كبيرا من القتلى قدرهم أحد ضباط الفرقة ١٥٠ قتيلا من الفرسان وثمانمائة من المشاة ،

من أسيوط إلى أسوان

تخطيط ١٧٩٨ - ١٨٠١

x هذه العلامة تدل على المعارك

اسيوط
طهطا
الصوامعه
جهينه
سوهاج
جرجا
برديس
سمهود
فرشوط
نجع حمادي
هو
ابومناع
دشنا
الوقف
دندره
قنا
ابنود
بئر عنبر
قفط
البارود
قوص
المقربيه
حجازه
البجلة
طيبه
الاقصر
ارمنت
الرزيقات
اسنا
ادفو
الرديسيه
دراو
اسوان
الشلال
جزيرة فيله (انس الوجود)

مقياس الرسم ١ : ٢,٠٠٠,٠٠٠

وانسحبوا من ميدان القتال ، وانتقم الفرنسيون انتقاما فظيعا من القرى التى اطلقت عليهم النار فقتلوا من اهلها خمسمائة رجل واحرقوها .

معركة سمهود
٢٢ يناير سنة ١٧٩٩

زادت قوة مراد بك بانضمام الأهالى الثائرين إليه وقدوم عرب جدة وينبع الذين أتوا من سواحل البحر الأحمر لنجدته .

كان مع مراد بك من المقاتلة ١٥٠٠ من المماليك والباقون من الأهالى الذين انضموا اليه من جميع البلاد ، ويقدر نابليون عددهم فى مذكراته بسبعة الاف من الفرسان المصريين وثلاثة الاف من المشاة ، وألفين من عرب ينبع وجدة ، فجيش مراد بك كان اذا مؤلفا من نحو ١٢,٠٠٠ مقاتل ، وهى قوة لايستهان بها لو كان لها قيادة صالحة مدبرة .

علم ديزيه أن هذه القوة مرابطة فى سمهود(٢) الواقعة على ترعة بهجورة ، فانتقل اليها بجيشه ، وكان عدده نحو خمسة آلاف مزودين بالمدافع والبنادق الحديثة ، وهناك التقى بجيش مراد بك فى صبيحة يوم ٢٢ يناير سنة ١٧٩٩ ، ونشبت معركة حامية الوطيس بين الفريقين استعد لها الجنرال ديزيه استعدادا عظيما . ليضمن لجيشه الفوز فيها ، فرتب جيشه فى مربعات تحميه المدافع من زواياها .

بهذا الترتيب قابل الجيش الفرنسى قوات مراد بك التى كانت أكثر عددا ، ولكن ينقصها النظام والمدفعية ومقدرة القيادة ، فلا غرو أن انتهت الواقعة بهزيمة مراد بك وانسحابه بفلول جيشه جنوبا قاصدا فرشوط .

وصول الحملة الفرنسية إلى
أسوان أول فبراير سنة ١٧٩٩

لاتقل واقعة سمهود شأنا عن معركة سدمنت ومعركة الأهرام فى كونها اكسبت الجيش الفرنسى النصر فى ميدان القتال وفتحت أمامه الطريق لاحتلال البلاد ، فاستطاع بعد هذه المعركة أن يستأنف زحفه جنوبا ، وأخذ يطارد جيش المقاومة حتى وصل الى فرشوط ، وهناك اضطر إلى الوقوف قليلا حتى يستريح الجنود الذين أجهدهم السير ، ثم غادر (فرشوط) متابعا

---

(٢) بلدة بمركز فرشوط بمديرية قنا واقعة بقرب الجبل الغربى (انظر الخريطة ص ٨٣) .

سيره حتى وصل الى (هو) ثم (الوقف) ، وبلغ (دندره) فى ٢٤ يناير ، ومر قريبا من أطلالها .

وشاهد ضباط الحملة أثار دندره القديمة ، فبهرتهم عظمتها ، ووقفوا مبهوتين أمام جمالها وجلالها .

واصلت الفرقة سيرها مارة بالقرى الواقعة على البر الغربى للنيل ، فلم تلق بها مقاومة ، وعسكرت من ٢٥ إلى ٢٦ يناير فى (دنفيق) ، ثم وصلت إلى (طيبة) ذات الآثار الخالدة ، التى أشاد بذكرها هومير وهيرودوت ، وحدث عن جلالها سترابون Strabon وديودور الصقلى ، وتغنى بعظمتها الشعراء والمؤرخون ، على تعاقب الاجيال والعصور ، فشاهد ديزيه وأركان حربه آثار الفراعنة ومقابر الملوك الماثلة فيها دلائل عزهم وعظمتهم ، والنيل ينساب وسط تلك الآثار الناطقة بما كان لبلادنا فى الزمن السالف من مدنية عظيمة ، ومجد أثيل .

غادر الجيش طيبة ، وأسرع يتعقب المماليك ، فوصل إلى (أرمنت) يوم ٢٦ يناير ، وغادرها فى اليوم التالى محاذيا النيل ووصل يوم ٢٧ يناير الى إسنا ، وكان مراد بك قد غادرها قبل وصول الجيش الفرنسى فترك فيها ديزيه كتيبة من الجنود لاخضاع البلاد وسار جنوبا حتى وصل الى (ادفو) يوم ٢٩ يناير ثم وصل يوم أول فبراير تجاه أسوان ، فاجتاز الفرنسيون النيل ووصلوا الى البر الشرقى حيث توجد أسوان فاحتلوها ، واستولوا فيها على مراكب المماليك ، وبذلك تم للجيش الفرنسى احتلال الصعيد بأكمله .

لكن فلول جيش المقاومة أفلتت من تطويق الجيش وانسحبت إلى ماوراء الشلال ، وعسكرت طلائعه على مسيرة أربعة فراسخ من أسوان ، فكان وجودهم من بواعث قلق الفرنسيين على سلطانهم فى الوجه القبلى ، فاعتزم الفرنسيون مطاردتهم فى بلاد النوبة واقامة الحصون فى اسوان .

لم يطل ديزيه مكثه فى أسوان أكثر من يومين ، ثم غادرها تاركا بها الجنرال بليار ووصل إلى إسنا يوم ٩ فبراير ، وعزم على اتخاذها مؤقتا معسكرا لجيشه ليرقب حالة الوجه القبلى .

على أن طلائع المماليك أخذت تناوش المخافر الفرنسية على مقربة من أسوان ، فذهب بليار لمطاردتهم مع كتيبة من جنوده ، وتعقبهم حتى انسحبوا جنوب (دهميت) وأوغلوا ثانية فى بلاد النوبة ، ورأى الجنرال بليار أن يحول دون رجوعهم بتخريب تلك المنطقة لكيلا يستطيع المماليك أن يقيموا بها ويتخذوها مركزا لمناوشة الفرنسيين ، فاقتلع مزروعاتها ونهب مافيها من الماشية ، واعتزم ايضا احتلال جزيرة (أنس الوجود) والجزر الواقعة فى

شلال أسوان ليأمن على سلامة الجيش الفرنسى .

المقاومة فى جزيرة فيله

فى ٦ فبراير سنة ١٧٩٩ قصد بليار الى جزيرة فيله (أنس الوجود) فى كتيبة من مائتى جندى ، فرست عند الشلال وسارت على الشاطىء الأيمن للنيل ، ولما صارت تجاه جزيرة « فيله » أراد الفرنسيون أن يعبروا النيل اليها على مراكب الأهالى ، فلم يقبل أحد منهم أن يسلم فى مركبه ، وعاد بليار أدراجه إلى أسوان ، وبعد بضعة أيام استأنف تحقيق عزمه ، فلقى مقاومة شديدة من النوبيين فى جزيرة فيله (أنس الوجود) وجزيرة (الحساه) ، قال الجنرال بليار فى يومياته يصف هذه المقاومة :

« حمل الأهالى أسلحتهم وصاحوا صيحات القتال ، ورأينا النساء ينشدون أناشيد الحرب والهيجاء ويحثون التراب فى وجوهنا ، أما الرجال فأطلقوا الرصاص على رجالنا الذين ركبوا البحر ، وكنت قد أحضرت معى مدفعا لاخضاعهم ، فدعوتهم الى الصلح والسلام ، فكان جوابهم أنهم لايقبلون منا كلاما وأنهم لايفرون من أمامنا كما يفر المماليك ، واستأنفوا إطلاق الرصاص ، فجرح ثلاثة من رجالنا ، ولم يكن لدينا مراكب نصل بها الى الجزيرة ، وحاولنا ان نتخذ من جذوع النخل طوفا ينقل الجنود ولكن المياه غمرته ، فاضطررنا أن نرجىء احتلال الجزيرة وبقيت الجنود ترابط يوم ١٩ فبراير على شاطىء النيل تجاه الجزيرة ، واستجلبت من أسوان بعض ألواح الخشب للعبور عليها .

« وفى اليوم التالى وصلنا الى الجزيرة ، فاطلق علينا الفلاحون الرصاص ولكن لم يصب أحد من الجنود ثم فروا تاركين مواشيهم ومؤونتهم واحتللنا الجزيرة .

« وفى يوم ٢١ فبراير احتللنا الجزر الأخرى المجاورة لجزيرة فيلة والتى اشترك أهلها فى الثورة ، ثم عاد الجنود وبقيت فصيلة منهم لتستولى على مؤونة الأهالى من التمر ، وكانت نتيجة هذين اليومين أن قتل من الأهالى ثلاثون رجلا واستولينا على ٢٠٠ بندقية و٢٠٠ طبنجة وسيف ، وشىء كثير من التمر واللحم والمؤونة » .

تم للفرنسيين احتلال الجزر الواقعة فى أسوان واطمأنوا على حدود مصر ، وأخذ الجنرال بليار يحصن أسوان وعزم على اقامة قلعة فيها .

معركة الردسية
١١ فبراير سنة ١٧٩٩

عبر الجنرال دافو النيل وسار بالبر الشرقى قاصدا مهاجمة جموع الأهالى والمماليك . فالتقى بهم يوم ١١ فبراير بالردسية[٤] ، واصطدم الفريقان

(٤) بلدة واقعة بالبر الشرقى للنيل جنوبى لدفو على البر الغربى (انظر الخريطة ص ٨٣) .

وكلاهما من الفرسان فى معركة شديدة دامت ثلاث ساعات اشتبك فيها المقاتلون وجها لوجه ، فكانت هذه المعركة قريبة الشبه بمعركة الصالحية ، استعمل فيها السلاح الأبيض ، فخسر الفرنسيون خسارة جسيمة وبلغ عدد قتلاهم ٣٧ قتيلا وبلغ عدد جرحاهم ٤٤ ، وكانت خسائر المماليك والأهالى لاتقل عن خسارة الفرنسيين ، وانتهت المعركة بانسحاب الأهلين والمماليك الى الصحراء فى طريق القصير واستطاعوا أن ينقذوا مؤونتهم من الوقوع فى قبضة الفرنسيين ، فلم يكن الفوز لأحد الفريقين على الآخر ، وبقيت قوة الأهلين والمماليك سليمة تترقب الفرصة لمعاودة الكرة .

معركة قنا
١٢ فبراير سنة ١٧٩٩

أما فى جهة قنا فقد سارت اليها كتيبة من الجنود قاصدة الامتناع بها ، لأن موقعها على جانب عظيم من الاهمية ، واليها يفضى الوادى المعروف بوادى القصير ، وهى ممر القوافل الذاهبة من القطر المصرى الى الحجاز او التى ترد منه عن طريق القصير ، وقد سبقتها اليها طلائع الجنود وعددهم نحو خمسمائة مقاتل ، ولم يكد يعلم الثوار باحتلال الفرنسيين لها حتى هجموا عليها قبيل منتصف ليلة ١٣ فبراير ، ولكن الفرنسيين ردوا هجومهم على المدينة وأوقعوا بهم خسارة جسيمة .

وصلت الكتيبة الفرنسية بعد انتهاء المعركة ، فأقامت المخافر حول المدينة وعلى مداخل الطرق الموصلة الى النيل لمنع الثوار من استئناف هجومهم .

معركة (أبو مناع)
١٧ فبراير سنة ١٧٩٩

ولم تثنهم هزيمة ١٢ ـ ١٣ فبراير عن عزمهم على مواصلة القتال ، فسار اليهم الفرنسيون فأدركوهم فى قرية (أبو مناع)[٥] وهناك دارت معركة اخرى تغلبت فيها المدفعية على البنادق والاسلحة القديمة التى كان يستعملها الثوار ، فقتل عدد كبير منهم ، واستولى الفرنسيون على (أبو مناع) وأضرموا النار فيها وفى القرى المجاورة لها ونهبوها .

---

(٥) شمال دشنا بغرب بالقرب من الجبل الشرقى تبعد عن النيل مسيرة ساعة ونصف (انظر الخريطة ص ٨٣) .

- معركة إسنا
٢٥ فبراير سنة ١٧٩٩

وفى غضون ذلك أخذ مراد بك يتأهب للحملة على مواقع الفرنسيين على النيل ، ففى ٢٥ فبراير سنة ١٧٩٩ اقبل ومعه قوة من سبعمائة من الفرسان وعدد حاشد من النوبيين قاصدين مهاجمة الحامية الفرنسية فى إسنا ، فاشتبك الفريقان فى معركة دامت ساعة من الزمن وانتهت بتقهقر مراد بك ورجاله إلى (أرمنت) .

●

الفصل الثانى عشر :

استمرار المقاومة
فى الوجه القبلى

لم يتم للفرنسيين اخضاع الوجه القبلى على الرغم من انتصاراتهم العسكرية واحتلالهم معظم بلدانه . بل ظل مركزهم مضطربا ونفوذهم مزعزعا ، وتحرج موقفهم من الوجهة الحربية ، لأنهم بعد أن أحتلوا مدن الصعيد أصبح جيشهم مبعثرا على طول النيل ولم يكن سلطانهم يتعدى المدن التى لهم بها حاميات ، ولم يكن من السهل على الجيش الفرنسى إخضاع بلاد متباعدة تفصلها المسافات المترامية كبلاد الوجه القبلى .

كانت روح المقاومة تسود سكان القرى والمدن ، فلم يكن الأهلون يدعون فرصة تمر دون ان يثوروا فى وجه السلطة الفرنسية . وكانوا من هذه الوجهة متصلين بالبقية الباقية من جيش المماليك تعاونهم طوائف العرب القادمين من القصير ، فاجتمعت هذه القوى الثلاث واتحدت على مهاجمة الحاميات الفرنسية فى المدن وقطع مواصلات الجيش الفرنسى فى النيل بمهاجمة السفن التى تحمل الجنود والذخائر والأقوات ، ولذلك تحرج مركز الجيش الفرنسى وتعددت المناوشات والمعارك والمفاجآت ، وبكل ذلك لم يستقر له قرار فى تلك الجهات .

كان الجنرال ديزيه مقيما فى اسنا التى اتخذها معسكره العام وظل بها يرقب الحال ويتتبع حركات الاضطرابات فى الصعيد ، ثم غادرها قاصدا الى (قوص) ، وقد شعر بحرج الموقف وأفضى الى نابليون بالمصاعب التى تكتنفه وطلب منه المدد ليتمكن من اخضاع الوجه القبلى ، ولكن نابليون كان مشغولا بالحملة على سوريا فأخذ معه ما استطاع أخذه من القوات والذخائر ولم يرسل لديزيه الا النزر اليسير منها ، فاضطر ديزيه أن يكتفى بقواته لاستمرار الحملة على الوجه القبلى ومواجهة الاضطرابات فيها ، ولم يجد ما يسد به النقص الذى وقع فى صفوفه من المعارك والأمراض .

موقف المماليك

بقى الجنرال ديزيه عدة أيام فى قوص يرسم الخطط التى تقتضيها ضرورات الموقف العسكرى ، وترك لقواده حرية العمل كل فى جهته لمواجهة الهجمات التى استهدفت لها جبهة القتال الطويلة ، ثم اعتزم ان يواصل سيره شمالا قاصدا الى جهات جرجا وأسيوط ليقمع الثورات التى ظهرت فيها ، وكان يعتقد أنه سيواجه قوات كبيرة من مماليك مراد بك ومحمد بك الألفى ، على أن المماليك كعادتهم لم يستهدفوا لمواجهة الجيش الفرنسى ، وتركوا عبء القتال على عائق الأهلين ، فقد بقى مراد بك فى الواحة بعيدا عن ضربات ديزيه وجنوده ، وانسحب محمد بك الألفى الى أخميم ولحق به عثمان بك حسن ، وأخذ المماليك من أتباعهم يبحثون عن ملجأ لهم فى القرى والمدن ، وباع كثير منهم سلاحهم للأهالى ، وعرض بعضهم نفسه على الفرنسيين ليضموهم اليهم ، وقد ذكرت المراجع الفرنسية حوادث معينة لهذا التحول ، منها أن أحد مماليك عثمان بك حسن طلب من ضباط الجيش الفرنسى أن يأخذوه اليهم ، وحجته انه قبل أن يكون مملوكا كان مجريا (من سكان المجر) ومن فرسان الجيش النمسوى فأسره الأتراك فى بعض حروبهم مع النمسا وصار بعد ذلك مملوكا ، فقبل الفرنسيون خدمته وانضم الى صفوفهم ، ودخل آخرون فى الجيش الفرنسى زاعمين انهم كانوا جنودا فى الجيش النمسوى وأسرهم الأتراك وأرسلوا الى الاستانة ثم نقلوا الى مصر وصاروا فى عداد المماليك ، وقد قبلهم الفرنسيون فى صفوفهم وصاروا من رجالهم الأمناء ! ! ويدخل فى هذا السياق أن نابليون جند فى صفوف الجيش الفرنسى جميع المماليك الفتيان الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة والسادسة عشرة ، وألحقهم بالجيش ليتدربوا على القتال فى صفوفه ..

فمقاومة المماليك قد تلاشت اذن أمام الجيش الفرنسى ، وتنفس الفرنسيون الصعداء للقضاء على خصم كان يخلق لهم المتاعب ، على أن مقاومة الأهلين كانت أشد وأنكى وأعظم أثرا فى اضعاف مركز الفرنسيين فى الوجه القبلى .

تحرك ديزيه من قوص يوم ٢ مارس سنة ١٧٩٩ وانتقل الى الشاطىء الايسر للنيل قاصدا أسيوط ، وضم الى جيشه فى الطريق الوحدات التى كانت موزعة على طول النهر وترك وراءه اسطول السفن الفرنسية تتبعه عن بعد ، وتسير مبطئة لاختلاف الريح .

وناط الجنرال ديزيه قبل سيره من قوص بالجنرال بليار مهمة اخضاع

مصر العليا من قنا الى اسوان ، وطلب منه ابقاء خمسمائة جندى فى اسنا واتخاذها مركزا عسكريا حصينا لمراقبة البلاد شمالا وجنوبا ، وتوزيع الوحدات المتحركة على البلاد الواقعة على النيل ، وكلفه التقدم الى قنا وجعلها مركزا حصينا لمراقبة طريق القصير وطريق النيل .

معركة الصوامعة
٥ مارس سنة ١٧٩٩

علم ديزيه فى طريقه إلى أسيوط أن الأهالى ثاروا بقيادة مشايخ البلاد بالقرب من طهطا ، فعهد إلى أحد قواده مهاجمة الثائرين ، فالتقى بهم فى الصوامعة[1] يوم ٥ مارس ، وألفى نار الثورة مشتعلة بها ووجد نحو ثلاثة آلاف من الفلاحين يحتلونها ، فهجم على المدينة بجنوده واحتلها ، ودفع الثوار إلى النيل فقتل منهم عدد كبير قدرهم الجنرال ديزيه بألف قتيل وغريق .

وصل ديزيه إلى أسيوط يوم ٨ مارس بعد أن وزع قواته على طول النيل فى إسنا وقنا وفرشوط وجرجا وطهطا وأسيوط ، فاتخذ من هذه المدن مراكز للحاميات الفرنسية ، ورتب وحدات متحركة تجوب البلاد الواقعة بينها لاخضاعها وقمع حركات الثورة التى تبدو فيها .

كارثة السفن الفرنسية فى النيل
(٣ مارس سنة ١٧٩٩)

سبق الجنرال ديزيه عند سفره من قوص أسطوله الذى كان يسير ببطء فى النيل ليلحق بالجيش فى أسيوط ، وبعدت الشقة بينهما ، فانتهز الأهالى هذه الفرصة لمهاجمة الأسطول وكان عدده نحو ١٢ سفينة حربية تقل ذخائر الجيش ومؤونته ، تتقدمها السفينة الحربية « إيتاليا » .

هاجم الأهالى هذه السفن يوم ٣ مارس سنة ١٧٩٩ على مقربة من قرية « البارود »[2] وأطلقوا عليها الرصاص ، فأجابت السفينة الحربية « إيتاليا » على هجمات الأهالى باطلاق المدافع فقتلت منهم عددا كثيرا ، لكن الأهالى ومعهم العرب القادمون من القصير تجمعوا وازداد عددهم ونزلوا النيل سباحة وهجموا على السفن فاستولوا عليها عنوة وأفرغوا شحنتها من الذخائر على شاطىء النيل ، ثم ركبوها وقصدوا إلى السفينة الحربية

---

(١) الصوامعة جنوبى طهطا وهى واردة بهذا الاسم فى تقرير الجنرال ديزيه عن معارك الوجه القبلى .

(٢) على الشاطىء الشرقى للنيل جنوبى قنا بالقرب من قوص وتسمى "نجع البارود" .

« إيتاليا » للاستيلاء عليها ، وكان يقودها القومندان موراندى Morandi ، فضاعف إطلاق الرصاص على المهاجمين ، ولكنه رأى رجال مدفعيته قد أثخنتهم الجراح على ظهر السفينة ورأى من جهة أخرى جموع الأهالى من الشاطىء الأيسر يتحفزون للهجوم عليه ، ففكر فى الانسحاب ، ولكن الريح عاكسته فجنحت سفينته ، وإذ ذاك هرع اليها الأهالى من كل صوب وحدب وصعدوا على ظهرها ، فتحقق موراندى الخطر المحدق به ، ولكنه أبى التسليم ، فأشعل النار فى مستودع البارود وألقى هو ورجاله بأنفسهم فى اليم قاصدين النجاة ،وانفجر مستودع البارود فنسف السفينة نسفا وتفجرت شظايا القنابل على الشاطىء فقتلت عددا كبيرا من الأهالى ولكن الباقين منهم قاتلوا موراندى ورجاله فى اليم ، فمات مثخنا بجراحه ، وقتل جميع الفرنسيين الذين كانوا على ظهر السفينة « إيتاليا » وعلى ظهر السفن الأخرى ، وكانت خسارة الفرنسيين جسيمة فبلغ عدد قتلاهم من البحارة والجنود خمسمائة قتيل ، وهى أكبر خسارة منى بها الجيش الفرنسى فى الحملة على الوجه القبلى .

معركة قفط
(٨ مارس سنة ١٧٩٩)

قصد الجنرال بليار موقع الأهالى والعرب على مقربة من قفط ، وهناك التقى بجموعهم الذين كانوا يرابطون فى السهل وعددهم نحو ثلاثة آلاف من الأهالى وعرب الحجاز و٣٥٠ إلى ٤٠٠ من المماليك ، والتقى الجمعان فى سهل قفط يوم ٨ مارس سنة ١٧٩٩ ، فكانت معركة حامية الوطيس اشتبك فيها المقاتلون وجها لوجه وانتهت بهزيمة الأهالى والعرب وانسحابهم إلى أبنود .

معركة أبنود
(٨ ـ ٩ ـ ١٠ مارس سنة ١٧٩٩)

واصل الأهالى والعرب انسحابهم وهم يدافعون دفاعا شديدا عن كل قرية وكل مكان ارتدوا إليه ، فلما وصلوا إلى أبنود تحصنوا فيها ونصبوا بها المدافع الفرنسية التى غنموها فى واقعة بارود الليلية ، وأخذوا يطلقون النار منها ففتكت بالفرنسيين فتكا شديدا ، وكانت هذه أول مرة واجه فيها الفرنسيون مدفعية حديثة فى صفوف المصريين ، وقد أدرك الجنرال بليار لفوره أن موقفه أصبح محفوفا بالخطر وأن منشأ الخطر وجود المدافع الفرنسية فى يد المصريين ، فوجه قوة جيشه كلها للاستيلاء على هذه

المدافع ، ونجح فى خطته فاسترجع الفرنسيون مدافعهم وجردوا المصريين من أقوى سلاح كان فى يدهم .

واشتد القتال بين الفريقين وانسحب الأهالى والعرب إلى منازل القرية ، فتجدد القتال فى طرقاتها وبيوتها ، ولم يتمكن الفرنسيون من التغلب عليهم إلا بعد أن أضرموا النار فى منازل القرية كلها ، فأصبحت البلدة شعلة من الجحيم ، وتصاعد اللهب إلى عنان السماء ، واستحالت القرية إلى أكوام من الخرائب ، وبالرغم مما حل بها من الحريق والدمار فقد امتنع الأهالى فى قصر حصين كان فيما مضى مقرا لكشاف المماليك ، وفى مسجد يجاوره ، جمعوا فيه الذخيرة التى غنموها من الفرنسيين ، فاشتد القتال حول هذا المنزل والمسجد المجاور له ، وتبادل الفريقان إطلاق النار إلى أن جن الليل ، وتكبد الفرنسيون خسائر جسيمة فكفوا عن الضرب بعد أن أحرقوا المسجد وأخذوا يحاصرون المنزل طول الليل ويستعدون لاستئناف القتال فى اليوم التالى ، ونصبوا المدافع بحيث تشرف عليه ، أما المماليك فقد لبثوا يشاهدون هذه المجزرة بعيدا لم يأتوا شيئا ، ولم يعملوا عملا ما ، وعسكروا فى الصحراء ، وذلك كان شأنهم فى كل المعارك التى اشتد فيها القتال فكانوا يضنون بأرواحهم ويعرضون الأهالى فداء وضحية .

استؤنف القتال فى اليوم التالى (يوم ٩ مارس) ، فأعاد الفرنسيون ضرب القصر بالمدافع ، وهنا أقبل مدد من الأهالى والمماليك لرفع الحصار عن هذا القصر ، فردهم الفرنسيون على أعقابهم وشددوا الحصار والضرب إلى أن تمكنوا من دخول أحدى ساحاته فأضرموا النار فى بنائه ليكرهوا من فيه على التسليم ، فاشتعلت النار فى غرف القصر وأوشك لهيبها ودخانها أن يخنق المحصورين ، فنزلوا الى ساحته واستمروا يقاتلون الفرنسيين بشجاعة اعترف بها بليار فى رسالته إلى الجنرال ديزيه إلى أن جن الليل ، وكان قد قتل كثير منهم ، وتمكن بعضهم أن ينسلوا تحت الظلام فأفلتوا من الحصار ونجوا بأنفسهم من النار المشتعلة .

وفى صباح اليوم الثالث للمعركة (يوم ١٠ مارس) اقتحم الفرنسيون القصر فوجدوا الباقين به نحو ثلاثين قد أقعدهم الاعياء ونالتهم الجراح ، ومع ما كانوا فيه من الهلاك فانهم استمروا على المقاومة إلى أن قتل الفرنسيون معظمهم .

وبعد انتهاء المعركة تظاهر مماليك عثمان بك حسن بالرغبة فى القتال كذبا ودعوى ، وكانوا أثناء القتال جامدين ، فسار اليهم الجنرال بليار قاصدا مهاجمتهم ، وما أسرع مافروا فى الصحراء ، فتركهم وعاد إلى أبنود .

وجد الفرنسيون فى القصر جانبا من الذخائر التى فقدوها فى معركة بارود النيلية ، وكان الأهالى والعرب قد استنفدا جزءا منها ، وكذلك استرد

الفرنسيون المدافع التى كان الأهالى قد انتزعوها من السفن الفرنسية واستولوا على ست رايات منها اثنتان للحجازيين .

وقدر بليار خسائر الأهالى وحلفائهم الحجازيين بخمسمائة أو ستمائة قتيل وثمانية إلى عشرة من المماليك وكثير من الجرحى ، وقد خسائر الفرنسيين بنحو ٣٥ قتيلا و١٣٤ جريحا ، وكانت هذه المعركة من أشد معارك الحملة الفرنسية هولا وأطولها مدة ، فلقد كانت سلسلة معارك دموية دامت ٧٢ ساعة ، وكان حريق أبنود وما أصابها من الدمار أفظع مأساة وقعت فى معارك الحملة الفرنسية .

وبالرغم من انتصار الفرنسيين فى معركة أبنود فقد انهكهم القتال ونأتهم الخسائر الجسيمة ونفدت ذخائرهم ، وأصبح من المتعذر على الجنرال بليار متابعة القتال لفداحة الخسائر ، ومما زاد موقفه حرجا الروح العدائية التى سادت الأهالى فى تلك الجهات بحيث كان الفرنسيون يشعرون أنهم محوطون بالأعداء من كل جانب وأن لاسبيل إلى استبقاء سلطتهم إلا بقوة السيف والنار ، وقد شعر قواد الجيش بتلك الحالة النفسية وأفضوا بها الى القيادة العليا فى رسائلهم وتقاريرهم ، ودونوها فى مذكراتهم .

قال الجنرال بليار فى يومياته : « إن كل القرى التى نجتازها نجدها خالية من السكان لأنهم يخلون قراهم قبل أن نصل إليها » .

وقال فى رسالة إلى الجنرال ديزيه عن معركة أبنود : «إننا نعيش هنا عيشة ضنكا فإن جميع القرى تقفر من السكان كلما اقتربنا منها ولانجد فيها شيئا من القوت ولانرى فلاحا واحدا يدلنا أو يأتينا بالأخبار أو يحمل رسائلنا ، ولاأدرى السبب فى هذه الحالة » .

ورجع بليار بعد معركة أبنود قاصدا إلى قنا فوصلها يوم ١٢ مارس سنة ١٧٩٩ وأخذ فى تحصينها ، واختار منزلا كبيرا لأحد المماليك فاتخذه حصنا يشرف على المدينة وعلى النيل وجعله معسكرا للجنود وأخذ يبعث بالرسائل إلى الجنرال ديزيه لينبئه بموقفه ، ولكن رسله جميعا قتلهم الأهالى فى الطريق ولم ينج منهم إلا واحد بلغ أسيوط برسالته .

رجوع ديزيه إلى قنا

أما الجنرال ديزيه فكان فى أسيوط يرقب الحالة وينتظر رسائل بليار التى أبطأت عليه كثيرا ، إلى أن وصلته يوم ١٧ مارس سنة ١٧٩٩ رسالة ينبئه فيها بكارثة السفن الفرنسية فى بارود ثم انتصار الفرنسيين فى معركة أبنود ، ولم يخفف هذا الانتصار شيئا من عظم الكارثة النيلية ، فانها فضلا عما لحق الفرنسيين فيها من خسارة الأنفس والأرواح قد افقدتهم أعظم

مستودع للذخيرة التى كانت تحملها السفن ، فأرسل ديزيه يستعجل المدد والذخيرة من القاهرة ، واعتزم أن يسير جنوبا إلى قنا ليشد أزر الجنرال بليار ويقمع حركات الثورة التى ظهرت فى البلاد وبخاصة الواقعة على الجانب الأيمن للنيل .

ترك ديزيه حامية فى أسيوط وغادرها يوم ١٨ مارس بجنوده وجعل طريقه على البر الشرقى ، وحمل مؤونته وذخيرته فى النيل وسارت الجنود على الشاطىء فوصل قبالة طهطا يوم ٢٠ مارس ، ثم إلى أخميم يوم ٢١ ، ثم إلى جرجا يوم ٢٣ مارس ، وبقى عدة أيام فى بلاد أحد المشايخ الذين اشتهروا بمقاومة الفرنسيين وهو الشيخ (عبد المنعم) للتنكيل به ، فأمر بقطع نخيله وإضرام النار فى القرى التابعة له .

ووصل يوم ٢٧ مارس إلى قنا فالتقى بالجنرال بليار ، وأخذا يعدان العدة لاستئناف القتال وإخضاع البلاد .

معركة (بئر عنبر)
(٢ أبريل سنة ١٧٩٩)

وصل ديزيه إلى قنا ، فشدد وصوله عزائم الجنود وأخذ يتأهب لمواجهة المقاومة التى كانت تقلق الفرنسيين .

إن انتصارات الفرنسيين لم تكسر شوكة البلاد ولم تضع حدا للمقاومة الأهلية ، فإن الأهالى وحلفاءهم من العرب والمماليك كانوا يجمعون فلولهم بعد المعارك التى هزمهم فيها الجيش الفرنسى ، ثم يعودون لاثارة المقاومة واستئناف الهجوم ، وكل معركة تترك لهم ثأرا على الفرنسيين ، وبذلك لاتنقضى معركة إلا ولدت معركة جديدة .

شرع ديزيه يوجه قواته لسحق رجال المقاومة الذين انسحبوا بعد معركة أبنود إلى جهة (الجطة) فى طريق القصير ، فجمع فى هذه الحملة كتيبة من ١٥٠٠ من خيرة جنوده واتجه جنوبا محاذيا البر الشرقى للنيل ضاربا فى الصحراء ، فوصلت الفرقة إلى (كفر اسما) وهى قرية صغيرة فى سفح الجبل ، ثم وصلت إلى (المقربية)[٣] وعسكرت تجاهها ، وكان ديزيه يرمى إلى قطع الطريق على الثوار حتى لايصلوا إلى النيل بأحد الطريقين الموصلين إليه من (الجطة) وهما طريق بئر عنبر ، وطريق (حجازة) الواقعة جنوبى قوص بقرب الجبل الشرقى ، فاحتل بئر عنبر ، وعهد الى بليار باحتلال حجازة فاحتلها ، وبذلك تم للفرنسيين احتلال رأس الطريقين الموصلين الى النيل ، وأخذ الجنرال بليار وهو فى (حجازة) يستطلع

(٣) جنوبى قفط .

حركات المماليك وحلفائهم الذين كانوا فى الجطة يتحفزون للتقدم يريدون النيل ، فلما علم ديزيه بمقصدهم سار بجنوده فى صباح يوم ٢ أبريل لمنازلتهم .

فلما كان على مسير ساعة من (بئر عنبر) التقت طلائع جيشه من الفرسان بقوة المماليك والأهالى وكان عددهم نحو خمسمائة من المماليك وألف من الأهالى .

فدارت معركة شديدة بين الفريقين بالقرب من (بئر عنبر) تلقت فيها كتيبة الفرسان الفرنسيين صدمة الهجوم وتأخر المشاة عن المعركة لوعورة الطريق وصعوبة السير فى الرمال ، وكان يتولى قيادة الجيش الفرنسى الجنرال ديزيه ، وبلغت خسائر الفرنسيين ٤٤ قتيلا و٢٠ جريحا وهى خسارة كبيرة تدل على اشتداد القتال فى تلك المعركة .

وكاد يقضى على ديزيه لولا أن افتداه أحد ضباطه بحياته ، وانتهت المعركة بانسحاب المماليك وحلفائهم الى (الجطة) فى طريق القصير .

تجدد الثورة بين جرجا وقنا

وتجددت الثورات بين قنا وجرجا وجرت وقائع عدة بين الثوار والفرنسيين فى برديس وجرجا وجهينة (أبريل سنة ١٧٩٩) .

الثورة فى بنى عدىّ

وصل الجنرال دافو الذى أنفذه ديزيه إلى جرجا ثم إلى طهطا ، وعلم بنبأ معركتى جرجا وجهينة ، فتابع سيره إلى أسيوط ووصلها يوم ١٦ ابريل ، وهناك رأى أن الثورة امتدت إلى أسيوط وسرت إليها من فلول الأهالى والعرب الذين انهزموا فى جرجا وجهينة وانسحبوا شمالا يحميهم أهالى القرى التى فى طريقهم حتى وصلوا قريبا من أسيوط ، فأخذوا يحرضون الناس على الثورة ويستحثونهم لقتال الفرنسيين ، وكان خطتهم محكمة التدبير واسعة المدى ، واتخذ الثوار (بنى عدىّ) معسكرا للثورة ، وهى بلدة كبيرة واقعة على طرف الصحراء غربى منفلوط وعلى طريق الواحة التى كان مراد بك لاجئا اليها ، وكان لهذه البلدة اهمية كبيرة بالنسبة لموقعها وعدد سكانها وثروتها ، واشتهر اهلها من قديم الزمان بالقوة وشدة البأس ، فكانوا في عهد المماليك يقاومون مظالمهم ، فاتخذها الثوار مركزا لهم واجتمع بها ثلاثة الاف من الأهالى المسلحين وانضم اليهم ٤٥٠ من العرب المصريين وثلثمائة من المماليك .

كانت هذه القوة لايستهان بها ، فسار الجنرال دافو بجنوده قاصدا بنى عدىّ للاستيلاء عليها وقمع الثورة فيها ، فلما وصل اليها (يوم ١٨ أبريل سنة ١٧٩٩) ألفى أهلها جميعا يحملون السلاح ويتحفزون للوثبة والقتال ، وكان المماليك لم يزالوا فى الصحراء بعيدا عن بنى عدىّ ، فعهد دافو إلى قوة من جنوده باحتلال غابة تحصنت بها طلائع الأهالى ، فتمكنوا من إجلائهم عنها وارتدوا إلى المدينة ، فتعقبهم الفرنسيون ، ولما اقتربوا من المدينة أطلق الأهالى الرصاص عليهم ، واستمر الجنود يقاتلون الأهالى ، وهنا حضر المماليك لنجدتهم ، ولكن لم يكد الفرنسيون يتحولون إليهم ليمنعوا اتصالهم بالأهالى حتى ارتدوا لأول صدمة وانسحبوا راجعين الى الواحة التى قدموا منها ، وتركوا الأهالى وحدهم يتلقون هجمات الجيش الفرنسى ، فاشتبك الفريقان فى معركة حامية دارت رحاها فى طرقات بنى عدى وفى بيوتها التى حصنها الأهالى وجعلوا منها شبه قلاع كان الرصاص ينهال منها على الجنود ، فلقى الجيش الفرنسى ببنى عدى من المقاومة ما لم يلق مثله فى كثير من البلاد .

استمر القتال إلى الليل وانتهت المعركة بغلبة المدافع والنيران الفرنسية على مقاومة الأهالى ، ذلك ان الفرنسيين لما عجزوا عن الاستيلاء على بنى عدىّ لجأوا الى وسيلة الحريق التى اتبعوها فى أبنود وغيرها ، فأضرموا النار فيها ، فامتدت إلى بيوتها كافة ، وأصبحت البلدة كأتون من نار ، وبهذه الوسيلة غلب الجيش الفرنسى على مقاومة بنى عدىّ واحتلها الجنود وأمعنوا فى أهلها قتلا ونهبا .

فى المنيا وبنى سويف

واستمرت الثورات لاتنقطع فى المنيا وبنى سويف .

احتلال القصير

واحتل الفرنسيون ميناء القصير فى ٢٩ مايو سنة ١٧٩٩ واطمأنوا قليلا على سلطتهم فى الصعيد .

الحالة النفسية للشعب

على أن هذه السلطة كانت على الدوام مهددة ، وكان الأهالى متحفزين

للانقضاض على الحاميات الفرنسية كلما سنحت لهم الفرصة ، بحيث لم ترسخ دعائم السلطة الفرنسية فى تلك الأصقاع بالرغم من انتصارات ديزيه وجنوده وبالرغم من وسائل القسوة والارهاب التى اتبعوها فى اخضاع البلاد ، واعترف نابليون فى تقريره الى حكومته بأن القوة المسلحة هى الأداة التى يعتمد عليها فى توطيد السلطة الفرنسية فى تلك الأصقاع ، وهذا ينطبق تماما على رأى الجنرال ديزيه فى رسائله إلى نابليون ، فقد كتب اليه يقول : « إننا دائما محوطون بالأعداء ، وان صعوبة المواصلات المعددة غالبا بالانقطاع ، وبعد المسافات ، تمنعنى من أن أكتب لك عن أخبارنا بمقدار ما أرغب ، إننا فى حاجة إلى الجنود لأن فرقتى قد أنهكها التعب واجتاحتها الأمراض وبخاصة الرمد الذى انتشر بين الجنود انتشارا فظيعا ، وإن من الخطر أن نترك جهة واحدة فى مصر العليا دون أن نحتلها بجنودنا ، وإننا لم نستطع أن نشتت أعداءنا الا بمتاعب وحملات شاقة لاهوادة فيها ، والبلاد مع ذلك مستعدة للثورة إذا بدر منا ضعف أو تراجع ، وإنى مضطر إلى إرهاق الجنود وجعلهم دائما على سفر ، لأنهم الوسيلة التى نستطيع بها تحصيل الضرائب » .

وقال فى هذا الصدد : « إن الحالة لم تتغير ، والبلاد من إسنا إلى أسيوط هى فى الوقت الحاضر هادئة ، ولكنى لم أبلغ هذا الهدوء إلا بوسائل القسوة ومتابعة الحملات المستمرة المنهكة للقوى ، وسأجوب البلاد من أسيوط إلى المنيا وأجمع ماتأخر من الضرائب ، وأنتزع الرهائن من جميع القرى كما فعلت فى مديريتى أسيوط وجرجا ، ولايداخلنى الشك فى أن هذه الطريقة والقوة المسلحة هما الدعامتان اللتان قامتا بالهدوء الحالى » .

فالقوة المسلحة ، والقسوة ، والارهاب ، والفظائع ، هى الوسائل التى تذرع بها الفرنسيون لمكافحة قوات المقاومة فى الصعيد ، وهكذا ظل جيش الجنرال ديزيه يطارد قوات شتى لاعدد لها ، ولايكاد يتغلب عليها حتى تتجمع وتعود ثانية للقتال ، وصار ديزيه يحارب حربا لانهاية لها ، فى ميدان واسع مترامى الأطراف ، يمتد من الجيزة شمالا إلى أسوان جنوبا ، ومن القصير شرقا إلى واحات الصحراء الكبرى غربا ، دون أن يصل إلى إخضاع البلاد إخضاعا تاما أو إقرار السلطة الفرنسية فيها .

●

الفصل الثالث عشر :

تجدد المقاومة فى مصر
أثناء الحملة الفرنسية على سورية

على الرغم مما تذرع به الفرنسيون من مختلف وسائل القسوة والوحشية للقضاء على المقاومة الشعبية ، فقد فشلت هذه الوسائل فى إخضاع المصريين ، أو حملهم على الهدوء ، والتسليم بالأمر الواقع ، وكان اعتزام نابليون غزو سوريا حافزا لهم على التصميم على مواصلة الجهاد وتجديد حركات المقاومة حتى يتم لهم إجلاء الغاصب عن البلاد .

احتيـاطات نـابليون
وسياسته إزاء الشعب

وكان نابليون يعلم أن نفوس الأهالى فى القاهرة متحفزة للهياج تتربص للانقضاض على السلطة الفرنسية ، وأدرك أن قيام ثورة فى العاصمة أثناء الحملة على سوريا يشعل نار الهياج فى سائر أنحاء مصـر ويؤدى إلى قطع خط الرجعة على الجيش الفرنسى ، لذلك اتخذ الاحتياطات الحربية لمنع وقوع أية ثورة ، كما اجتمع بأعضاء الديوان وافهمهم ان الغرض من الحملة على سوريا هو محاربة المماليك وفتح طريق التجارة بين البلدين ، وطلب اليهم المحافظة على الهدوء اثناء الحملة ، فتعهدوا له بذلك ، كما اصدروا منشورا نصحوا فيه الأهالى بالاخلاد الى الهدوء والسكينة حتى يعود بونابرت .

وبعد أن تم له ذلك قاد حملة على سورية فى فبراير سنة ١٧٩٩ وتذرع اليها بما وقع من احتلال جنود أحمد باشا الجزار والى عكا قلعة « العريش » ، فكان هذا الاحتلال نذيرا بزحف الجيش العثمانى على مصر ، لذلك رأى نابليون أن يعجل بحملة على سورية ليفسد هذا الزحف قبل أن تبغته تركيا .

فغرض نابليون من الحملة السورية كان إذن ، تثبيت قدم الاحتلال الفرنسى فى مصر ، وابعاد خطر الحملة العثمانية عليها ، وإكراه تركيا على

الاتفاق معه . ومنع السفن الانجليزية فى البحر المتوسط من أن تتزود من الثغور السورية ، واتخاذ سورية موقعا حصينا للدفاع عن مركزه فى مصر .
وكانت مطامع نابليون ترمى ، اذا ما نجحت الحملة ، الى مواصلة زحفه على الهند ليضرب فيها بريطانيا عدوة فرنسا اللدود فى ذلك العصر .

سير الحملة - فظائع الفرنسيين فى يافا

احتل الجيش الفرنسى « العريش » فى ٢٠ فبراير سنة ١٧٩٩ بعد أن هزم الجيش العثمانى بها ، ثم تابع زحفه حتى وصل إلى يافا فحاصرها واستولى عليها فى ٧ مارس بعد معركة شديدة .
وفى مدينة يافا ارتكب الجيش الفرنسى باعتراف المؤرخين الفرنسيين أنفسهم أبشع مأساة ستظل ابد الدهر وصمة عار فى جبين فرنسا ، فبالإضافة إلى أعمال النهب والقتل التى استمرت يومين كاملين ، فإن الفرنسيين أعدموا رميا بالرصاص ثلاثة آلاف أسير عثمانى على الرغم مما نصت عليه شروط التسليم من ضمان أرواحهم .

المصريون فى يافا

أما المصريون الذين كانوا فى المدينة فقد أعادهم نابليون إلى مصر بعد أن فشل فى حملهم على الانضمام إلى الجيش الفرنسى ، وكان من بينهم السيد عمر مكرم الذى كان قد هاجر اليها بعد معركة الأهرام .

حصار عكا والارتداد عنها

استأنف الفرنسيون زحفهم شمالا فاحتلوا (حيفا) دون مقاومة . ثم وصلوا تجاه « عكا » وهى مدينة محصنة عزم الجنود العثمانيون بقيادة حاكم المدينة أحمد باشا الجزار على الدفاع عنها بكل مالديهم من قوة . فجعلها نابليون هدفا لهجومه ، إذ كان الاستيلاء عليها يفتح امامه طريق سوريا ، ويقضى على نفوذ الجزار فى تلك الجهات ، فبدأ يضرب عليها الحصار يوم ١٩ مارس سنة ١٧٩٩ لكنه فشل فى التغلب عليها ، فارتد عنها ، وكان هذا الارتداد أول هزيمة مُنى بها جيشه ، فأثر فى نفسه تأثيرا كبيرا وخشى عواقبه في مصر ، فعاد يشدد الحصار ، وظل يهاجم المدينة ويرتد عنها دون

جدوى ، فعقد مجلسا حربيا من قواده تقرر فيه رفع الحصار الذى استمر ٦٢ يوما ، والذى انتهى بالفشل والهزيمة وانسحب نابليون بجيشه عائدا الى مصر ، وهكذا عادت الحملة الى حيث بدأت دون أن يجنى منها الفرنسيون سوى الهزيمة والخسران .

نتائج الحملة على سورية

محت هزيمة نابليون فى هذه الحملة ماتركته انتصاراته من هيبة فى النفوس ، وتبين للناس أن الجيش الفرنسى الذى تعود الانتصار فى المعارك ، قد تلاشت قوته أمام مدينة صغيرة يتولى الدفاع عنها قائد شرقى .

تضعضعت هيبة فرنسا فى نظر المصريين والشرقيين عامة وانبعث فى نفوسهم روح الأمل فى القوة الكامنة فى أوطانهم وكان لهذا العامل أثره فى تجدد حركات المقاومة الشعبية فى مصر .

تكبد الجيش الفرنسى خسائر فادحة حيث فقد نخبة من جنوده وقواده وضباطه الذين سقطوا بين قتيل وجريح بالاضافة الى عدد كبير منهم ذهب ضحية الأمراض الفتاكة .

الحالة فى مصر
من الحملة على سورية إلى رحيل نابليون

كان معظم جنود نابليون موزعين فى وقت واحد فى ميدانين كبيرين تكتنفهما المشاق والمتاعب ، فكان نصف الجيش بقيادة نابليون منهمكا فى الحملة على سوريا ، حين كان جيش الجنرال ديزيه منصرفا الى اخضاع الوجه القبلى ، وكلاهما كان يواجه المصاعب فى طريقه ، فجيش الحملة على سورية يقاتل جيوشا عديدة ويطاحن قلاعا حصينة ، وجيش ديزيه يواجه ثورات ومعارك متتابعة .

حالة الشعب النفسية

ولاجدال فى أن تغيب نصف الجيش الفرنسى عن مصر كان له أثر كبير فى حالتها الداخلية ، نعم إن اقدام نابليون على غزو الشام هو فى ذاته عمل يدل على القوة والبأس ، ومن شأنه ان يلقى فى نفوس المصريين حذرا وهيبة ، لأن القائد الذى يغامر بجيشه فى مثل هذه الحملة الشاقة ويقطع تلك المراحل الطويلة ويجتاز الصحارى والقفار لابد أن يكون معتدا بقوته

مستصغرا شأن عدوه ، فهذه الظاهرة كان لها اثرها فى الحالة النفسية للشعب ، أضف الى ذلك أن إخماد ثورة القاهرة الأولى وماشهد المصريون من فتك مدافع الفرنسيين ، وما أعقب الثورة من انشاء القلاع المحيطة بالعاصمة لاخماد كل ثورة تقوم فيها ، كل ذلك قد جنح بالشعب وقتا ما الى الهدوء والسكينة ، هذا فضلا عن أن قلاع الاسكندرية ورشيد والرحمانية ودمياط والصالحية وبلبيس كانت معدة لقمع الثورات فى مختلف البلاد .

وكان الأهلون يتوقعون لنابليون الانكسار فى حملته على سورية ، فلاذوا بالسكينة وتربصوا حتى تتحقق تلك الأمانى ، ولكن انتصارات نابليون الأولى ملأت القلوب يأسا ، وكان نابليون يفهم نفسية الأمة ويعرف انها لاتصفو للفرنسيين ، فأراد أن يؤثر فيها بالمظاهرات والاعلان عن انتصاراته ليشغلها بالأمر الواقع ، فلما تم له احتلال قلعة العريش أرسل كتيبة من الجنود إلى القاهرة تحمل الأعلام التى غنمها فى تلك القلعة ، وكلف الجنرال دوجا الذى استخلفه فى إدارة الشئون الحربية أن يرفعها على منارات الجامع الأزهر كاعلان لانتصار الفرنسيين فى العريش .

ولما تم لنابليون احتلال يافا أمر بأن ترفع الرايات العثمانية التى غنمها فى يافا على باب الجامع الأزهر ليراها الناس ويتيقنوا صحة الخبر ، وسادت السكينة وقتا فى أنحاء مصر .

بوادر الثورة

على أن هذا السكون الذى شمل البلاد وقتيا ، فما لبث أن تزعزعت أركانه فى الأقاليم وأخذت بوادر التمرد والانتقاض تظهر من حين الى اخر ، وتنتقل من ناحية الى اخرى ، فالنفوس كانت متحفزة للثورة ، وكانت القوة الحربية هى الركن الركين لتوطيد دعائم السكينة فى البلاد . فابتعاد أكثر من نصف الجيش الفرنسى عن مصر ، وتغيب نابليون الذى كان له من الهيبة ما لم يكن لغيره من قواد الجيش الفرنسى ، كل ذلك من شأنه ان يحدث مع الزمن تغييرا فى حالة الشعب النفسية ويغرى النفوس بالجنوح للثورة وخاصة إذا وقعت حوادث تشعل نار الهياج والاضطراب .

الثورة فى الشرقية
(مارس سنة ١٧٩٩)

بدأ هاتف الثورة يطيف بالنفوس فى أواخر فبراير سنة ١٧٩٩ ، فظهرت بوادرها فى الشرقية ، وكانت مظالم الفرنسيين سببا فى اشتعال جذوتها ، ذلك أنهم أخذوا يفرضون الاتاوات على البلاد ، وأخذ جنودهم يخوضون القرى لمصادرة الجمال والحمير والماشية ، فثارت نفوس الأهالى ووقعت

حوادث ومصادمات فى جهات عدة وخاصة فى بردين والعصلوجى والغار والزنكلون[١] كادت تقضى إلى ثورة عامة .

ثورة أمير الحج

استمرت الاضطرابات بالشرقية إلى أن ظهرت بها ثورة أمير الحج ، وبيان ذلك ان نابليون كما سلف القول ، عين فى أوائل عهد الحملة الفرنسية مصطفى بك نائب الوالى التركى القديم اميرا للحج وقربه اليه ، وبالغ فى الحفاوة به ليكسب نفوذه الأدبى وينتفع بتأثيره فى الجماهير ، وقد طلب منه قبل ارتحاله عن القاهرة أن يصحبه فى الحملة على سورية كما طلب ذلك من القاضى التركى واربعة من أعضاء الديوان وهم الفيومى ، والصاوى ، والعريشى ، والدواخلى ، فأذعنوا له ، وسار مصطفى بك صحبة القاضى وأعضاء الديوان ليلحقوا بالجيش فبلغوا بلبيس ، وهناك تخلفوا عن السير ، لأن الفرنسيين احتاجوا إلى جمالهم وأخذوها ، فأقام المشايخ ومصطفى بك بالعرين[٢] عدة أيام بحجة الزاد والمؤونة ، فأرسل نابليون إلى مصطفى بك من (قطية) من يستحثه على اللحاق به ، فبعث اليه يعتذر بأن جماله فقدت وأن الطريق مخوفة لا أمن فيها ، ولم يلبث أن أعلن تمرده وانتقاضه على السلطة الفرنسية ، وكاشف زملاءه اعضاء الديوان والقاضى التركى بعزمه على شق العصا واعلان الخروج على الفرنسيين ، وطلب منهم أن يؤيدوه فى دعوته ، لكنهم خافوا العاقبة وحسبوا حسابا لانتقام الفرنسيين منهم كما انتقموا من زعماء ثورة القاهرة ، فلم يوافقوه على دعوته ، وشذ منهم الشيخ سليمان الفيومى فانه أقر أمير الحج على رأيه ، وكذلك القاضى التركى ، ولما رأى أمير الحج ان ثلاثة من أعضاء الديوان أنكروا عليه دعوته تظاهر بالتسليم وفى الوقت نفسه أخذ يعد العدة لنشر الدعوة الى الثورة فى انحاء البلاد ، فبدلا من أن يتابع سيره الى (قطية) حيث كان ينتظره نابليون عاد إلى داخلية البلاد فسار من العرين إلى كفور نجم[٣] يصحبه القاضى التركى والشيخ الفيومى ، واما اعضاء الديوان الثلاثة الدواخلى والصاوى ، والعريشى ، فقد انفصلوا عنه وذهبوا إلى القرين (بالقاف)[٤] ورجع الشيخ محمد الدواخلى الى القاهرة مريضا .

---

(١) بمركز الزقازيق الان

(٢) بمركز فاقوس بين ابو كبير وفاقوس .

(٣) بمركز كفر صقر على بحر مويس .

(٤) بالقرب من التل الكبير بمركز الزقازيق الآن .

بدأت فكرة الثورة فى الشرقية ، وانتقلت إلى الدقهلية من بلد إلى بلد ، وانضمت الجموع من الأهالى إلى أمير الحج فسار من كفور نجم ومعه الآلاف الحاشدة من الناس ، ومضى قاصدا إلى دقادوس وميت غمر ، وكان عدد رجاله يزداد بمن ينضم اليهم فى الطريق من المتطوعين ، فوصل ٢٥ مارس سنة ١٧٩٩ . تجاه ميت غمر ، وكانت فكرة الثورة قد اختمرت فى الأذهان ، ولم يكن إلا أن تسنح لها الفرصة فتظهر بشكل فعلى ، وقد سنحت الفرصة بمرور بعض المراكب الفرنسية فى النيل تحرسها سفينة حربية ، كانت هذه المراكب قادمة من القاهرة تحمل الذخائر والأقوات والمدافع لامداد الجيش الفرنسى فى سورية بطريق دمياط ، فهجم أهالى ميت غمر والبلاد المجاورة على المراكب واستولوا عليها وقتلوا من فيها من الفرنسيين ، واخذوا مابها من الذخائر والمدافع ، وارتدت السفينة الحربية التى كانت تحرسها الى القاهرة بعد أن عجزت عن رد الثائرين وجرح قبطانها وعدة من رجالها جروحا بليغة .

فعاجل الفرنسيون هذه الثورة بالقمع وعزلوا امير الحج من منصبه ، وجردوا عليه حملة اخذت تتعقبه فى مختلف البلاد . فلما آنس أن لا قبل له بمقاومتهم زاغ من طريقهم وأخذ يفر من بلد الى اخر حتى افضى إلى الجهات الصحراوية بالشرقية ، فلم يستطع الفرنسيون القبض عليه ، لكن لم يلبث أنصاره أن تشتتوا وأخمدت السلطة الفرنسية ثورتهم .

على ان الثورة قد تجددت فى أواخر شهر مايو سنة ١٧٩٩ فى القليوبية ومنطقة ميت غمر والبلاد المجاورة لها ، فاحتشد بها عدد كبير من الثوار وانضم اليهم جماعة من المماليك وهجموا يوم ٣٠ مايو على سفينة حربية فرنسية قادمة بالنيل من سمنود ، فاستولوا عليها وغنموا أربعة مدافع كانت بها وقتلوا نوتيتها وخمسة من جنودها وجرحوا منهم اثنين .

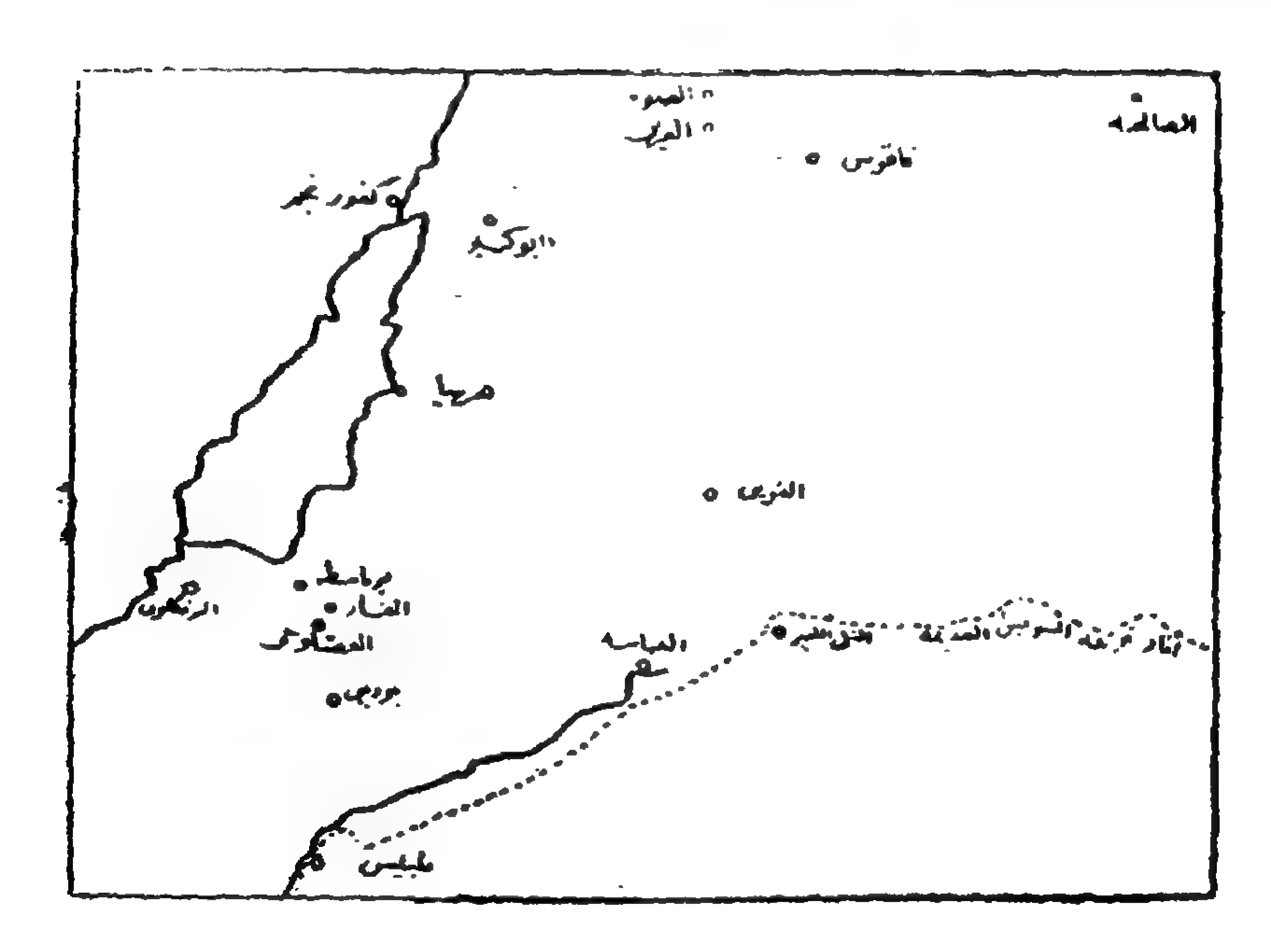
معركة كفور نجم
(٥ يونيه سنة ١٧٩٩)

تعطلت الملاحة فى النيل تجاه ميت غمر ، فسارت كتيبة من الجند من منوف إلى ميت غمر لاخماد الثورة ، فانسحب الثوار منها قاصدين إلى كفور نجم ، فتعقبتهم الكتيبة ودارت معركة شديدة يوم ٥ يونيه سنة ١٧٩٩ بين الفريقين بالقرب من كفور نجم على شاطىء بحر مويس انتهت بهزيمة الثوار وخسروا عددا من القتلى قدرهم قائد الكتيبة بمائة وثلاثين قتيلا .

ولما عاد نابليون من الحملة على سورية أمر باقامة قلعة في ميت غمر

وأخرى فى المنصورة لحماية الملاحة فى النيل وقمع الثورات فى جهات البلدين ، وأقيمت التحصينات فعلا فى المدينتين لحماية الملاحة وقمع الثورات ..

أخذ قائد الكتيبة يتنقل لاخماد الثورة ، ولما وصل الى ميت غمر أراد أن يقتص منها انتقاما لما حل بالفرنسيين والسفن الحربية تجاهها ، فأمر بإحراقها وتدميرها « حتى لم يبق فيها حجر على حجر » كما يقول ريبو ، ثم سار فى البلاد لقمع الهياج وإرهاب الأهالى ، على أنه لم يلبث أن علم بأن الثورة انتقلت إلى غرب الدلتا فى مديرية البحيرة ، فاضطر أن يسوق جنوده اليها تاركا بالشرقية جزءا منها .



بين بلبيس والصالحية (تخطيط سنة ١٧٩٨ ـ ١٨٠١) .

الثورة فى غرب الدلتا

كانت الأقاليم الواقعة غرب الدلتا (الاسكندرية ورشيد والبحيرة) مسرحا للقلاقل والثورات . فاستهدفت سلطة الفرنسيين فيها للهجمات الخارجية والاضطرابات الداخلية .

واشتد الهياج فى منطقة رشيد وما حولها من شهر مارس سنة ١٧٩٨ ، ذلك ان قومندان الاسكندرية (الجنرال مارمون) فرض سلفة إجبارية على

مديرية رشيد موزعة على بلادها وقراها وكفورها ، فدفعت مدينة رشيد قسطها في السلفة ، ودفعت (فوة) ثلثي المفروض عليها ، وامتنعت باقي البلاد عن الدفع ، فجرد الفرنسيون عليها حملة عسكرية مسلحة بالمدافع لاجبارها على دفع ماخصصها في الاتاوة ، وعمت الثورة جهات (برنبال) و (مطوبس) وكفر (شباس عمير) و (القنى) و (السعدة)[٥] وغيرها ، فسارت الحملة من رشيد وأخذت تجوب بلاد هذه المديرية لاخماد الاضطرابات وتحصيل الأتاوات ، وكانت (شباس عمير) معقلا للثورة وملجأ للثوار من القرى المجاورة ، وموقعها على جانب من المناعة وخاصة بعد أن رمم أهلها السور المحيط بها وأصلحوا الأبراج التى تتخلله ، فلم تستطع الحملة أن تستولى عليها وطلبت المدد من رشيد ، فأنجدها الكولونل جوليان بفصيلة من الجنود وعادت القوة إلى قتالها وضربتها بالمدافع ، فهدمت البلدة عن آخرها وجلا أهلها عنها ، وانتقلت القوات الفرنسية الى بلدة (السعدة) فضربتها بالمدافع وتخرب جزء منها وأخلاها أهلها ونجوا بمتاعهم ومواشيهم ، وكذلك أخلى أهل برنبال بلدتهم واقفرت من السكان .

الثورة في البحيرة

في أواخر شهر أبريل سنة ١٧٩٩ شبت في البحيرة ثورة أوسع مدى وأعظم خطرا من ثورة الشرقية ، ذلك أن ظهر فيها رجل ادعى المهدية ودعا الناس إلى قتال الفرنسيين ، فأقبلوا عليه أفواجا وضم اليه رجال القبائل من أولاد على والهنادى وغيرهما ، وانحاز اليه سكان القرى الى مر بها ، فسار بهذه الجموع المسلحة حتى وصل الى دمنهور ليلة ٢٤ ـ ٢٥ ابريل وكان بها حامية من الجنود الفرنسيين ، فأمر المهدى رجاله بالهجوم على هذه الحامية فهجموا عليها وقتلوا رجالها جميعا .

كان لانتصار المهدى تأثير كبير في مديرية البحيرة ، فهرع اليه الناس من كل صوب وزاد عدد أتباعه ، وقوى اعتقاد الناس في قوته وخوارقه ، وسار برجاله قاصدا إلى النيل ليعبره الى مديرية الغربية .

وكان بالبحيرة في ذلك الحين كتيبة طوافة من الجنود تطوف بالبلاد لجباية الأموال ، فوصلت الى دمنهور بعد قتل الحامية الفرنسية ورحيل المهدى ، ورأت من المخاطرة ان تتعقبه ، فاسرعت الى الرحمانية وامتنعت بالحصن الذى أقامه الفرنسيون في نقطة تفرع ترعة الاسكندرية (المحمودية الآن) من النيل ، وانتظرت وصول المدد لتهاجم المهدى ، ولما علم الجنرال

---

(٥) هذه البلاد هى الان فى مديرية الغربية وكانت في ذلك الحين من أعمال مديرية رشيد ، وتقع (القني) شرق مطوبس و(السعده) جنوب القنى بشرق (انظر مواقعهما في خريطة رشيد وشبراخيت ص ٣١) .

(مارمون) قومندان الاسكندرية بنبأ الكارثة التى حلت بالحامية الفرنسية بدمنهور أنفذ قوة من الجنود مزودة بالمدافع لتتعقب جيش المهدى وتتصل بكتيبة الجنود الفرنسية بالرحمانية .

سارت القوة من الاسكندرية يوم ٢٧ أبريل ، والتقت برجال المهدى غير بعيد عن دمنهور قبل أن تصل الى الرحمانية ، ودار قتال شديد بين الفريقين دام خمس ساعات انتهى بانسحاب الفرنسيين الى الاسكندرية .

معركة سنهور
(٣ مايو سنة ١٧٩٩)

ولما وصل المدد إلى الرحمانية وأنضم إلى الجند الذين بها ، سارت القوات الفرنسية مجتمعة فالتقت برجال المهدى يوم ٣ مايو بسنهور البحيرة على مقربة من دمنهور ، ودارت معركة من أشد المعارك هولا ، قال ريبو أحد مؤرخى الحملة الفرنسية فى وصفها إن عدد رجال المهدى كانوا خمسة عشر ألف مقاتل من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان ، وأن القتال استمر سبع ساعات كان فيها أشبه بمجزرة فظيعة ، وهذه الواقعة من أشد الوقائع التى واجهها الفرنسيون فى القطر المصرى ، أظهر فيها أتباع المهدى من الفلاحين والعرب شجاعة كبيرة واستخفافا بالموت لانظير له ، وبذل قائد الكتيبة الفرنسية أقصى ما انتجه العلم والفن فى القتال ، فجعل جيشه على شكل مربع على الطريقة التى ابتكرها نابليون ، وهجم على الجموع المقاتلة عشرين مرة ، فكان يحصد صفوفهم حصدا بنيران البنادق والمدافع ، وكان أتباع المهدى قد غنموا فى دمنهور مدفعا فرنسيا فاستخدموه فى المعركة وركبوه على مركبة تجرها الثيران وأخذوا يطلقون منه النار على الفرنسيين ، واستمر القتال حتى جنّ الليل ، وكان الجنود الفرنسيون قد خارت قواهم من القتال ، ففكر قائد الكتيبة فى الانسحاب من الميدان والاتجاه الى الرحمانية ، ولكن جموع المهدى لكثرة عددها كانت تسد الطريق امامه ، فأمر رجاله أن يضموا صفوفهم ويخترقوا الجموع التى طوقتهم ، وركب المدافع على رءوس المربع لاقتحام هذه الجموع ، وانسحبوا من ميدان القتال بعد أن فدحتهم الخسائر ، ويقول « ريبو » إن الفرنسيين خسروا فى هذه المعركة ستين قتيلا بينما يقدر خسائر المصريين بألفى قتيل ، وبالرغم من هذه الخسارة فان المعركة انتهت بفوز المهدى وارتداد الفرنسيين الى الرحمانية .

وقد أغراه هذا الفوز الجديد بمواصلة القتال وضم اليه أنصارا وأتباعا آخرين سدوا الفراغ الذى أحدثته معركة سنهور ، فسار بجموعه قاصدا

الرحمانية ، لكنه اضطر للارتداد عنها أمام مناعة موقع الفرنسيين فيها وعاد إلى دمنهور التى اتخذها معسكره العام .

احتلال الفرنسيين دمنهور

وتكاثرت القوات الفرنسية وسارت مجتمعة صوب دمنهور فهزمت رجال المهدى ودخلت دمنهور غازية ، فأعملت فيها السيف والنار ، ودمرها الجنود تدميرا وحشيا وأبادوا من وجدوه فيها من السكان الآمنين .

قال ريبو يصف هذه الفظائع : « بعد أن احتل الجنود دمنهور قتلوا من صادفوه من رجال المهدى جميعا ، ولما كان أهل دمنهور هم أول من اتبع المهدى من سكان البحيرة فقد أراد الفرنسيون أن يطبعوا هذه المدينة بطابع الغضب والانتقام . فاحرقوا مساكنهم بالنار ، وقتلوا كل من وجدوا من الشيوخ والنساء والأطفال بحد السيف ، وفى اليوم التالى كانت دمنهور ركاما من الأحجار السوداء اختلطت بها أشلاء الجثث ودماء القتلى » .

الموقف السياسى وتجدد القتال

شمل السكون الظاهر أنحاء القطر المصرى فى منتصف شهر يونيه سنة ١٧٩٩ ، وكانت الظواهر تدل على هدوء الحالة واستقرارها ، فقد اخمدت الثورات فى الوجه البحرى ، وانتهت المعارك العنيفة فى الوجه القبلى ، وتوطدت السكينة فى القاهرة ، لكن هذه الظواهر كانت تشبه السكون الذى يسبق العواصف ، فقد كانت الأفكار فى غليان ، ونفسية الشعب متحفزة للهياج ، واللغط يزداد ويكثر ، والاشاعات من اكفهرار الجو يتناقلها الناس فى أندية القاهرة وشوارعها وقهواتها . ومن هناك تستطير الى القرى والأرياف مكبرة مجسمة ، وكان نابليون يرقب هذه الحالة وهو عالم بأن هذا السكون الظاهر الذى شمل البلاد لم يكن إلا غشاء لاتلبث الحوادث أن تمزقه ، فهو يعلم أن انجلترا وتركيا تعدان المعدات لتجريد حملة كبيرة لاخراج الفرنسيين من مصر ، ويعلم ان سكون الشعب وتربصه لم يكن الا اذعانا لحكم القوة المسلحة ، فاذا وهنت هذه القوة انفجرت الثورات وتجددت الاضطرابات كدأبها وأشدّ ، وكانت الأنباء ترد من كل مصدر بحشد الجنود التركية فى رودس والثغور العثمانية لتبحر إلى سواحل مصر ، وفى الوقت نفسه كانت قوات تركية أخرى تتهيأ للزحف على مصر من طريق برزخ السويس بقيادة الصدر الأعظم (رئيس وزراء تركيا) يوسف ضيا ، وكان نابليون يلحظ تحفزا من الأهلين للانتقاض ، وعلم أن دعاة الثورة يخوضون

القرى والبلاد يستنفرون الناس للهياج .

فأخذ يستعد لملاقاة الحملة العثمانية المنتظرة .

نزول الجنود العثمانية فى (ابو قير)

لم تكن استعدادات نابليون لملاقاة الحملة العثمانية على غير جدوى ، فقد اقبلت العمارة التركية تجاه الاسكندرية يوم ١١ يوليه سنة ١٧٩٩ متجهة شمالا بشرق قاصدة شواطىء (أبو قير) لانزال الجيش العثمانى الذى أنفذته تركيا بقيادة مصطفى باشا سر عسكر الرومللى لمحاربة الفرنسيين ، ثم وصلت الى خليج (أبو قير) فى اليوم التالى .

نزل الجنود العثمانية الى شاطىء (ابو قير) يوم ١٤ يوليه ، وكان عددهم فى أول يوم عشرة الاف مقاتل ، فحاصروا قلعة أبو قير وكانت الحامية الفرنسية ممتنعة فيها .

وكان موقع القلعة ذاته منيعا لأنها قائمة على صخرة صعبة المنال فى رأس شبه جزيرة (ابو قير) تحميها من الداخل استحكامات فى مدخل شبه الجزيرة .

احتلال الأتراك قلعة (أبو قير)

بدأ حصار (أبو قير) يوم ١٥ يوليه ، وكان هجوم العثمانيين شديدا فاحتلوا الاستحكامات وقتلوا الفرنسيين الذين دافعوا عنها ، ثم احتلوا القرية ، ولم يبق أمامهم سوى القلعة ، فآثر قائدها الفرنسى التسليم هو وجنوده . فأسرهم العثمانيون واحتل الأتراك القلعة يوم ١٧ يوليه سنة ١٧٩٩ .

معركة أبو قير البرية
وهزيمة الجيش التركى
(٢٥ يوليه سنة ١٧٩٩)

علم نابليون بهذه الحوادث ، فأدرك خطورة الموقف ، ولكنه كعادته لم تبد عليه علائم الاضطراب ، وبادر الى وضع خطة سريعة محكمة التدبير لمواجهة الحملة العثمانية .

كان من مواهب نابليون التى اكسبته النصر فى ميادين القتال السرعة فى وضع خططه الحربية ومفاجأة خصومه قبل أن يدع لهم الوقت الكافى

لمباغتته ، بهذه الميزة ، قابل الحملة التركية عند نزولها بأبو قير ، لقد هاله احتلال الأتراك للقلعة لأنه كان يقدّر انها تستطيع المقاومة مدة طويلة لمناعة موقعها وما بها من المدافع ومعدات الدفاع ، وحسب انها تعطل الجيش العثمانى وتمتنع عليه طويلا ، ولم يخطر له قط ان تسقط فى يد الأتراك بهذه السرعة ، على أنه مع ذلك لم يضطرب ولم يضيع الوقت ولم يتردد فى وضع خطته الحاسمة ، ففى ليلة واحدة رسم خطته وأصدر تعليماته وأرسل رسائله الى قواده ليلتقوا به قبيل المعركة .

قضى نابليون يوم ٢٤ يوليه بالاسكندرية ، وفى مساء هذا اليوم انتقل منها هو وأركان حربه وقوة الفرسان ، واتخذ معسكره على مسافة سبعة كيلو مترات غرب (أبو قير) وقضى الليل يرتب مواقع جنوده استعدادا لخوض المعركة فى صباح اليوم التالى .

نشبت المعركة صبيحة يوم ٢٥ يوليه ، فهجم الفرسان من القلب ، واندفعت بقية الفرق من الميسرة ومن الميمنة ، وكان هجوم الفرسان شديدا فى بدء المعركة ، فاحدث ثغرة فى صفوف الجيش العثمانى ، واشتد القتال واستبسل الفريقان ، وهجم الجيش الفرنسى غير مرة على مواقع الجيش العثمانى ، فأصلاهم العثمانيون نارا حامية من مدافعهم المركبة فى مواقعهم المنيعة ، ولكن الفرنسيين تفوقوا بتدبير قيادتهم وحسن نظامهم واحكام هجومهم وكثرة عددهم ولاسيما الفرسان ، فتمكنوا من سحق خطىّ الدفاع اللذين اقامهما الجيش العثمانى ، وفتكوا بالجنود الذين كانوا يرابطون عليهما ، وبذلك بدأت هزيمة الأتراك ، فالتجأ مصطفى باشا الى قرية (أبو قير) ليستند الى (القلعة) ، ولكن الفرسان حالوا بين القرية والقلعة ، فحصر مصطفى باشا وجنوده فى قرية ابو قير ، واقتحم الفرنسيون معسكر مصطفى باشا فأخذوه فى خيمته ووقع هو ورجاله فى أسر الجيش الفرنسى .

كانت هزيمة العثمانيين فى هذه الموقعة اشبه بكارثة ، فقد فقدوا من القتلى والغرقى والجرحى نحو ثمانية آلاف ، وبلغ عدد الأسرى نحو ثلاثة آلاف وغنم الفرنسيون مدافع الجيش العثمانى وذخائره ، وفقد الفرنسيون ٢٥٠ قتيلا وجرح منهم سبعمائة وخمسون .

حصار القلعة واستسلامها

انتهت معركة أبو قير بهزيمة الجيش العثمانى ، على ان القلعة ظلت تقاوم هجمات الفرنسيين ، وامتنع بها نحو ثلاثة آلاف من الجنود العثمانية بقيادة

ابن مصطفى باشا الذى ابى ان يسلم كما فعل أبوه ، فعهد نابليون إلى الجنرال لان Lanne فى حصار القلعة ثم جرح « لان » فى معارك الحصار فعين مكانه الجنرال منو وعاونه الجنرال دافو ، واستمر الحصار قائما والحرب مستعرة إلى نفدت ذخائر العثمانيين فاحتل الفرنسيون القلعة يوم ٢ اغسطس سنة ١٧٩٩ .

وتعد واقعة أبو قير البرية فوزا كبيرا لنابليون ، لأنها بمثابة غزو جديد لمصر ، كما كانت واقعة الأهرام من قبل ، وقد ابتهج لها الفرنسيون ابتهاجا عظيما وطربوا لأخبارها وأقاموا الحفلات والزينات فى القاهرة ثلاثة أيام متواليات .

وكانت الظواهر تدل على أن سلطة الفرنسيين قد رسخت .

اضطراب الأحوال فى فرنسا ، ورحيل نابليون

لكن الظواهر مالبثت ان تبددت ، وبدأ الجو يكفهر ، والسماء تتلبد بالغيوم ، والأنباء ترد من كل صوب باضطراب الأحوال وتجدد الأحداث .

إن نابليون قد فاز بسحق الجيش العثمانى فى معركة أبو قير ، لكن تركيا كما سلف القول كانت تحشد جيشا اخر فى سورية بقيادة الصدر الأعظم يوسف ضيا ، وجاءت الأنباء بأن هذا الجيش قد تم استعداده وأن الصدر الأعظم قادم بعدد عظيم من المقاتلة لغزو مصر من طريق برزخ السويس ، فلم يكن انتصار الفرنسيين فى معركة أبو قير سوى هدنة وقتية سنحت للجيش الفرنسى ليستريح من عناء القتال وأهواله ، فأخذ نابليون يستعد لصد حملة العثمانيين القادمة .

وثمت شواغل أخرى أقلقت باله وأقضت مضجعه ، ذلك أن الجيش الفرنسى كان ينتظر من يوم لآخر أن تضع الحرب أوزارها ، أو يصله المدد من فرنسا ، وكانت هذه الفكرة تبعث الصبر والأمل فى نفوس الجنود ، ومافتىء نابليون يحيى هذا الأمل فى نفوسهم حتى لايدع للكلال واليأس سبيلا الى قلوبهم .

ولكن هذا الأمل ما لبث ان تبدد اذ علم نابليون ان فرنسا قد تحرج مركزها وتضعضعت هيبتها فى البلاد التى فتحتها من قبل ، فشبت الثورة فى البيمونت ، وفقدت أملاكها فى ألمانيا وإيطاليا ، واشتد السخط فى فرنسا على حكومة الديركتوار (الحكومة الفرنسية) وألقى الشعب على عاتقها تبعه

هذه الهزائم المتوالية ، واخذت انجلترا تشن الغارة فى البحار على أملاك فرنسا وتمد حلفاءها بالعون والمساعدة ، فكانت فرنسا مهددة من الخارج والداخل ، كان الحلفاء يتوعدونها من الخارج ، والاضطراب الداخلى يهدد كيانها من الداخل ، تلك هى الحالة التى وقف نابليون على حقيقتها عقب انتصاره فى معركة أبو قير ، فاستقر عزمه على وجوب الرحيل الى فرنسا لانقاذها من الأخطار التى تهددها .

على انه كتم عزمه حتى عن أقرب الناس اليه ، وأخذ يعد معدات رحيله سرا ويصدر تعليماته ويرتب النظام الذى يتبع فى غيابه دون أن يعلم به أحد ممن صدرت اليهم اوامره بعزمه الذى اسرّه فى نفسه ، واستخلف الجنرال كليبر فى قيادة الجيش الفرنسى .

إقلاع السفن

كانت السفن المعدة لسفر نابليون ورفاقه على أهبة الإقلاع من الإسكندرية .

ففى ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٩ فى منتصف الساعة العاشرة ليلا ركب نابليون السفينة وكانت راسية بالقرب من برج السلسلة بطرف الميناء الشرقية ، وأبحرت صحبة سفن ثلاث أخرى قاصدة شواطىء فرنسا .

وظلت السفن تمخر عباب البحر الأبيض المتوسط والمخاوف تكتنفها مدة ثمانية وأربعين يوما ، إلى أن رست فى خليج فريجوس Frejus جنوب فرنسا يوم ٩ أكتوبر سنة ١٧٩٩ ، فنزل إلى البر القائد الذى كانت تنتظره فرنسا لتسلم إليه مقاليدها .

●

الفصل الرابع عشر:

قيادة الجنرال كليبر

اقترنت أيام كليبر الأولى باستتباب الهدوء في القاهرة والأقاليم ، ولعل أهم سبب لذلك أن انتصار الفرنسيين على الجيش العثماني في معركة أبوقير كان لا يزال ماثلا أمام الأذهان كبرهان على مبلغ قوة الجيش الفرنسي ، وتواردت الأنباء من قواد الجنود الفرنسية في الأقاليم بأن الحالة مستقرة .

على أن هذه المقدمات وهاتيك الظواهر لم تكن لتصرف الجنرال كليبر عن تبين حقيقة الموقف الحربي في مصر ، ذلك الموقف الذي يجعل بقاء الاحتلال الفرنسي في وادي النيل امرا مستحيلا ، فالحملة الفرنسية كانت محصورة من طريق البحر ولا منفذ لها الى فرنسا أو أي بلد تستند إليه في توطيد سلطتها ، هذا فضلا عن أن القوات الفرنسية ترابط وسط أمة معادية لها ، فكانت من هذه الوجهة مقضيا عليها بالفشل عاجلا أو آجلا ، لأن الجنود الفرنسية كانت موزعة في مثلث كبير يمتد طرفا قاعدته بين الاسكندرية والعريش ويقع رأسه في أسوان ، فهذا المثلث الفسيح المتباعد الأطراف كان مطلوبا من الجيش الفرنسي أن يوطد فيه سلطة فرنسا في وجه شعب لم يدع فرصة تمر إلا قاوم فيها الاحتلال الفرنسي بكل الوسائل ، ووجد أخيرا المعاونة من دولتين متحالفتين ضد فرنسا ، وهما تركيا وانجلترا .

ولا يغيبنّ عنك أن الجيش الفرنسي لم يكن يومئذ في قوته الأولى ، لأن المعارك والأمراض والحملات المتعاقبة قد أنهكت قواه ونقصت عدد رجاله وأفرغت من صفوفه .

قدر أحد قواد الحملة الفرنسية عدد جنودها في شهر سبتمبر سنة ١٧٩٨ بثلاثة وثلاثين ألف مقاتل ، وقدر عددهم في أول عهد قيادة كليبر بـ ٢٢٠٠٠ مقاتل ، فيؤخذ من هذه المقابلة أن عدد الجنود نقص بمقدار الثلث ، وفقد الجيش الفرنسي في المعارك والثورات نخبة من خيرة قواده ، ومعظم ضباط فرقة المهندسين ، واصطحب نابليون معه نخبة أخرى من القواد ، وسرى الملل واليأس إلى نفوس الجنود والقواد الباقين في مصر ، لاستحالة ورود

العدد والذخائر من فرنسا ، فأثرت هذه الحالة فى نفوسهم تأثيرا كبيرا وتضعضعوا لها ، فضعفت حالتهم المعنوية ، ثم زادت الحالة تفاقما لافتقار الجيش إلى كثير من حاجياته وضروراته .

وساءت الحالة المالية والاقتصادية عما كانت عليه قبل الحملة الفرنسية .

ولا جدال أن اشتداد الضيق بالشعب وشعور الناس بأن حالتهم الاقتصادية قد ازدادت سوءا فى عهد الفرنسيين كانت من البواعث التى أججبت نار السخط على الاحتلال .

قال الجنرال كليبر يصف هذه الحالة فى عهد قيادته :

«إن مصر بالرغم من السكون الظاهرى الذى شملها لا تعتبر إلا مذعنة لحكم القوة ، والشعب المصرى موزع الفكر ، قلق على مصيره ، ولا يرى فينا مهما فعلنا إلا أعداء ملكه وماله ، وقلبه متجه دائما الى الأمل فى حدوث الانقلاب الذى يتوقعه» .

مساعى كليبر فى عقد الصلح

بعد أن درس الجنرال كليبر حالة مصر ونفسية الشعب وأمعن النظر فى موقف الجيش الفرنسى فيها وعرف إجمالا الحالة العامة فى أوروبا وفى فرنسا اقتنع بأن لا فائدة ترجى من الاحتلال الفرنسى فى مصر ، وأن هذا الاحتلال مهما بقى فمصيره إلى الفشل ، لذلك أخذ يعمل الفكرة فى إنهاء هذا الاحتلال بطريقة تنقذ شرفه العسكرى ، لذلك فكر فى فتح باب المفاوضات مع تركيا لعقد صلح على قاعدة الجلاء عن مصر .

وكانت حجته فى الدخول فى مفاوضات الصلح أن نابليون فاتح الصدر الأعظم فى هذا الصدد برسالة بعث بها إليه قبل رحيله إلى فرنسا ، وفوض إلى كليبر إتمام هذه المفاوضة ، وخوّله عقد الصلح مع تركيا ولو كانت قاعدته الجلاء عن مصر .

فبعث كليبر إلى الصدر الأعظم برسالة يعرض فيها عقد الصلح بين الدولتين ويطلب منه إيفاد مندوب للمفاوضة فى قواعد الصلح .

والظاهر أن هذه الرسالة والرسالة التى تقدمتها من نابليون ألقتا فى روع تركيا أن مركز فرنسا أصبح من الحرج والضعف بحيث اضطرت إلى طلب الصلح ، فتلكأت فى الرد واستمرت فى تعبئة جيوشها للزحف على مصر .

تجدد القتال وهزيمة الأتراك فى عزبة البرج
أول نوفمبر ١٧٩٩

استمرت تركيا تعبىء جيوشها للحملة على مصر برا وبحرا ، وأعدت حملتها البحرية قبل أن تتم حشد جيشها فى سورية ، وبدأت تهاجم مصر من شواطئها الشمالية قبل أن يزحف جيشها من طريق برزخ السويس ، وهكذا وقعت فى الخطأ الذى وقعت فيه من قبل بانزال جيشها إلى شواطىء (أبو قير) قبل أن يزحف جيشها الآخر من طريق البر ، وكانت نتيجة ذلك الخطأ هزيمة الجيش العثمانى فى معركة أبوقير .

أقبلت العمارة العثمانية تجاه شواطىء دمياط فى أواخر شهر أكتوبر ١٧٩٩ وكانت مؤلفة من ثلاث وخمسين سفينة تقل سبعة الآف من خيرة الجنود الانكشارية تصحبها بارجة انجليزية وعليها الكومودور السير سدنى سميث قائد الأسطول البريطانى .

نزل الجنود العثمانيون إلى شاطىء البحر بالقرب من بوغاز دمياط فاحتلوا برج البوغاز الذى كان يحمى مصب النيل بالبر الشرقى ، وكانت الجنود الفرنسية معسكرة بين (عزبة البرج) وشاطىء البحر ، فساروا يوم أول نوفمبر سنة ١٧٩٩ لملاقاة الجنود العثمانية الذين رابطوا على شاطىء البحر بين بوغاز دمياط وبحيرة المنزلة ، ونشبت بين الفريقين معركة انتصر فيها الفرنسيون انتصارا كبيرا ـ ويقول الفرنسيون أنه قتل فى هذه المعركة زهاء ثلاثة الآف من الأتراك وأسر منهم ثمانمائة ، وعلم كليبر وهو فى القاهرة بنبأ نزول العثمانيين إلى شاطىء والهزيمة التى حلت بهم فشدد هذا الانتصار عزائم الفرنسيين وأعاد إليهم الاطمئنان على مصيرهم .

معاهدة العريش
٢٤ يناير سنة ١٨٠٠

بالرغم من انتصار الفرنسيين على الجنود التركية فى عزبة البرج فإن كليبر كان مقتنعا بضرورة الصلح وبإنهاء حالة الحرب التى كانت تركيا تعد المعدات لاستئنافها ، فعاد يطلب المفاوضة معها لعقد الصلح .

وانتهت المفاوضة بعقد معاهدة الصلح التى عرفت فى التاريخ باسم (معاهدة العريش) يوم ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ .

وهى تقضى بجلاء الجنود الفرنسية عن مصر بأسلحتهم وأمتعتهم وأثقالهم ، وإقلاعهم بحرا من ثغور الإسكندرية ورشيد وأبو قير على السفن

الفرنسية والسفن التى تعدها الحكومة العثمانية ، ولهذا الغرض ترسل الحكومة العثمانية إلى الإسكندرية بعد شهرين من التصديق على المعاهدة قومنيسيرا ومعه خمسون شخصا لإعداد السفن التى تقل الجنود ، ويتم الجلاء فى مدى ثلاثة أشهر وتكون بمثابة هدنة لتنفيذ شروط المعاهدة ، وفى حالة عدم ورود السفن التركية لنقل الجنود فى خلال هذه المدة تمد الهدنة إلى أن يتم رحيلهم ، وتعهد الطرفان بالمحافظة على سلامة الجنود والأهالى اثناء الجلاء ، ويتم نقل الجنود فى السفن بحسب النظام الذى يوضع بمعرفة مندوبين تعينهما تركيا والجنرال كليبر ، وإذا وقع خلاف بين المندوبين فى حالة نقل الجنود يعين السير سدنى سميث قائد الأسطول البريطانى مندوبا من قبله لحسم الخلاف طبقا للوائح البحرية البريطانية .

نظرة فى معاهدة العريش

إن معاهدة العريش تتحصل فى كلمة وجيزة ، وهى جلاء الفرنسيين عن مصر بلا قيد ولا شرط ، وهى أول وثيقة من الوثائق الدولية الحديثة اعترفت فيها الدولة المحتلة لمصر فى أواخر القرن الثامن عشر بفشل احتلالها وتعهدت بجلائها عن البلاد ، فهى بهذا الاعتبار خطوة فى سبيل تكوين مصر المستقلة ، لأن تركيا وإن كانت قد تولت عقد هذه المعاهدة على أنها صاحبة الولاية على مصر وقتئذ ، إلا انها فى الواقع لم تستطع أن تسترجع حكمها القديم على ضفاف وادى النيل او تضع يدها على البلاد ، وبذلك خلصت البلاد لأهلها ، فمعاهدة العريش هى الوثيقة الرسمية التى تعهدت فيها فرنسا بالجلاء عن مصر ، فهى إذن من أهم الوثائق الرسمية فى تاريخ مصر الحديث .

نقض المعاهدة ومعركة عين شمس
٢٠ مارس سنة ١٨٠٠

انهمك الفرنسيون فى إعداد معدات الجلاء ، ولكن الحكومة الانجليزية تسببت فى نقض معاهدة العريش وعودة الحرب والقتال ، وذلك أنها لم تقبل أن يبحر الجنود الفرنسيون بأسلحتهم إلى بلادهم ، وأصرت على أن يسلموا أسلحتهم ويسلموا أنفسهم كأسرى حرب ، وألا يسمح لهم بالذهاب إلى فرنسا ، وأرسل قائد الأسطول البريطانى إنذاراً بهذا المعنى إلى الجنرال كليبر .

كان هذا الإنذار نقداً صارخا لمعاهدة العريش ، فهو بمثابة إعلان لحرب جديدة عقيمة ، لأن جلاء الجنود الفرنسية عن مصر كان أمرا مقضيا ، وكان الفرنسيون جادين فى تنفيذ المعاهدة ، ومصر لم يكن يهمها إلا الجلاء ، لكن الحكومة الانجليزية كانت تريد إذلال فرنسا بسبب العداء الذى كان قائما بين الدولتين ، ولم تقبل أن يعود الجيش الفرنسى إلى بلاده كى لا يشترك فى الحروب الأوروبية بين فرنسا من جانب وانجلترا وحلفائها من جانب آخر ، وهكذا نفخت نار القتال فى مصر بغير جدوى بعد أن خمدت جذوتها واستعد الفرنسيون للجلاء ، ولقى الشعب المصرى فى ميدان الحرب الجديدة من الويلات والكوارث ما كان عنه بمنجاة ، ففى خلال هذه الحرب ثارت مدينة القاهرة ثورتها الثانية ، فسفكت فيها الدماء وأحرقت المدينة وتهدمت الدور وضاعت الأرواح وتفاقمت الخطوب ، كل ذلك لأن السياسة الانجليزية أبت أن تنفذ معاهدة اشتركت فى وضعها ولو أنها لم توقعها .

دارت معركة شديدة بين الجيش الفرنسى والجيش التركى يوم ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ عرفت بمعركة عين شمس وانتهت بفوز الفرنسيين واستيلائهم على معسكر الأتراك بالمطرية ، وكان لمدافع الفرنسيين الأثر الأكبر فى سير المعركة ونهايتها .

●

الفصل الخامس عشر :

ثورة القاهرة الثانية

٢٠ مارس ـ ٢١ أبريل سنة ١٨٠٠

لم يكد الجنرال كليبر يخرج ظافرا من معركة عين شمس حتى واجه فى القاهرة ثورة جديدة أشد وأعظم من ثورتها الأولى ، وتجددت حركات الهياج فى الوجه البحرى .

شبت نار الثورة فى القاهرة يوم ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ ومعركة عين شمس قائمة ، وكان من زعماء هذه الثورة السيد عمر مكرم والسيد محمد السادات والسيد أحمد المحروقى كبير التجار والشيخ الجوهرى ابن الشيخ محمد الجوهرى ، والسيد مصطفى البشتيلى .

لم يكد يسمع سكان العاصمة قصف المدافع فى ميدان المعركة حتى بدأت الثورة فى حىّ بولاق بزعامة السيد مصطفى البشتيلى .

والسيد (مصطفى البشتيلى) هو من أعيان بولاق ، سمى البشتيلى نسبة إلى (بشتيل) من أعمال الجيزة ، وقد سبق للفرنسيين أن اعتقلوه قبل هذه الثورة بعدة أشهر (فى ٤ أغسطس ١٧٩٩) لما بلغهم من بعض الوشاة أن بوكالته قدورا مملوءة بارودا ، ففتشوا الوكالة ووجدوا البارود فى القدور ، فضبطوها واعتقلوه ، ثم أطلقوا سراحه بعد إبرام معاهدة العريش لما عزموا على الجلاء ، فلما نقضت المعاهدة وتجددت الحرب كان البشتيلى من دعاة الثورة فى بولاق .

ثار أهل بولاق وحملوا ما وصلت إليه أيديهم من السيوف والبنادق والرماح والعصىّ ، واتجهوا بجموعهم صوب قلعة قنطرة الليمون لاقتحامها ، ولكن حامية القلعة ردت هجومهم بنيران المدافع ، فأعاد الثوار صفوفهم واستأنفوا الهجمة ، حتى وصل الفرنسيين المدد فشتتوا جموع الثائرين بنيران المدافع والبنادق ، وقتل فى هذا الهجوم ثلثمائة من الثوار .

هجوم الثوار على معسكر الفرنسيين

عمت الثورة أنحاء المدينة ، واتجه الثوار بجموعهم إلى معسكر القيادة

العامة للجيش الفرنسى بميدان الأزبكية ، وعددهم نحو عشرة آلاف ثائر ، فتلقى الجند هجوم الثائرين بنار شديدة من البنادق والمدافع ، فردوهم على أعقابهم وتقهقر الثوار واحتلوا بعض المنازل المجاورة للميدان لإطلاق النار على المعسكر ، فأقامت الجنود الفرنسية متاريس من جذوع النخيل للدفاع عن معسكرهم .

امتدت الثورة إلى كثير من النواحى ، وازداد عدد الجموع المنضمة إلى لوائها ، وانبث دعاة الثورة فى كل مكان يحرضون الناس على القتال ، وامتلأت بهم الشوارع والميادين والسطوح حتى بلغ عددهم خمسين ألف ثائر حاملين البنادق والأسلحة والعصىّ ، وانضم إليهم النساء والأطفال ، فكان لهم نداءات وصيحات تصم الآذان ، وهبت عاصفة الثورة على أحياء العاصمة كلها .

هجم الثوار على معسكر الفرنسيين ثانية فى ميدان الأزبكية ، واستعملوا فى الهجوم ثلاثة مدافع من مدافع العثمانيين التى كانت لهم فى المطرية ، ولعدم وجود القنابل استعاضوا عنها بكرات الموازين الحديد التى جلبوها من الوكائل والدكاكين ، ولكن الحامية الفرنسية كانت متحصنة فى المعسكر فثبتت لهم واستمر القتال إلى اليوم التالى ، وأخذت القلاع منذ ابتداء الثورة تضرب المدينة بالمدافع وتسلط قنابلها على الأحياء الثائرة .

وفى اليوم التالى (٢١ مارس سنة ١٨٠٠) اتسع نطاق الثورة ، وأسهمت فيها طبقات الشعب كافة .

وفى هذا اليوم حضرت قوة من الجيش الفرنسى أرسلها كليبر لنجدة حامية القاهرة ، جاءت فى نحو الساعة الثانية بعد الظهر وكانت ممتلئة حماسة بسبب انتصار الجيش الفرنسى فى معركة عين شمس ، فاكتسحت الشوارع الموصلة إلى معسكر الجنود فى الأزبكية ورفعت الحصار عنه وانضمت إلى الحامية وزادت فى تحصين المعسكر بحيث تعذر على الثوار اقتحامه .

اشتداد الثورة

ثم جاءت قوة أخرى وأرادت إعادة النظام فى المدينة ، ولكنها لم تستطع اقتحام الشوارع لكثرة ما كان بها من المتاريس والمنازل المحصنة ، فقد أقام الثوار المتاريس على أبواب المدينة وفى معظم أحيائها ، وكانت المتاريس على جانب كبير من المناعة فقد بناها الثوار فى الشوارع وبلغ علو بعضها اثنى عشر قدما ، وتحصن الناس حولها وتحمسوا للقتال ، وعبثا حاول بعض العقلاء أن يقنعوهم بانتصار الجيش الفرنسى فى معركة عين شمس ، فلم يقبلوا أى نبأ يكسر شوكة

الثورة ، وقتلوا الرسل الذين جاءوا بالأخبار الصحيحة عن المعركة ، وبذل الأهالى ما فى طوقهم لتأييد الثورة ، وأتوا فى هذا السبيل من الأعمال ما أدهش الفرنسيين ، فقد أنشئوا فى أربع وعشرين ساعة معملا للبارود فى بيت قائد أغا بالخرنفش ، وأنشئوا معملا لإصلاح الأسلحة والمدافع ، ومعملا آخر لصنع القنابل وصب المدافع جمعوا له الحديد من المساجد والحوانيت ، وتطوع الصناع للعمل فيه وقدموا ما لديهم من الحديد والآلات والموازين ، وأخذوا يجمعون القنابل التى تتساقط من المدافع الفرنسية فى الشوارع ويستعملونها قذائف جديدة للضرب .

قال المسيو مارتان أحد مهندسى الحملة الفرنسية وكان شاهد عيان لتلك الثورة : «لقد قام سكان القاهرة بما لم يستطع أحد أن يقوم به من قبل ، فقد صنعوا البارود ، وصنعوا القنابل من حديد المساجد وأدوات الصناع ، وفعلوا ما يصعب تصديقه ـ وما راء كمن سمع ـ ذلك أنهم صنعوا المدافع» .

وصول الجنرال كليبر

وصل الجنرال كليبر يوم ٢٧ مارس بعد ان ترك حاميات من الجنود فى الصالحية والقرين وبلبيس ، عاد إلى القاهرة ، فألفى نار الثورة تضطرم فى احيائها من اقصاها إلى اقصاها ، ورأى الضواحى والبلاد المجاورة لها قد اشتركت فى الثورة وأمدت ثوار القاهرة بالرجال والعتاد ، وشاهد فى بولاق ومصر القديمة حصونا أقامها الثوار للدفاع ، ووجد جميع الوكائل والمخازن التى على النيل قد تحولت إلي شبه قلاع احتلها الثوار وصارت الملاحة فى النيل تحت رحمتهم ، فرأى أن أخذ الثائرين بالقوة المسلحة قد لا يؤدى إلى إخماد الثورة لأن المتاريس كانت منتشرة فى أحياء القاهرة ، والثوار مستبسلون فى المقاومة ، وأن مهاجمتهم فى معاقلهم قد يفقده جنودا كان يومئذ فى حاجة إليهم ، وأن الحكمة تقتضى من ناحيته أن يأخذ بالمطاولة ويستخدم الزمن فى فل حدهم وتخضيد شوكتهم وبذر الشقاق بين صفوفهم ، فقد كانت الثورة تضم تحت لوائها ثلاثة عناصر ، وهم المصريون سكان القاهرة . والأتراك . والمماليك ، فهذه العناصر الثلاثة قد اجتمعت واتحدت وقتا ما لمحاربة العدو المشترك ، لكن اختلاف المصالح وتباين الأغراض كان عقبة فى سبيل دوام هذا الاتحاد ، وهذه العقبة وإن ذللت تحت لواء الثورة إلا أنها لا تلبث أن تبدو للعيان عند أول فرصة ، ولقد أوجد كليبر هذه الفرصة بمفاوضة زعماء الأتراك والمماليك فى وقف القتال ، واستمرت المفاوضة مع زعماء الأتراك ورؤساء المماليك فى وضع شروط الصلح ، أما اهالى القاهرة الذين على أكتافهم قامت الثورة فلم يحسب لهم حساب فى هذه المفاوضات ولم يمثلهم فيها أحد للدفاع عن مصالحهم ، والواقع أنهم العنصر الذى ثار غير مدفوع بأغراض شخصية أو أهواء ذاتية ، لكن زعماء الأتراك والمماليك

ما كانوا يقصدون من التحريض على الثورة والاشتراك فيها إلا استعادة سلطانهم الممقوت في البلاد ، ولقد أدرك الأهلون أن الأتراك والمماليك بدأوا يعبثون بهم ، ولذلك لم يكد يتم الاتفاق بين هؤلاء والفرنسيين على إلقاء السلاح حتى أدركوا أنهم فقدوا نفوذهم بين الجماهير فلم تعد تستمع لنصائحهم ، وأخذ دعاة الثورة من الأهالي يحرضون الناس على الاستمرار في القتال وضموا إليهم الجماهير فتنادوا بمواصلة القتال وخيانة المماليك والأتراك .

الصلح بين كليبر ومراد بك
٥ أبريل سنة ١٨٠٠

ظل مراد بك أثناء ثورة القاهرة مقيما في (طره) بعيدا عن حركات القتال ، وتمت مفاوضات الصلح بينه وبين كليبر وأمضيت معاهدة الصلح بينهما في ٥ أبريل سنة ١٨٠٠ بينما كانت مدافع الفرنسيين تصب قنابلها على سكان العاصمة .

وخلاصة احكام هذه الاتفاقية قبول مراد بك أن يحكم الصعيد تحت حماية فرنسا !

وسعى مراد بك سعيا حثيثا بعد توقيع معاهدة الصلح في أن يضم المماليك الذين في القاهرة إلى صفوف الفرنسيين ، ولما أعيته الحيل أشار على كليبر بإضرام النار في القاهرة إخمادا للثورة ، وتلك كانت نية الفرنسيين من قبل .

ومن هذا يتضح لك أن مراد بك قد اشترك في مأساة إحراق القاهرة ، وهكذا سعى ذلك الأمير الغادر في تدمير المدينة العظيمة التي مكنت له وقتا ما في البلاد وأغدقت عليه زمنا ما نعمة الحكم والجاه .

إخماد ثورة القاهرة

تم للفرنسيين إخضاع الوجه البحري في أوائل أبريل سنة ١٨٠٠ ، وكان ذلك بمثابة تطويق لمدينة القاهرة وتأهب لإخماد الثورة التي كانت تستعر نارها منذ ٢٠ مارس ، وكانت مدافع الفرنسيين في خلال هذه المدة تصلى المدينة نارا حامية وتطلق قذائفها على المنازل التي كانت ملجأ للثوار ، فلما جاءت فرقة الجنرال (رينييه) من الحدود الشرقية عسكرت أمام القاهرة واحتلت الآكام المشرفة على المدينة من قلعة (قنطرة الليمون) إلى (جامع الظاهر) ومنه إلى قلعة المقطم ، فأحاطت بالمدينة شمالا وشرقا ، وابتدأ

الهجوم على مواقع الثوار ليلة ٤ أبريل ، فأمر الجنرال كليبر بتقدم الكتائب الفرنسية من ناحية باب الحديد وكوم أبى الريش (بالفجالة) وقنطرة الحاجب وبركة الرطلى والحسينية وباب النصر ، وعهد إلى الجنرال رينييه أن يبذل كل ما فى طوقه للاستيلاء على جهة باب النصر وأن يصوب نيرانه إلى الجامع الأزهر .

قام جنود الجنرال (رينييه) بهذه المهمة ، فبدأوا هجومهم من باب الحديد واصطدموا فى أول القتال بمتراس من متاريس الثورة ، فقتل الضابط الذى يقود الكتيبة الأولى وتراجع الجنود إلى الوراء ، ثم تقدمت الكتيبة ثانية ، وطاردت الثوار واقتلعت المتاريس التى كانوا يتحصنون فيها ، واقتحمت المنازل التى كانوا ممتنعين بها وأضرمت النار فى المبانى التى كانت تعوق تقدم الجنود ، واستطاعت ان تسند ميسرتها إلى سور القاهرة القديم وميمنتها إلى مواقع الفرنسيين فى ميدان الأزبكية ، واشتد القتال حول المواقع التى احتلها الفرنسيون ، واستردها الثوار المرة بعد المرة ، ولكن الفرنسيين تمكنوا فى المرة الثانية من تثبيت أقدامهم فيها ، وظلت المناوشات بين الفرنسيين والثوار من يوم ٥ أبريل إلى ١٠ منه .

وفى يوم ١٢ أبريل اعتزم الجنرال كليبر توطيد مركز جنوده باحتلال كوم أبى الريش (بالفجالة) الذى كان الثوار متحصنين به ، وكان هذا الكوم نقطة ارتكاز قوية للثوار لأنه قائم على أكمة تقطع المواصلات بين جامع الظاهر والمعسكر العام للجنود الفرنسية فى الأزبكية ، فعهد كليبر إلى جنود الجنرال رينييه بأحتلاله ، فهجم الجنود وأجلوا عنه الثوار ، وفى الوقت نفسه هجمت قوة أخرى على المنازل المحيطة ببركة الرطلى واقتحمتها وأضرمت فيها النار واستبقت منها بعض المنازل التى تصلح للتحصن فيها ، وتحصن الجنود فى كوم أبى الريش وأقاموا به الاستحكامات ، فكر عليهم الثوار ، ولكن الجنود ردّوهم على أعقابهم ، واستمر القتال حوله إلى صبيحة ١٣ أبريل حيث رسخت قدم الفرنسيين فيه .

هذا ما وقع فى الميسرة ، أما الميمنة ، فى جهة الأزبكية ، فقد كان الثوار يحتلون بيت فرقة الهندسة الكائن بميدان الأزبكية ، فضربه الجنود بالمدافع وأحدثوا به ثغرات هجم منها الفرنسيون واحتلوا المنزل بعد أن أجلوا عنه الثوار ، ولكن الثوار امتنعوا فى بيت آخر بالقرب من بين فرقة الهندسة يعرف ببيت أحمد أغاشويكار وركبوا مدفعا فى حديقة منزل السيد البكرى فأخذوا يطلقون النار من الجهتين على الجنود الفرنسية ، لكن الفرنسيين أصابوا المدفع المركب فى حديقة البكرى بقنابلهم وأتلفوه ، فانحصر الثوار فى بيت احمد أغاشويكار .

استمر القتال سجالا والثوار لا يذعنون ولا يسلّمون ، وبدأت ذخائر القلاع تنقص بسبب كثرة الضرب ، فأخذت القذائف في النقصان وخفت وطأة الرمي ، فظن الأهالي أن هذا علامة على ضعف القوات الفرنسية ، فاشتدت حماستهم واستعدوا لمضاعفة الجهد والقتال ، لكن الفرنسيين تلقوا مددا جديدا ، وذلك أن الجنرال (بليار) عاد من دمياط بعد ما أخضعها وترك بها فصيلة من الجنود ورجع بمعظم قواته إلى القاهرة يوم ١٣ أبريل ، فعسكر أمام بولاق التى كانت معقل الثورة ، فلما وصل هذا المدد اعتزم الجنرال كليبر أن يستولى عنوة على حيّ بولاق ويخمد فيه الثورة بكل ما لديه من قوة .

مأساة بولاق

فى اليوم الرابع عشر من شهر أبريل سنة ١٨٠٠ أنذر الجنرال كليبر العاصمة بالتسليم ، ولكن الثوار لم يعبئوا بالإنذار ، ففى اليوم التالى ١٥ ابريل ، بدأ الجنود بالهجوم على حيّ بولاق قبل شروق الشمس وأخذوا يضربونه بالمدافع ، وكانت مداخل الحى محصنة والثوار ممتنعون خلف المتاريس وفى البيوت ، فأجابوا على ضرب المدافع بإطلاق النار من المتاريس والبيوت المحصنة ، ولكن نار المدفعية الفرنسية حطمت المتاريس القائمة على مدخل الحي ، فثغرت فيها ثغرة كبيرة اندفق منها الجنود إلى شوارع بولاق ، وأضرموا النار فى البيوت القائمة بها ، فاشتعلت فيها واتسع مداها ، وامتدت إلى مبانى الحى من مخازن ووكائل ومحال تجارة فالتهمتها وما كان فيها من المتاجر العظيمة ودمرت هذا الحى الكبير الذى يعد ميناء للقاهرة ومستودعا لمتاجرها ، وهدمت الدور على سكانها فباد كثير من العائلات تحت الأنقاض أو فى لهب النار .

ولما بلغت المأساة مداها طلب الأهالى التسليم ، فأجيبوا إلى طلبهم ، ولم يكتف الفرنسيون بما حل ببولاق من الخراب والتدمير ، بل فرضوا على أهلها غرامة جسيمة قيمتها ٢٠٠ ألف ريال ، وأخرى على متاجرها قيمتها ٣٠٠ ألف ريال تجبى عروضا من السكر والبن والزيت والحبال والتيل والقطران والنحاس والحديد والرصاص ، وفرضوا على الأهالى أن يسلموا ما عندهم من المدافع والذخائر الموجودة فى ترسانة بولاق وما لديهم من الأخشاب والغلال والشعير والأرز والعدس والفول ، وأن يسلموا أربعمائة بندقية ومائتى طبنجة ، وقُتل السيد مصطفى البشتيلى رئيس الثوار .

الهجوم على مواقع الثوار

أثرت النكبة التى حلت ببولاق فى سائر أنحاء القاهرة ، وانتهز الجنرال

كليبر فرصة الفزع الذى استولى على النفوس فأمر جنوده بالهجوم العام على مواقع الثوار ، وابتدأ هذا الهجوم يوم ١٨ أبريل سنة ١٨٠٠ ، وكان نذيره بينهم أشعال النار فى لغم وضعه الفرنسيون تحت جدار بيت احمد أغاشويكار الذى كان الثوار ما يزالون يحتلونه ، فلما انفجر اللغم نسف المنزل بمن فيه واحترقوا عن آخرهم ، وهاجم الفرنسيون المدينة هجوما عاما من جهات متعددة .

وانقضت الأيام التالية والقتال مستمر ولكنه أقل شدة مما كان فى اليوم الأول ، وكان الفرنسيون فى خلال هذه الايام يوطدون مركزهم فى المواقع التى غنموها ويضيقون على الثوار ، واشتد الضيق بالأهالى وسرى إليهم الملل من استمرار حالة الحرب وما حاق بهم من الفظائع والأهوال ، فجنحوا للتسليم لوضع حد لمأساة القتال وخاصة بعد أن أسرف الفرنسيون فى ارتكاب الفظائع لإخماد الثورة ولجئوا إلى الطريقة الوحشية التى اتبعوها فى كثير من المواطن وهى إضرام النار فى الأحياء الآهلة بالسكان وإرسالها على المدينة وأهلها موتاً أحمر ، فأحدثت الحرائق تخريبا فظيعا فى القاهرة ، واحترقت أحياء برمتها وتهدمت بيوت عامرة ودفنت تحت أنقاضها عائلات بأكملها ، ومن الأحياء التى التهمتها النار خط الأزبكية وخط الساكت والفوالة والرويعى وبولاق وبركة الرطلى وما جاورها وباب البحر والخروبى والعدوى إلى باب الشعرية .

وانتهت المفاوضة فى الصلح بعقد اتفاق فى ٢١ أبريل سنة ١٨٠٠ بوقف القتال .

وتعهد الجنرال كليبر فى هذا الاتفاق بأن يعفو عفوا عاما عن جميع اهالى القاهرة وعن المصريين الذين اشتركوا فى الثورة ، ولكنه اشترط ألا يغادر المدينة أحد من المصريين بقصد اللحاق بالجيش العثمانى .

وأخذ الأتراك والمماليك بعد التوقيع على معاهدة التسليم يعدون معدات الرحيل ، ثم ارتحلوا بطريق بلبيس وسار معهم زعماء الثورة من المصريين أمثال السيد عمر مكرم والسيد احمد المحروقى كبير التجار ، وهاجر من العاصمة عدة آلاف من السكان ممن توقعوا انتقام الفرنسيين فتفرقوا فى البلاد ، وقد كانوا محقين فى مخاوفهم ، لأن كليبر نقض عهده فى هذا الصدد .

وبإبرام شروط التسليم انتهت ثورة القاهرة بعد قتال دام ثلاثة وثلاثين يوما ، وعادت السلطة وقتا ما إلى الفرنسيين .

وسادت السكينة أنحاء الوجه البحرى والوجه القبلى ، وأصبح الجنرال كليبر حاكما بأمره فى البلاد وهو الذى كان قبل شهرين يعد معدات الرحيل عنها ، ولكن السياسة الانجليزية هى التى غيرت سير الأمور وتسببت فى



ميدان الأزبكية فى أواخر القرن الثامن عشر ، وكانت مياه النيل تغمره فى أيام الفيضان فيصير لجة يتنزه فيها الناس بالزوارق فى النهار والليل .

نقض معاهدة العريش ومنعت الجنود الفرنسية من السفر إلى فرنسا فأشعلت نار الحرب ثانية بين الأتراك والفرنسيين وانتهت هذه الحرب بانتصار الفرنسيين فى معركة عين شمس وإخماد ثورة القاهرة بقوة السيف والنار .

بعد إخماد الثورة
غرامات فادحة ـ اعتقال واضطهاد

كان أول عمل للجنرال كليبر بعد عودة السلطة إليه أن نقض عهده فى العفو العام عن كل من لهم يد فى الثورة ، فقد أمر بالاقتصاص من سكان القاهرة جميعهم بفرض غرامة جسيمة تنوء بها أكبر العواصم وبخاصة بعد ما حل بها من الخراب والدمار .

فرض على سكان القاهرة غرامة قدرها اثنا عشر مليون فرنك يوفى نصفها نقدا ونصفها عروضا ، وألزم سكان المدينة بتسليم عشرين الف بندقية وعشرة الاف سيف وعشرين ألف طبنجة ، وخص بعض كبار الأعيان والعلماء بنصيب فادح من هذه الغرامة .

فصودرت أملاك السيد أحمد المحروقى كبير التجار ، وفرضت على السيد محمد السادات غرامة قدرها ١٥٠,٠٠٠ ريال (٨٠٠ ألف فرنك تقريبا) والشيخ مصطفى الصاوى ٥٠,٠٠٠ ريال (٢٦٠ ألف فرنك) والشيخ محمد الجوهرى وأخيه الشيخ فتوح ٥٠,٠٠٠ ريال .

وأمر كليبر بتوزيع الباقى على سكان المدينة على اختلاف طوائفهم وطبقاتهم ، واعتقل خمسة عشر رجلا من كبرائهم رهينة لوفاء هذه الغرامة .

ومن الصعب ان نتعرف كيف وفق كليبر بين هذه الغرامات والعهد الذى قطعه على نفسه بأن يعفو عمن اشتركوا فى ثورة القاهرة . لكنها القوة الغشوم والروح الاستعمارية لا عهد لها ولا ميثاق .

وقد أسرف الفرنسيون فى إرهاق سكان القاهرة وإذلالهم ، واعتقلوا الكثيرين منهم لإكراههم على دفع نصيبهم فى الغرامة ، وفتشوا جميع المنازل بحجة البحث عن السلاح ، وتفننوا فى ضروب القهر والنكال ، واشتد الضيق بالناس مما لاقوه من المصائب والأهوال ، فخربت بيوت عامرة وخرج كثير من الناس عن أموالهم وباعوا متاعهم ، ومات كثير منهم فى السجون ، وهاجر من استطاع الهجرة فرارا من الظلم والاضطهاد ، وقلما توجد فى تاريخ الثورات فجائع تشبه ما عانته القاهرة بعد إخماد ثورتها الثانية .

اضطهاد الفرنسيين للسيد السادات

كان السيد محمد السادات هدفا لأقسى ضروب الانتقام والاضطهاد ، فقد خصّه الجنرال كليبر بأكبر غرامة ، وعامله الفرنسيون بقسوة لا نظير لها ، فاعتقلوه غير مرة وأهانوه وصادروا أمواله واضطروه إلى بيع أملاكه توفية للغرامة التى فرضوها عليها ، وأفرطوا عليه فى القسوة ولم يراعوا مقامه بين الناس ولا منزلته فى البلاد ، وقد احتمل من صفوف الإرهاب ما لم يصب غيره من أنداده ولا من قومه .

وقد أشار نابليون فى مذكراته إلى ما أصاب السيد السادات من الاضطهاد والتعذيب وقال إن الجنرال كليبر أمر بتعذيبه وضربه ، وكان هذا من أهم الأسباب التى أدت إلى مقتل كليبر .

وقال فى موضع آخر : «إن السادات قد خص بغرامة فادحة ، وكان معروفا عنه كرهه للفرنسيين ، على أنهم أسرفوا فى إهانته لدرجة أنهم نسوا مقامه المستمد من نسبه ومولده ، فقد رفض أن يدفع الغرامة فاعتقل وسجن بالقلعة ، ولم يعبأ بالتهديد والوعيد ، فأمر كليبر بضربه بالعصىّ ، وهكذا ضرب السادات وأهينت السلالة النبوية ، فعم السخط رجال الشرع والعلماء والشعب ، وكانت هذه المعاملة على النقيض من معاملة نابليون للسادات عقب ثورة سنة ١٧٩٨ فقد قابله بالعفو والتسامح مع قيام البيانات عليه بأنه زعيم الثورة» .

ويقول نابليون ايضا فى مذكراته ان لاضطهاد السادات دخلا فى مقتل الجنرال كليبر لأنه لا يمكن أن يجهل علماء الأزهر ما كان ينويه سليمان الحلبى من اغتيال كليبر فقد قضى بالأزهر نحو ثلاثين يوما مصمما على القتل ، لكنهم تجاهلوا نية القاتل وتجاهلوا كل ماله علاقة به لأنهم كانوا يودون الانتقام من الجنرال كليبر .

بقى السيد السادات معتقلا فى القلعة ولم يفرجوا عنه إلا فى ١٩ يوليه سنة ١٨٠٠ فى عهد قيادة الجنرال (مينو) بعد أن سدد الغرامة المفروضة عليه ، واشترطوا عليه عدم الاجتماع بالناس وألا يركب بدون إذن منهم ويقتصد فى أموره ومعاشه وتقليل اتباعه ، أى أنه بقى فى داره رهن المراقبة وحددوا إقامته ، ثم اعتقلوه للمرة الرابعة فى أوائل مارس سنة ١٨٠١ بعد وصول الحملة الانجليزية العثمانية إلى (أبوقير) .

●

مقتل الجنرال كليبر
وجــلاء الفرنســيين

كان موقف كليبر فى أوائل شهر يونيه سنة ١٨٠٠ غاية فى المنعة ، وقد قويت آماله فى أن يخلد مركزه فى وادى النيل ويحقق مشروعاته الاستعمارية ، لكن هذه الآمال تحطمت فى لحظة واحدة ، وهى اللحظة الرهيبة التى امتدت إليه فيها يد (سليمان الحلبى) بطعنة خنجر أردته صريعا .

كان ذلك يوم السبت ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠ (٢١ محرم سنة ١٢١٥) ، ففى صباح هذا اليوم ذهب كليبر إلى جزيرة الروضة ليعرض كتيبة الأروام الذين انخرطوا فى سلك الجيش الفرنسى بمصر وعاد بعد العرض إلى الأزبكية ليتفقد أعمال الترميم التى كانت تعمل فى دار القيادة العامة ومسكن القائد العام (سراى الألفى بك) لإزالة آثار الاتلاف الذى أصابها من قنابل الثوار ، وكان يصحبه المسيو بروتان المهندس المعمارى ، فتفقدا الأعمال معا ، ثم ذهبا إلى دار الجنرال داماس رئيس أركان الحرب حيث أعد وليمة غداء للقائد العام دعا إليها طائفة من القواد وأعضاء المجمع العلمى ورؤساء الإدارة فتغدى كليبر مع المدعوين ، وكان منشرح الصدر على المائدة يتحدث مطمئنا عن الحالة فى مصر ، واستمرت الوليمة إلى الساعة الثانية بعد الظهر ، ثم انصرف كليبر يصحبه المهندس بروتان عائدين إلى دار القيادة العامة ليستأنفا تفقد أعمال الترميم والإصلاح فيها ، وكانت حديقة السراى تتصل بدار رئيس أركان الحرب برواق طويل تظلله تكعيبة من العنب .

فسار كليبر وبجانبه بروتان فى هذا الرواق يتحدثان فى إصلاح السراى ، وبينما هما سائران إذ خرج عليهما رجل يكمن وراء بئر عليها ساقية ، فاقترب من الجنرال كليبر كمن يريد ان يستجديه أو يتوسل إليه ، فلم يرتب كليبر فى نية ذلك السائل ، لكنه لم يكد يلتفت إليه حتى عاجله بطعنة خنجر مميتة أصابته فى صدره ، فصاح كليبر «إلىّ أيها الحراس» ثم سقط على الأرض مضرجا فى دمه ، وهنالك أسرع المسيو بروتان فى تعقب القاتل ، فلما أدركه تماسك الاثنان ، فطعنه القاتل ست طعنات سقط منها على الأرض بجوار

كليبر ، وعاد القاتل مرة ثانية إلى كليبر فطعنه ثلاث طعنات ليجهز عليه ، بيد أن الطعنة الأولى كانت القاضية لأنها نفذت إلى القلب ، ولاذ القاتل بالفرار وتوارى عن الأنظار مختفيا فى حديقة السراى ، ولم يبق فى مكان الحادث مما يدل عليه سوى جزء من عمامته التى تمزقت اثناء صراعه مع بروتان ، وأقبل الحارس الذى سمع الصيحة يعدو ، فلما رأى هذا المنظر الرهيب ولى مسرعا إلى دار الجنرال داماس فأخبر القوم بما رآه ، فاقبل من كانوا موجودين إلى مكان الحادثة ، فرأوا الجنرال كليبر مضرجا فى دمائه وبجانبه بروتان مغمى عليه من شدة الطعنات التى أصابته ، فهالهم ، ما أبصروه ، ونقلوا الجنرال كليبر إلى دار رئيس أركان الحرب ، وجاء كبير أطباء الجيش لإسعاف الجنرال كليبر فألفاه قد أسلم الروح دون أن ينطق بكلمة .

انتشر الخبر فى القاهرة بسرعة البرق ، فتلقاه الأهالى بالدهشة والجزع الشديد لتوقعهم الانتقام والنكال ، وتلقاه الجنود الفرنسيون بالغضب والسخط والتحفز للوثبة على الأهالى الأبرياء ، وضرب النفير العام فى أحياء القاهرة جمعا لشتات الجنود الفرنسيين فأقبلوا من كل صوب وحدب إلى ميدان الأزبكية يتنادون بالانتقام والأخذ بالثأر ويتهددون بإحراق المدينة ، فاستولى الفزع على الناس ، وأقفلت الدكاكين ، وخلت الطرق من المارة ، وأخذت دوريات الجنود تطوف الشوارع والأحياء وخاصة المجاورة لميدان الأزبكية للبحث عن القاتل الذى كان بعد مختفيا عن الانظار ، ثم عثروا عليه مختفيا وراء حائط مهدوم فقبضوا عليه وتبين أنه طالب علم بالأزهر اسمه (سليمان الحلبى) وعمره أربع وعشرون سنة ، واعترف بالقتل .

وحوكم سليمان الحلبى أمام محكمة عسكرية فرنسية هو ومن اتهموا بالاشتراك معه ، فحكم عليه وعلى أربعة من طلبة العلم بالأزهر وهم محمد الغزى وأحمد الوالى وعبدالله الغزى وعبدالقادر الغزى (وكان هذا الأخير غائبا) بإدانتهم وحكم على سليمان الحلبى بإحراق يده لليمنى ثم إعدامه على الخازوق وترك جثته تأكلها الطير ، وإعدام شركائه الأربعة بقطع رءوسهم وإحراق جثثهم بعد الإعدام ، ونفذ فيهم الحكم علنا عدا المتهم الغائب عبد القادر الغزى .

إقفال الأزهر

زاد ارتياب الفرنسيين فى الأزهر بعد مقتل الجنرال كليبر ، إذ كان يأوى إليه سليمان الحلبى وشركاءه ، وبه قضى القاتل نحو ثلاثين يوما مصمما على القتل ، ولم يقتنع الفرنسيون بأن علماء الأزهر كانوا يجهلون نية القاتل قبل ارتكاب الجناية ، وقد استدعوا الشيخ عبدالله الشرقاوى شيخ الجامع

الأزهر والشيخ احمد العريشي قاضي مصر وحجزوهما إلى منتصف الليل ، والزموهما البحث عن الأزهريين الأربعة الذين ذكرهم سليمان الحلبي في اعترافه واحضارهم ولما انقضت محاكمة سليمان الحلبي وشركائه ذهب الجنرال (منو) إلى الأزهر يصحبه قومندان المدينة (الجنرال بليار) والمحافظ وطافوا به وشرعوا في حفر ما به من الأماكن بحجة التفتيش على السلاح ، فأخذ طلبة العلم في نقل أمتعتهم منه ونقل كتبهم وإخلاء الأروقة ، وكتب الفرنسيون اسماء الطلبة في كشوف وأمروهم أن لا يؤوا بالجامع غريبا ، وأخرجوا منه المجاورين العثمانيين ، فلما رأى العلماء ان الأزهر أصبح عرضة للريبة والتفتيش عرضوا على الفرنسيين إقفاله مؤقتا ، وكان هؤلاء يميلون إلى إقفاله إذ يرون فيه معقلا للثورة ضدهم ، فأقفلوه يوم ٢١ يونيه سنة ١٨٠٠ ، وظل الأزهر مقفلا إلى أن شرع الفرنسيون في الجلاء عن مصر فأعيد فتحه في يونيه سنة ١٨٠١ .

وساد الذعر المدينة بعد مقتل الجنرال كليبر ومحاكمة القاتل وشركائه ، فهاجر كثير من العلماء والأعيان إلى الأقاليم وتبعتهم الجماهير من الناس حتى اضطرت السلطة الفرنسية لوقف تيار الهجرة إلى إصدار أمرها بمنع انتقال الناس ورجوع المهاجرين منهم ، وأنذرت من لم يرجع بعد خمسة عشر يوما بنهب داره ، فعاد أكثر المهاجرين خوفا على بيوتهم أن تنهب وأموالهم أن تصادر .

قيادة الجنرال منو Menou

تولى الجنرال منو قيادة الجيش الفرنسي بعد مقتل كليبر ، ولم يكن توليه القيادة راجعا الى كفاية عسكرية او مواهب سياسية او ادارية ، بل لانه اقدم قواد الفرق في الخدمة ، فالصدفة هي التي قضت بأن يخلف كليبر ونابليون ، اما منو في ذاته فلم يكن على صفات تؤهله لتولي ذلك المنصب الخطير ، فقد كان في حياته الحربية بعيدا عن خوض غمار المعارك . وكأنما كان يجتهد على الدوام في ان يكون بعيدا عنها .

وكان من الجهة السياسية مجردا من الكفاية والحزم وحسن التدبير . على انه كان على جانب كبير من الغرور والاعتداد بنفسه . ولعل السبب في ذلك راجع الى انه كان زمنا ما عضوا في الجمعية الوطنية الفرنسية ، وشهد المعارك السياسية وخالط اقطاب الثورة الفرنسية الكبرى ، فظن ان عضويته في الجمعية الوطنية قد وضعته في مصاف رجال السياسة والدولة ، على انه في الواقع كان خلوا من الكفاية السياسية ، ولكنه وصل الى التقرب من

نابليون بالتملق والرياء والتظاهر بالاخلاص له . فكسب عطفه ورعايته . وكان معروفا عنه الحقد على كليبر لمنزلته بين القواد والجند .

ولم يكد يتولى القيادة بعد مقتل كليبر حتى عمل على توطيد مركزه فيها . ولما كان يعتقد انه لا يستطيع ان يصل الى كسب احترام القواد والضباط فقد أخذ يوطد مركزه بالدسائس والسعايات ، واخذ يعمل على اقصاء اصدقاء كليبر وخلق حزب من المتملقين الذين يأسرهم بترقيتهم واغداق النعم عليهم ليكونوا عونا له فى قضاء أغراضه ، فنقم عليه قواد الجيش وضباطه الاكفاء وسخروا منه لما كان يأتيه من الأعمال البعيدة عن الحكمة . وغنى عن البيان أن الجيش الذى يتولاه قائد غير حائز لثقة رجاله لا يمكن أن يستبقى قوته ووحدته ، ولابد أن يدب فى صفوفه التفكك والأنقسام ، وقد كان هذا حال الجيش الفرنسى فى مصر بعد ماتولى (منو) قيادته العامة ، وشعر قواد الجيش وكبار ضباطه أنه يعبث بهم ويعرض مصير الجيش للخطر ، واكثر هو من تنقلات الجنود بلا جدوى ونقل بعض القواد من مراكزهم .

ولم يكتم (منو) كراهيته لكليبر ، ولا كان يبدو منه احترام لذكراه وبلغت به كراهيته انه رزق ولدا من زوجته المصرية فأسماه "سليمان" ، وهذا الاسم كان يثير فى نفوس الجنود والقواد الفرنسيين لوعة الحزن على فقيدهم لأنه اسم سليمان الحلبى قاتل الجنرال كليبر . فكان لاختيار منو لهذا الاسم اثر استياء كبير فى نفوس الجيش الفرنسى .

مسألة إسلام منو وزواجه

فكر الجنرال منو وهو حاكم لرشيد فى التقرب إلى الشعب لدرجة الاندماج فيه ، فاعتزم التزوج من سيدة مصرية شريفة المحتد ، والجنرال منو من سلالة اشراف فرنسا ، فأراد أن يجمع بين شرف أسرته وشرف مصاهرته عائلة مصرية عريقة فى النسب ، وقد استتبع هذا المشروع اعتناقه الإسلام ليتسنى له التزوج من سيدة مسلمة ، فأسلم قبل الزواج .

ولم يكن منو يقصد اختيار سيدة بالذات ، بل كل ما كان يرمى إليه أن يصاهر عائلة تتصل بالسلالة النبوية ، فرغب بداءة ذى بدء فى مصاهرة الشيخ الجارم عميد أسرة الجارم العريقة فى الشرف والعلم ، ولكن يظهر ان الشيخ تورع عن هذه المصاهرة واراد ان يسد الطريق امام الجنرال منو ، فلم يكد يسمع بهذه الرغبة حتى بادر بتزويج كريمتيه الاثنتين إلى اثنين من الاهلين ليتخلص من مصاهرة الجنرال ، وقد حققت الحوادث صدق نصره ، فإن الجنرال منو اساء معاملة زوجته المصرية بعد جلاء الفرنسيين ، واذ

رفض الشيخ الجارم مصاهرته فقد طلب منو التزوج من سيدة اخرى تدعى زبيدة كريمة السيد محمد البواب أحد اعيان رشيد ، وكانت مطلقة سليم أغا نعمة الله ، فقبل أبوها وقبلت هى الزواج بالجنرال ، وتم عقد زواجهما فى وثيقة شرعية تضمنت اعتناقه للاسلام وزواجه بالسيدة المذكورة . وتسمى منو فى وثيقة الزواج باسم "عبدالله باشا منو" . وهذه الوثيقة مؤرخة فى ٢٥ رمضان سنة ١٢١٣ (يوافق ٢ مارس سنة ١٧٩٩) ومسجلة فى دفتر خانة محكمة رشيد الشرعية وموجودة بها الى الان .

وقد تظاهر الجنرال منو بتمسكه بالشعائر الاسلامية حتى كان يؤدى صلاة التراويح فى شهر رمضان المعظم بمساجد رشيد ، وكتب الى نابليون ينبئه بذلك ويقول فى رسالة اليه إن هذه الطريقة قد حببته إلى نفوس الاهالى .

وكانت حادثة زواج منو فريدة فى بابها ، لانه لم يسبقه اليها احد من قواد الجيش الفرنسي .

وقد رزق من زوجته ولدا اسماه (سليمان مراد جاك منو) وكانت ولادته فى شهر شعبان سنة ١٢١٥ (يناير سنة ١٨٠١) وقامت السيدة زبيدة مع زوجها برشيد وبقيت بها بعد ان تولى القيادة العامة للجيش الفرنسي وظلت بها الى ان احتلها الاتراك والانجليز فخرجت فى صحبة اخيها لامها السيد على الحمامى وانتقل بها الى الرحمانية ، ولما احتلها الحلفاء قدم بها الى مصر فدخلاها فى اوائل محرم سنة ١٢١٦ ونزلا بدار القائد العام بالازبكية ثم انتقلا الى القلعة ليكونا بمأمن من الاضطرابات . وكان (منو) وقتئذ بالاسكندرية .

وبقيت السيدة زبيدة وابنها وحاشيتها بالقاهرة الى ان ابرم الجنرال بليار شروط التسليم وتم جلاء الفرنسيين عنها . فاذن لها قائد الجيش الانجليزى بالسفر الى الاسكندرية لتلحق بزوجها . على ان منو طلب الاذن لها بالسفر الى فرنسا فرحلت اليها على احدى السفن التى اقلت جيش الجنرال بليار ، ولما جلا الجيش الفرنسى عن الاسكندرية ووصل منو الى فرنسا التقى بزوجته هناك وظلت فى عصمته . على انه يؤخذ من الوثائق والمراجع الصحيحة ان منو قد اساء معاملة زوجته المصرية وتنكر لها وهجرها فى تورينو (بايطاليا) وابدل بها بعض الراقصات واتخذهن خليلاته وتركها تعانى غصص العيش وغضاضة الهجر الى ان توفيت بها .

سياسة منو إزاء المصريين

كان (منو) من دعاة اتخاذ مصر مستعمرة فرنسية ، فهو فى سياسته نحو المصريين من حزب الاستعمار ، وهذا وحده كاف للدلالة على مافى نفسه من نزعة الظلم والعدوان . وهذه النزعة تفسر لك كثير من تصرفاته ، فانه لم يكن

فى علاقته بالشعب خيرا من سلفه .

ضرائب وإتاوات فادحة

فقد اخذ يجبى الباقى من الغرامة التى فرضها كليبر على المدينة ، وفرض عليها هو ضريبة جديدة قدرها اربعة ملايين فرنك فرضها على ملاك الدور ومستأجريها والملتزمين والتجار وارباب الحرف ، فهال الناس امر هذه الضريبة لقرب عهدهم بالغرامة الفادحة التى فرضها كليبر عليهم وما قاسوه بسبب جبايتها من الأهوال .

وعهد الفرنسيون امر تحصيل الضريبة الجديدة إلى مشايخ الحارات والمماليك الساكنين بالمدينة ، وكانوا اذا اصابوا دارا مغلقة قد غاب صاحبها يأخذون الضريبة التى عليها من الجيران !!

وفرضوا ضريبة اخرى قدرها مليون فرنك على التجار وارباب الصنائع والحرف .

قال الجنرال رينييه Reynier احد قواد الحملة الفرنسية فى هذا الصدد : "إن التجارة التى ارهقتها المكوس والاتاوات المختلفة قد ازداد كسادها وحل بها البوار بعد الامر الذى اصدره (منو) بفرض اتاوات جديدة على نقابات الحرف والتجار ، فإن تجار القاهرة وبولاق الذين نهبت دكاكينهم او صودرت متاجرهم بعد الثورة واخمادها ودفعوا نحو نصف الاثنى عشر مليون فرنك التى فرضت على المدينة كغرامة حربية لم يكادوا يتنفسون ويعودون الى العمل حتى باغتتهم الاتاوات الجديدة ، وكذلك حدث لتجار دمياط والمحلة الكبرى وطنطا وغيرها ، ففرضت عليهم ضرائب اوقعتهم فى الضيق فاضطر معظمهم الى اقفال دكاكينهم وترك الاشتغال بالتجارة" .

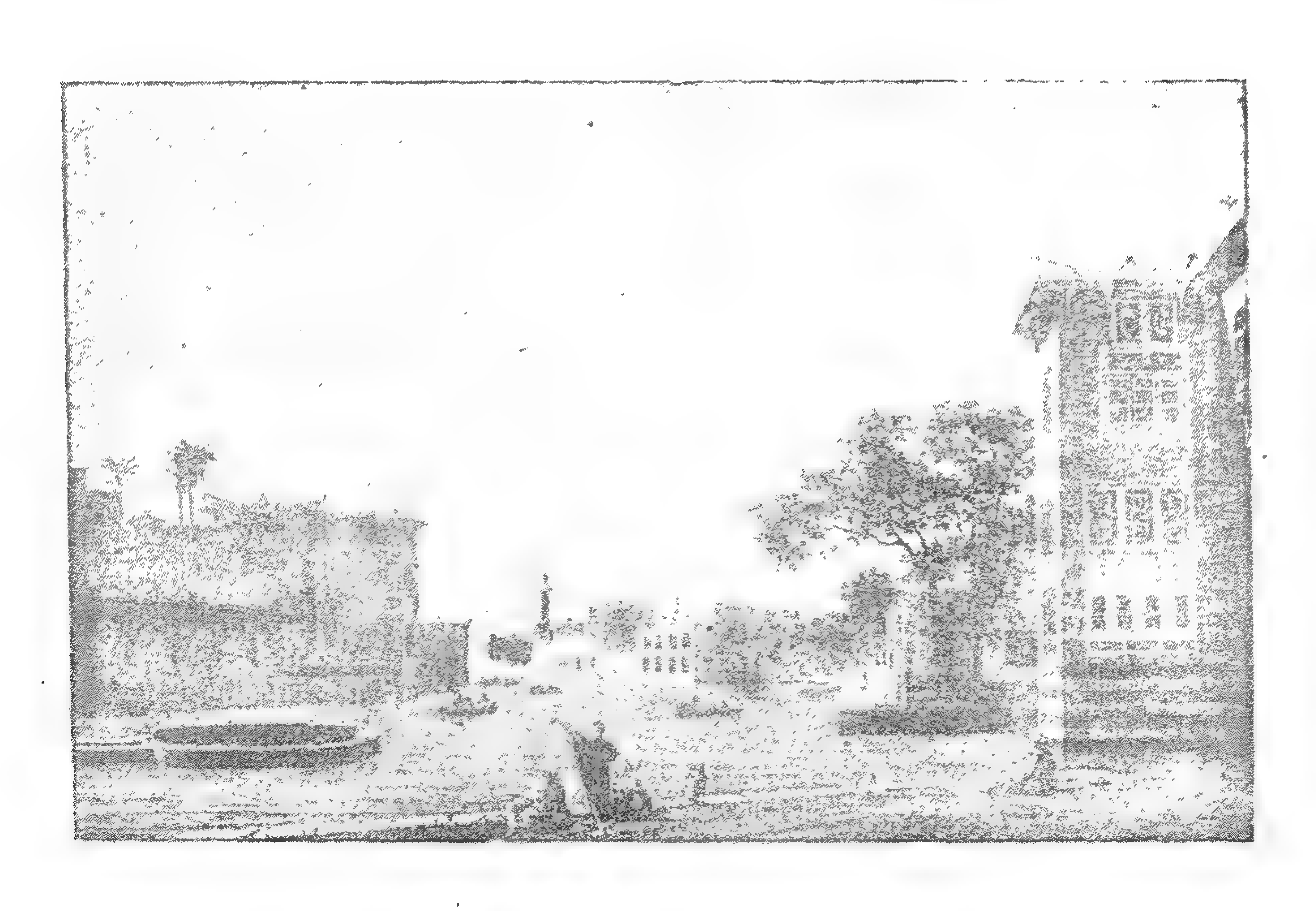
نهب وإرهاق وتخريب

ضج سكان العاصمة من ترادف المظالم ، وضاقت بهم المسالك ، فكثر عدد المهاجرين من المدينة فرارا من الظلم . فنادى الفرنسيون بين الناس بأن من لم يحضر بعد اثنين وثلاثين يوما من يوم المناداة نهبت داره وصودرت املاكه واعتبر من المذنبين !

وصادروا العروض والبضائع ونهبوها فى مقابل سداد مافرضوه من الغرامات والاتاوات ، وهدموا كثيرا من الدور وخاصة بيوت من هاجروا من المدينة .

واكثروا من الهدم والتخريب لاغراض حربية ، ذلك انهم اخذوا فى اتمام بناء القلاع التى شرع الجنرال كليبر فى انشائها لاحاطة المدينة بسلسلة من الحصون تمنع قيام ثورة اخرى ، فهدموا كثيرا من البيوت والعمارات اما لاخذ اخشابها وادوات البناء منها واستخدامها فى بناء القلاع والحصون ، او كشف الجهات التى شرعوا فى اقامة الحصون عليها ، وهدموا بيوتا اخرى لبيع اخشابها او اتخاذها وقودا . فعم الهدم والتدمير احياء باكملها كالحسينية ، والخروبى (بمصر القديمة) ، وبركة جناق (بباب الشعرية) ، وبركة الفيل .

وكشفوا سور القاهرة القديم من باب النصر الى باب الحديد وحصنوا ابوابه واقاموا حولها الاسلاك الشائكة ، وسدوا باب الفتوح بالبناء وكذلك باب البرقية وباب المحروق .



بركة الفيل بالقاهرة فى أواخر القرن الثامن عشر . وكانت من اجمل احياء العاصمة وقد خربها الفرنسيون سنة ١٨٠٠ .

ومن العمارات التى هدموها جامع الجنبلاطية بباب النصر ، ومبانى رأس الصوة حيث الحطابة وباب الوزير ، وهدموا اعالى المدرسة النظامية ، ومدرسة القانبية ، والجامع المعروف بالسبع سلاطين ، وجامع الجركسى ، وجامع خوند بركة خارج باب البرقية ، وكذلك ابنية باب القرافة ومدارسها ومساجدها ، والقباب والمدافن الكائنة تحت القلعة ، وجامع الرويعى وقد

جعلوه خمارة ، وجزء من جامع عثمان كتخدا القزدغلى بالقرب من رصيف الخشاب ، وجامع خير بك حديد بدرب الحمام بالقرب من بركة الفيل ، وجامع البنهاوى ، والطرطوشى ، والعدوى ، وجامع عبدالرحمن كتخدا المقابل لباب الفتوح ولم يبق منه إلا بعض الجدران .

وامعنوا فى الهدم والتخريب بمختلف الوسائل ، فهدموا مصاطب الحوانيت واقتلعوا احجارها ، وتعللوا فى ذلك برغبتهم فى توسيع الشوارع والازقة ، وغرضهم الحقيقى منع الناس من اتخاذها متاريس فى حالة قيام الثورة كما حدث فى ثورة القاهرة الاولى والثانية ، وهدموا تلك المصاطب فى احياء باكملها ، كالصليبة ، وقناطر السباع ، ودرب الجماميز ودرب سعادة وباب الحلق فما يليه الى باب الشعرية ، فاشتد الضيق باصحاب الحوانيت لانهم اضطروا بعد هدم مصاطبهم ان ينزووا داخل حوانيتهم فصارت اشبه بالسجون .

وامعنوا فى مصادرة الاخشاب فقطعوا الاشجار والنخيل ، من جميع الحدائق والبساتين الكائنة بالقاهرة وبولاق وقصر العينى والروضة ومصر القديمة وخارج الحسينية وبركة الرطلى وارض الطبالة وبساتين الخليج ، وكذلك فى كثير من الاقاليم ، واخذوا ايضا اخشاب المراكب والسفن مع شدة الحاجة اليها للتنقل وعدم امكان انشاء مراكب جديدة ، فتعطلت المواصلات مما ادى الى صعوبة النقل وارتفاع اجور الشحن وغلو الاسعار واشتداد الضيق بالناس .

فالسياسة التى اتبعها (منو) حيال الشعب كانت اذن سياسة ارهاب وظلم . ونهب ومصادرة ، وهدم وتخريب ، فلا غرو ان زادت النفوس نفورا من حكم الفرنسيين على الرغم من اعتناق "منو" الاسلام ، فان المصريين قد رأوا بأعينهم وشاهدوا بأنفسهم ان سيل المظالم والمغارم على عهده فى ازدياد ، مما شجع الانجليز والاتراك على اتخاذ اجراء حاسم ازاء الجيش الفرنسى فى مصر .

الحملة الانجليزية التركية على مصر

مافتئت الحكومة الانجليزية بعد هزيمة الاتراك فى معركة عين شمس تسعى سعيا حثيثا فى اعداد حملة عثمانية انجليزية للزحف على مصر .

سياسة انجلترا إزاء مصر

ان سياسة انجلترا حيال مصر تقتضى ان لا ترى لدولة قوية سواها نفوذا

فى وادى النيل ، وهى ايضا لا تدع مصر نفسها تنهض وتصبح دولة قوية مهيبة الجانب محفوظة الكيان . ذلك ان مطامع انجلترا الاستعمارية جعلتها تطمع فى التسلط على وادى النيل واتخاذ مصر قاعدة حربية وبحرية لتضمن سيادتها فى البحر الابيض المتوسط وتبسط نفوذها السياسى والتجارى فى الشرق وفيما وراء البحار ، تلك كانت سياستها من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين ، وعلى هذه القاعدة قامت وجهة النظر الانجليزية فى المسألة المصرية ، وكل الحوادث السياسية التى وقعت فى وادى النيل خلال القرن التاسع عشر الى القرن العشرين دارت من الوجهة الانجليزية على هذا المحور .

كانت الحكومة الانجليزية تحرض تركيا على محاربة فرنسا واجلائها عن مصر . وكانت ترمى لا إلى جلاء الفرنسيين عنها فحسب ، بل اخذت تنتهز الفرص لاحتلالها وتثبيت قدمها فيها ، على انها لم تفلح فى غرضها الاخير بفضل جهاد مصر ونضالها فى الذود عن استقلالها .

كانت مهمة انجلترا فى الحملة العثمانية الاولى مقصورة على معاونتها بأساطيلها فى البحر الابيض المتوسط ، ولكن هزيمة العثمانيين فى موقعة عين شمس جعلتها تفكر فى الدخول الى ميدان القتال برا واعداد جيش انجليزى يشترك مع الجيش العثمانى فى الزحف على مصر ، لان الجيش العثمانى قد برهن على عجزه عن طرد الفرنسيين منها . فاخذت انجلترا تعد حملة برية ، وجعلت فى الوقت نفسه تواصل سعيها فى الاستانة لتعد تركيا حملة جديدة تسير بالاشتراك مع الحملة الانجليزية لتتحد حركاتهما وتتناصر القوات العثمانية والانجليزية برا وبحرا .

وكانت الخطة الحربية التى رسمتها الحكومة الانجليزية بالاتفاق مع الباب العالى ان يزحف الجيش العثمانى برا من طريق العريش وقطية ، وفى الوقت نفسه ينزل فى (ابو قير) جيش انجليزى تركى بحماية الاسطول البريطانى والعمارة التركية ، وينزل بالسويس جيش هندى قادم من الهند على ظهر العبارة الانجليزية فى البحر الاحمر ، فتلتقى القوات الثلاث فى أرض مصر وتطوق الجيش الفرنسى بها .

موقف منو

تمت هذه الخطط والجنرال (منو) غارق فى احلامه ومشروعاته . وقد علم مراد بك وهو فى الصعيد بانباء الاستعدادات لتنفيذ تلك الخطط ، اذ كان يتلقاها من رسل المماليك الذين اوفدهم اليه زميله ابراهيم بك من معسكر الجيش العثمانى ، وكان مراد فى ذلك الحين على تمام الولاء للفرنسيين ،

فاعتزم ان يفضى بهذه الانباء الى الجنرال (منو) ليأخذ للأمر عدته ، واوفد اليه عثمان بك البرديسى لمناسبة سداد الخراج عن الصعيد واطلعه على رسائل ابراهيم بك وابلغه نبأ اقتراب الحملة التركية الانجليزية وطلب اليه ان يعنى فى حالة فتح باب المفاوضة للتفاهم مع تركيا بالمحافظة على الامتيازات التى نالها مراد بك بمقتضى اتفاقية كليبر ـ مراد وهذا هو كل ما عنى به فى هذا الموقف العصيب ، واكد انه فى حالة اخفاق المفاوضة وتجدد القتال يضع قواته تحت تصرف القيادة الفرنسية طبقا للاتفاق المبرم بينهما .

على ان منو لم يكترث لهذه الانباء ولم يأخذ عدته لمواجهة الحملة القادمة ، فلما قدمت لم تلق المقاومة التى لقيتها ايام نابليون وكليبر . وصدقت نبوءة عثمان بك البرديسى التى تنبأ بها حينما يئس من اقناع الجنرال منو بضرورة الاستعداد لمواجهة الحملة التركية الانجليزية ، فانه قابل احد قواد الحملة وقال له "ان قائدا مثل الجنرال منو سيكون سببا فى ضياع الجيش الفرنسى" .

وصول الحملة الانجليزية الى ابو قير

بدأت الجنود الانجليزية تنزل الى شاطىء ابوقير يوم ٨ مارس سنة ١٨٠١ ، وانحدر منهم ذلك اليوم ستة الاف جندى ، فاشتبكوا فى قتال شديد مع قوات الجنرال فريان قائد الجنود الفرنسية بالاسكندرية الذى جاء على عجل فى نحو ٢٠٠٠ من الجنود ، فاطلقت المدافع الفرنسية نيرانها على الجنود الانجليزية فى طريقها الى اليابسة ، فخسر الانجليز كثيرا من القتلى فى المراكب واثناء نزولهم الى البر ، ودار قتال عنيف على الشاطىء ، لكن القوات الانجليزية كانت اكثر عددا واعظم استعدادا ، فظهرت على الفرنسيين وهزمتهم ووضعت الحصار حول قلعة ابوقير ، وتقهقر الفرنسيون غربا بعد ان خسروا فى تلك المعركة نحو ٤٠٠ قتيل وجريح وخسر الانجليز نحو ٦٥٠ من القتلى والجرحى .

تراجع جيش الجنرال فريان وعسكر فى المندرة (من ضواحى الاسكندرية) اما الانجليز فقد انزلوا بقية جنودهم الى البر ، ودخلت قواربهم المسلحة الى بحيرة ابوقير لتعرقل وتقهقر الفرنسيين .

معركة سيدى جابر وهزيمة الفرنسيين
(١٣ مارس سنة ١٨٠١)

تقدم الانجليز يوم ١٢ مارس قاصدين (المندرة) فانسحب الفرنسيون منها

وواصلوا تقهقرهم حتى معسكر قيصر (كامب دى سيزار) وتحصنوا به .

واصل الانجليز تقدمهم الى ان اقتربوا من مواقع الفرنسيين ، فدارت معركة شديدة بين الفريقين يوم ١٣ مارس سنة ١٨٠١ بالقرب من مسجد سيدى جابر ، ولما التقى الجمعان هجم الانجليز على مواقع الفرنسيين فاصلتهم المدافع الفرنسية نارا حامية اوقعت فى صفوفهم خسائر فادحة وكر عليهم الفرنسيون وحمى وطيس القتال ثم انتهى بهزيمة الفرنسيين وتراجعهم الى اسوار الاسكندرية واحتلال الانجليز معسكر قيصر ، وكان الفضل فى انتصارهم لكثرة عددهم فان الجيش الانجليزى بلغ نحو ١٤,٠٠٠ مقاتل بينما الجيش الفرنسى نحو ٥٠٠٠ وقد تكبد الانجليز خسائر فادحة فبلغ عدد قتلاهم وجرحاهم نحو ١٣٠٠ قتيل وجريح وخسر الفرنسيون نحو سبعمائة بين قتيل وجريح .

سمينا هذه المعركة (سيدى جابر) لانها وقعت على مقربة من المسجد المعروف باسمه ، اما الانجليز فيسمونها معركة ١٣ مارس سنة ١٨٠١ ، والفرنسيون يسمونها معركة (نيكوبوليس) ، وقد اخترنا لها اسم (سيدى جابر) وهو اسم مشهور وموقعه معروف وكان المسجد قائما فى زمن المعركة ، فتسميتها باسمه تقرب الى الذهن حقيقة موقعها .

تقدم الانجليز بعد انتهاء المعركة يريدون الاسكندرية ، لكنهم استهدفوا لنيران المدافع الفرنسية المركبة فى قلعتى (كوم الدكة) و (كوم الناضورة) ، فاضطروا الى الانسحاب وتحصنوا على الاكمات القائمة حول معسكر قيصر ..

حالة الأفكار فى القاهرة

اغتبط المصريون بقدوم الحملة التركية الانجليزية وانتصاراتها الأولى على الفرنسيين ، وكان هذا الشعور طبيعيا وسليما ، إذ أن الفرنسيين كانوا المحتلين للبلاد ، فوجبت محاربتهم ومشاركة من جاءوا لمحاربتهم ، أما الفرنسيون فقد ساد الاضطراب بينهم منذ أن علموا بقدوم الحملة الانجليزية التركية ، وأخذ منو يتوعد كل من يذيع اخبارها بين الأهلين ، فأصدر منشورا مؤرخا ١١ شوال سنة ١٢١٥ (٢٥ فبراير سنة ١٨٠١) يطمئن فيه المصريين ويحذرهم تصديق الأخبار (الكاذبة) وأنذر كل من يثبت عليه إذاعة هذه الأخبار بالقتل .

وبالرغم من تكتم الفرنسيين أنباء الحملة وتوعدهم من يذيع بين الناس أخبارها فإن أنباءها قد استفاضت وعلم بها الناس قاطبة ، فلم ير (منو) بداً من أن يكاشف أعضاء الديوان بقدوم الانجليز والعثمانيين .

اجتماع اعضاء الديوان

فانعقد الديوان فى ٦ مارس سنة ١٨٠١ ، وحضر الاجتماع المسيو (فوربيه) القوميسير الفرنسى نائبا عن منو ، وخاطب الأعضاء فى شأن الموقف الحربى . فزعم ان السفن الانجليزية التى قدمت أبوقير قد رجعت أدراجها . وأبلغ الأعضاء ترجمة منشور للجنرال (منو) يذكر فيه أن الانجليز «الذين يظلمون كل جنس للبشر» قد ظهروا فى السواحل ومعهم العثمانيون وأن الفرنسيين عازمون على ردّهم جميعا على أعقابهم ، وطلب من المصريين أن يلزموا السكينة ، وتوعد من يتحرك للفتنة بالقتل ، ونوه فى منشوره بما وقع بالمصريين من القتل والنكال والمغارم فى ثورة القاهرة الثانية ، وأمضى المنشور بتوقيع (خالص الفؤاد عبدالله جاك منو) .

فلما تليت ترجمة المنشور علم الأعضاء بخطورة الموقف . ودارت مناقشة بينهم وبين المسيو فوربيه فى تحديد مركزهم حيال هذا المنشور ، وقال بعض الحاضرين إن العقلاء لا يسعون فى الفساد ، وإذا تحركت فتنة لزموا بيوتهم ، فأجاب المسيو فوربيه : ينبغى للعقلاء ولأمثالكم نصيحة المفسدين فإن البلاء يعم المفسد وغيره . فقال بعضهم إن العقاب لا يكون إلا على المذنب ، قال تعالى «كل نفس بما كسبت رهينة» وقال آخر قال تعالى أيضا «ولا تزر وازرة وزر أخرى» فقال فوربيه · المفسدون فيما تقدم هاجوا الفتنة فعمت العقوبة ، والمدافع لا عقل لها حتى تميز بين المفسد والمصلح ، فإنها لا تقرأ القرآن ، وقال آخر : المخلص نيته تخلصه ، فقال فوربيه : «إن المصلح من يشمل صلاحه الرعية فإن صلاحه فى حد ذاته يخصه فقط والثانى أكثر نفعا» .

وطال البحث والجدل على هذا النحو وانتهت الجلسة على غير نتيجة .

ولما علم الجنرال منو بما دار من المناقشة بين الأعضاء والمسيو فوربيه ارتاب فى نية أعضاء الديوان وكتب منشوراً آخر أبلغه ذلك اليوم إلى فوربيه وهذا أرسله إلى الأعضاء فى بيوتهم ليطالعهم به ، ومضمونه إنذارهم بأنه يلقى عليهم علانية تبعة كل ثورة تحصل من الأهلين ، ولعله أراد بتحميلهم هذه التبعة أن يرهبهم ويكرههم على استخدام نفوذهم لمنع وقوع أى حركة فى العاصمة وغيرها من البلاد .

ألقى هذا الإنذار على عاتق أعضاء الديوان تبعة رهيبة ، لأنهم إذا ضمنوا أنفسهم فمن أين لهم أن يضمنوا سلوك الجماهير ؟ على أنهم تلقاء هذا الإنذار اجتمعوا بدار الشيخ عبدالله الشرقاوى رئيس الديوان ، وحضر

الاجتماع الأغا (المحافظ) والوالى (رئيس الشرطة) والمحتسب ، وأحضروا مشايخ الحارات وكبراء الاخطاط ونصحوهم وأنذروهم ، وأمروهم بالتزام الهدوء والسكينة .

وأخذ الفرنسيون من جهتهم يستعدون للحرب والقتال وينقلون أمتعتهم إلى القلعة ، فتوهم الناس أنهم سيضربون المدينة بالمدافع ، فشرعوا فى الهجرة من القاهرة إلى الأقاليم .

اعتقال واضطهاد

اشتد انزعاج الفرنسيين واضطرابهم ، فاعتقلوا السيد محمد السادات من جديد وأصعدوه إلى القلعة ، فسأل السيد محمد السادات الموكل به عن ذنبه الذى يعتقل من أجله ، فقيل له «لم يكن إلا الحذر من إثارة الفتنة فى البلد وإهاجة العامة لبغضك للفرنسيين لما سبق منهم من الإيذاء» .

ويقى السيد السادات رهن الاعتقال إلى أن جلا الفرنسيون عن مصر ، ومات ولده أثناء الاعتقال فلم يفرجوا عنه وأذنوا له فقط بحضور الجنازة ونزل من القلعة يصحبه حارس إلى أن انتهت الجنازة وعاد به الحارس إلى السجن .

واعتقلوا كذلك حسن أغا المحتسب وحبسوه بالبرج الكبير بالقلعة . ولما عزم الجنرال (منو) على السفر إلى الاسكندرية لقتال الانجليز والترك استدعى إليه اعضاء الديوان ورؤساء التجار وآذنهم بعزمه على السفر ، وأنه أناب عنه الجنرال بليار «قائمقام» وقائدا على الجنود الباقين بالقاهرة . وطلب اليهم أن يسهروا على ضبط الأمن فى المدينة . وأبلغهم أنه كان فى عزمه اعتقالهم رهائن لمنع وقوع الفتن . لكنه استصوب إرجاء ذلك . وسافر (منو) بجبشه يوم ١٢ مارس سنة ١٨٠١ ولم يعد بعد ذلك إلى القاهرة .

واتسعت حركة القبض والاعتقال عندما وردت الأخبار بقدوم جيش عثمانى آخر برا من جنوب سورية بقيادة يوسف باشا ضيا واحتلاله العريش . واشتد اضطراب الفرنسيين فى القاهرة . فاستدعى المسيو فوربيه أعضاء الديوان للاجتماع يوم ٢٤ مارس سنة ١٨٠١ وأبلغهم المسيو فوربيه أنه تحقق لهم أن الجيش العثمانى بقيادة يوسف باشا ضيا قادم إلى مصر . وأن السلطة الفرنسية رأت بناء على ذلك اعتقال بعض الأعيان كما تقضى بذلك ضرورات الحرب ، وتلطف فى ابلاغ الأعضاء نبأ الاعتقال . وانتهى الكلام بالقبض على أربعة من أعضاء الديوان وهم الشيخ عبدالله الشرقاوى . والشيخ محمد

المهدى ، والشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى . فأصعدوهم إلى القلعة فى الساعة الرابعة من الليل ، وأجلسوهم بجامع سارية ونقلوا إلى مكانهم السيد محمد السادات فاستمر وإياهم بالمسجد . وكلفوا الأربعة الباقين من أعضاء الديوان وهم الشيخ خليل البكرى . والشيخ محمد الأمير . والشيخ موسى السرسى . والشيخ عبدالرحمن الجبرتى مؤرخ ذلك العصر . أن يتولوا النظر فى شئون البلد وأن يجتمعوا بالجنرال بليار ولا ينقطعوا عنه . وأبلغوهم أن المشايخ المعتقلين لا خوف عليهم ولا ضرر ، وأنهم معززون مكرمون ، وخصصوا لكل شيخ منهم خادما يختلف إليه فى أعماله وما يحتاج إليه من منزله . وسمحوا لمن يريد زيارتهم من أصدقائهم بأن يزورهم فى القلعة بتصريح كتابى من الجنرال بليار . واعتقل الفرنسيون كذلك نحو خمسة عشر من أعيان القاهرة .

ثم أفرجوا فى ٢٦ مارس عن الشيخ سليمان الفيومى وأذنوا له بالاجتماع هو وأعضاء الديوان للنظر فى شئون البلد .

على أن حالة الاضطراب التى سادت المدينة قد جعلت الديوان قليل العمل ، واشتد فزع الفرنسيين وخاصة بعد أن وردت أنباء معركة كانوب التى سيرد الكلام عنها فيما يلى . واستمروا ينقلون أمتعتهم وذخائرهم إلى القلعة . وانتقل المسيو فروبيه إلى القلعة أيضا ولم ينزل منها . وأرسل إلى الشيخ سليمان الفيومى بأن ينقل أمتعة الديوان إلى داره . فنقلها ولم يبق منها إلا الحصر . وأخذ أعضاء الديوان يحضرون كعادتهم فكانوا يفرشون سجادهم ويجلسون عليها وقت الاجتماع ثم ينصرفون .

وقبضوا على الشيخ محمد الأمير أحد أعضاء الديوان فى أوائل محرم سنة ١٢١٦ (أواخر مايو سنة ١٨٠١) واعتقلوه مع المشايخ بجامع ساريه بحجة أن ابنه كان من المحرضين على ثورة القاهرة الثانية وأنه لما انتهت الثورة هاجر من المدينة إلى الوجه البحرى ثم حضر إلى مصر فأقام بها أياما ، ثم قصد إلى (فوه) بإذن من السلطة الفرنسية ، فلما تجدد القتال واشتد انزعاج الفرنسيين وأخذوا الناس بأدنى شبهة وتقرب إليهم المنافسون بالدعاية والتجسس وشى البعض للجنرال بليار فى إبن الشيخ الأمير وألقى فى روعه أنه انضم إلى الجيش العثمانى . فاستدعى الجنرال بليار الشيخ الأمير وسأله عن إبنه فأجاب بأنه لم يزل فى فوه . فقال له الجنرال أنه لم يكن هناك بل هو عند القادمين (العثمانيين) ، فأنكر الشيخ ذلك وقال إن شئتم أرسلت إليه بالحضور . فأمهله الجنرال بليار ثمانية أيام أى مسافة الذهاب إلى فوه والمجىء منها فى ذلك العصر . ثم كرر عليه

الطلب بلسان وكيل الديوان فوعده الشيخ بحضور إبنه أو حضور الجواب بعد يومين ، ولما انقضى الميعاد ولم يحضر إبنه اعتقله الفرنسيون وحبسوه فى القلعة .

وقد أفرجوا فى السادس عشر من محرم سنة ١٢١٦ عن الشيخ مصطفى الصاوى لمرضه .

معركة كانوب وهزيمة الفرنسيين
٢١ مارس سنة ١٨٠١

رحل الجنرال (منو) عن القاهرة ومضى قاصدا الاسكندرية فبلغ الرحمانية . وسار منها إلى دمنهور حيث لحق به القائدان رينييه Reynier ورامبون Rampon

ثم واصل سيره فبلغ الاسكندرية يوم ١٩ مارس ، واستعد للمعركة التى نشبت بينه وبين الجيش الانجليزى . وكان الانجليز فى غضون ذلك قد أنزلوا كل ما بسفنهم من الذخائر والمدافع . واستعدوا للقتال استعدادا عظيما .

اعتزم الجنرال (منو) أن يهاجم الجيش الانجليزى ، وخشى إذا هو تأخر عن الهجوم ان يباغته الانجليز ويضربوا الحصار على الاسكندرية فيصبح الفرنسيون محصورين بين أسوارها ويستهدفون للمجاعة إذا أحكم الانجليز حصارها برا وبحرا ، فضلا عن أن الجيش الانجليزى يصبح حرا فى التوغل فى داخلية البلاد ، فرأى أن يغامر بمهاجمة الجيش الانجليزى على أمل أن يكون النصر حليفه ، كما انتصر نابليون على الأتراك فى معركة أبوقير من قبل .

على أن الفرق كبير بين الموقفين ، فإن نابليون جمع فى يوليه سنة ١٧٩٩ كل جنوده وهاجم بهم الجيش التركى قبل أن ينظم مصطفى باشا صفوفه ، وكان له من عبقريته وسرعته فى القتال ما كفل له النصر فى واقعة أبو قير ، لكن (منو) كان مجردا من الكفاية الحربية . فضلا عن أنه ترك نصف الجيش تقريبا فى القاهرة وأبطأ فى التقدم بالنصف الآخر ، وترك للانجليز الوقت الكافى لتنظيم صفوفهم وتثبيت أقدامهم شرقى الاسكندرية ، وقد أدرك معظم القواد الفرنسيين خطأ منو فى مغامرته المتأخرة ونصحوا إليه أن يتريث فى الأمر حتى يأخذ له عدّته . لكنه أصر على خطته . فوقعت الواقعة يوم ٢١ مارس سنة ١٨٠١ ، وهى المعروفة بمعركة كانوب .

كانت مواقع الانجليز فى خط يمتد من البحر شرقى معسكر قيصر إلى ترعة الاسكندرية (المحمودية الآن) بالقرب من حجر النوتية . ومواقع

الفرنسيين على بعد نحو أربعة آلاف متر تقريبا شرقي باب رشيد في خط يمتد من البحر إلى ترعة الاسكندرية ، بالقرب من النقطة المعروفة الآن بمحطة (النزهة) . وقد سميت المعركة واقعة (كانوب) لأنها وقعت على مقربة من باب من أبواب الاسكندرية القديمة يسمى باب كانوب (شرقي باب رشيد) ينتهي إليه شارع من شوارعها القديمة كان يعرف بشارع كانوب ويعرف الآن بشارع باب رشيد أو باب شرقي (طريق الحرية الآن) .

في هذا الميدان نشبت المعركة . وهي من أهم المعارك التي كانت لها نتائج حاسمة في سير القتال ، وتطور الموقف الحربي والسياسي في مصر . تولى قيادة الجيش الفرنسي فيها الجنرال (منو) والجيش الانجليزي الجنرال رالف ابركرومبي . وكان موقف الانجليز من بدء القتال أرجح من مركز الفرنسيين ، فقد كان الجيش البريطاني متفوقا في العدد إذ كان مؤلفا من نحو ١٦٠٠٠ من المشاة ومائتين من الفرسان بينما كان الجيش الفرنسي لا يزيد على ٨,٣٥٠ من المشاة و ١,٣٧٠ من الفرسان . هذا فضلا عن أن الجيش الانجليزي كانت تحمي ميمنته من البحر بعض السفن المدفعية وميسرته بعض القوارب المسلحة في بحيرة أبوقير (التي لم تكن جففت بعد) ، فكان لهذه العمارة البحرية أثر كبير في سير القتال ، إذ كانت تصب قنابلها على الصفوف الفرنسية أثناء هجومها . فالجيش الفرنسي كان إذن أقل من الانجليزي عددا وأضعف مركزا . ولو تولى قيادته قائدا أكفأ من الجنرال (منو) لما تغيرت نتيجة القتال تغيرا جوهريا ، اللهم إلا في مبلغ الخسائر التي نالت الفرنسيين ، فإن أوامر (منو) عرضت صفوفهم للخسائر الفادحة .

وقد انتهت المعركة بهزيمة الفرنسيين .

ولما رأى الجنرال منو أن لا سبيل إلى استمرار القتال أصدر أمره بالانسحاب إلى الاسكندرية . فانتهت المعركة في نحو الساعة الحادية عشرة بعد أن خسر الجيش الفرنسي نحو ألف وخمسمائة من القتلى وألف من الجرحى . وكان من القتلى نخبة من القواد والضباط .

وبالرغم من إنتصار الانجليز فإن خسارتهم كانت فادحة ، فقد فقدوا نحو ١٥٠٠ قتيل منهم قائد الجيش نفسه الجنرال أبركرومبي Abercromby ، وجرح بعض قوادهم ، وخلف أبركرومبي في قيادة الجيش البريطاني الجنرال هتشنسون Hutchinson .

وكان من نتائج معركة كانوب أن ارتد الجيش الفرنسي إلى أسوار الاسكندرية ، وانفتح الطريق أمام الجيش الانجليزي للتوغل في البلاد . على

انه بالرغم من تضعضع الجيش الفرنسى وما حل به من الخسائر فى معارك ٨ و ١٣ و ٢١ مارس ، فقد أحجم الانجليز عن الزحف ، وكان الجنرال هتشنسون شديد التردد كثير الوجل . فقضى وقتا طويلا ، قبل أن يبت رأيا فى الهجوم ، ولم يكن الجنرال (منو) أقل منه ترددا ، وكانت الظواهر تدل على أن الانجليز لا يتجاوزون الشواطىء ولا يلبثون أن يعودوا إلى سفنهم .

والواقع أنهم كانوا مترددين فى التقدم إلى داخل البلاد ، وفكر بعض قوادهم فى الانسحاب والرجوع إلى السفن لولا قدوم المدد على ظهر العمارة التركية التى جاءت إلى أبو قير يوم ٢٥ مارس سنة ١٨٠١ ، جاءت فى هذه العمارة بقيادة حسين قبطان باشا تقل ستة آلاف جندى من خيرة الجنود الانكشارية ، فنزلوا إلى البر وانضموا إلى الجيش الانجليزى ، فازداد بهم قوة وزحف فى داخل البلاد .

واحتل رشيد ثم الرحمانية .

زحف الجيش العثمانى

معركة (الزوامل) ـ ١٦ مايو سنة ١٨٠١

أما الجيش العثمانى الذى قدم من سورية بقيادة الصدر الأعظم يوسف ضيا وعدده نحو عشرين ألف مقاتل فقد تحرك من العريش خلال شهر أبريل وتابع سيره دون مقاومة . وأخلى الفرنسيون قطية والصالحية وبلبيس بعد أن نسفوا قلاعها والمخازن التى كانت لهم بها . وارتدت حامياتها إلى القاهرة ولما وصل الصدر الأعظم إلى بلبيس عزم الجنرال بليار على أن يهاجمه بجيشه قبل أن يتفرغ لصد الجيش الانجليزى العثمانى القادم من رشيد . وكان بليار يأمل أن يهزم الجيش التركى كما هزمه كليبر من قبل .

كان عدد الجنود الذين يقودهم بليار نحو عشرة آلاف مقاتل .. فترك بالقاهرة قوة من المشاة تحتل الجيزة والقلاع المشرفة على المدينة . وسار ببقية جيشه لملاقاة الصدر الأعظم . فوصل يوم ١٦ مايو إلى الزوامل فى منتصف الطريق بين الخانكة وبلبيس . فاشتبك بطلائع الجيش العثمانى فيها ، ودارت معركة بدأت بانتصار الفرنسيين وانتهت بهزيمتهم وتراجعهم إلى القاهرة .

وفى خلال ذلك استولى الأتراك على دمياط بعد أن انسحب منها الفرنسيون وأخلى الفرنسيون كذلك قلعة عزبة البرج وقلعة البرلس .

تحرج موقف الفرنسيين فى القاهرة
موت مراد بك

امتنع الجيش الفرنسى فى القاهرة واتخذ فيها خطة الدفاع . وفكر الجنرال بليار منذ تجدد القتال فى الاستنجاد بحليف الفرنسيين مراد بك ، وطلب إليه العمل بشروط الاتفاق المبرم بينه وبين كليبر .

فشرع مراد بك فى إمداد بليار وسار برجاله إلى مصر . لكنه لم يكد يصل إلى سوهاج حتى أصيب بالطاعون وأدركته الوفاة يوم رابع ذى الحجة سنة ١٢١٥ ـ ٨٠ أبريل سنة ١٨٠١ ـ ودفن بسوهاج عند الشيخ العارف . ومن أبلغ ما قاله الجبرتى فى نعيه : «إنه كان من أعظم الأسباب فى خراب الأقليم المصرى بما تجدد منه ومن مماليكه وأتباعه من الجور والتهور ومسامحته لهم . فلعل الهم يزول بزواله» .

وكانت وفاته ضربة كبيرة أصابت آمال الفرنسيين ، لأنهم فقدوا بموته حليفا قويا كان يمكن أن يمدهم بما لديه من حول وقوة . وحزنوا عليه حزنا شديدا . واختار المماليك عثمان بك الطنبورجى خلفا له . واعتمده الفرنسيون خليفة لمراد بك وأميرا على الصعيد . فأرسل هذا إلى بليار يعرب له عن ولائه وولاء المماليك للفرنسيين . لكنه بعد ذلك نقض المعاهدة لما رأى كفة الانجليز والأتراك راجحة واتصل بإبراهيم بك زميله القديم الذى جاء صحبة الصدر الأعظم .

انتشار الوباء

وازداد مركز الفرنسيين حرجا باستفحال فتك الطاعون فى البلاد وخاصة فى القاهرة والصعيد . بدأ هذا الطاعون فى شهر يناير سنة ١٨٠١ واشتدت وطأته فى اوائل أبريل . فكان يموت به فى اليوم نحو مائة من الأهالى وعشرين من الفرنسيين . ومات من هؤلاء فى القاهرة نحو خمسمائة بالرغم من الجهود التى بذلها أطباء الجيش الفرنسى فى مقاومته . ولم يشهد الناس وباء يحاكيه فى شدة وطأته منذ وباء سنة ١٧٩١ المعروف بوباء إسماعيل بك .

وقد وصف الدكتور لارى Larrey كبير جراحى الحملة الفرنسية وباء سنة ١٨٠١ فى مشاهداته عن الأمراض فى مصر ، فقال إنه أودى بحياة مائة وخمسين ألف نسمة من المصريين فى القاهرة والوجه القبلى .

اجتماع بليار بأعضاء الديوان

اجتمعت كل هذه الأسباب فكانت نذيرا للفرنسيين بانقراض استعمارهم فى مصر ، على أن الجنرال بليار أظهر الجلد أما الشعب ، وتظاهر بأن فى استطاعته مقاومة الجيوش الزاحفة على القاهرة ، وعاد يتهدد ويتوعد وينذر المصريين بالانتقام والنكال إذا جنحوا إلى الثورة ، فاستدعى أعضاء الديوان فى شهر محرم سنة ١٢١٦ ، وخاطبهم على لسان المترجم قائلا :

«نخبركم بأن الخصم قد قرب منا ، ونرجوكم أن تكونوا على عهدكم مع الفرنساوية ، وأن تنصحوا أهل البلد والرعية بأن يكونوا مستمرين على سكونهم وهدوئهم ، ولا يتداخلوا فى الشر والشغب . فإن الرعية بمنزلة الولد ، وأنتم بمنزلة الوالد ، والواجب على الوالد نصح ولده وتأديبه وتدريبه على الطريق المستقيم التى يكون فيها الخير والصلاح ، فإنهم إن داموا على الهدوء حصل لهم الخير ونجوا من كل شر ، وإن حصل منهم خلاف نزلت عليهم النار وأحرقت دورهم ، ونهبت أموالهم ومتاعهم ، ويتمت أولادهم وسبيت نساؤهم وألزموا بالأموال والفرد (جمع فردة أى ضريبة) التى لا طاقة لهم بها ، فقد رأيتم ما حصل فى الوقائع السابقة ، فاحذروا من ذلك فإنكم لا تدرون العاقبة ، ولا نكلفكم المساعدة لنا ولا المعاونة لحرب عدونا ، وإنما نطلب منكم السكون والهدوء لا غير» فأجابه الأعضاء بقولهم «كذلك» .

تقدم الحلفاء

على أن الحلفاء (الانجليز والأتراك) قد واصلوا تقدمهم ، والتقوا قريبا من إمبابه .

فازداد مركز الجيش الفرنسى ضعفا إزاء قوات الحلفاء وتحفز سكان القاهرة للثورة عليه .

اتفاقيـة الجـــلاء
٢٧ يونيه سنة ١٨٠١

أدرك الجنرال بليار ضعف مركزه ، فاجتمع وقواد الجيش وتداولوا فى الأمر ، فاتفقوا رأيا على الاذعان للجلاء عن مصر ، وعرضوا المفاوضة مع الجيش الانجليزى والجيش العثمانى لتوقيع اتفاق جلاء الفرنسيين .

وقد استمرت المفاوضة أربعة أيام وانتهت بالاتفاق على جلاء الجيش الفرنسى عن مصر ، ووقع المندوبون على هذا الاتفاق ، وتقتضى شروطه أن تجلو الجنود الفرنسية البرية والبحرية التى تحت قيادة الجنرال بليار عن مدينة القاهرة وقلاعها وقلاع بولاق والجيزة وعن كل جهة تحتلها من الأراضى المصرية ، وأن يكون جلاء الجنود بأسلحتهم وأمتعتهم ومدافعهم وذخائرهم بطريق فرع رشيد ومن رشيد وأبو قير يبحرون إلى فرنسا على نفقة الحلفاء ، وأن يتم الجلاء فى أقرب وقت ممكن بحيث لا يزيد على خمسين يوما من يوم التصديق على الاتفاق ، وحدد الاتفاق للجلاء عن القاهرة وبولاق اثنى عشر يوما .

وتعهد قواد الجيش الانجليزى والتركى بتقديم المراكب اللازمة لنقل الجنود وأمتعة الجيش وأثقاله ، وأن ترافق الفرنسيين فى انسحابهم كتائب من الجيش الانجليزى والتركى لتقديم المؤونة اللازمة للجنود ، وتعهد الانجليز والأتراك أيضا بتقديم السفن اللازمة لنقلهم إلى ثغور فرنسا .

والمتأمل في نصوص هذا الاتفاق يجد أنه لا يختلف فى جوهره عن معاهدة العريش وهى المعاهدة التى رفضت الحكومة الانجليزية تنفيذها ونقضتها ثم عادت إلى قبول اتفاق لا يختلف عنها بعد أن سفكت الدماء وضاعت الأرواح وخربت البلاد وعم البلاء .

إطلاق سراح المعتقلين

علم الناس فى القاهرة بنبأ الصلح ، فقابلوه بابتهاج عظيم وأفرج الفرنسيون عن الأسرى العثمانيين ثم أطلقوا سراح المشايخ والأعيان المعتقلين فى القلعة وباقى المحبوسين من الفلاحين والعرب ، واستعد الجنود الفرنسيون للجلاء ونقل مهماتهم من القلعة وباقى قلاع المدينة .

جلاء الفرنسيين عن القاهرة

وقد أخلى الفرنسيون قلعة المقطم وباقى القلاع والحصون والمتاريس وانتقلوا إلى الروضة وقصر العينى والجيزة استعدادا لنزولهم فى السفن التى أعدت لنقلهم بالنيل إلى رشيد تنفيذا لشروط الصلح .

وفى ١٤ يوليه سنة ١٨٠١ (٤ ربيع الأول سنة ١٢١٦) أخلوا قصر العينى والروضة والجيزة وأقلعت بهم المراكب وعددها ثلثمائة مركب إلى رشيد ، وبذلك تم جلاؤهم عن القاهرة وضواحيها ، وأخذوا معهم رفات الجنرال

كليبر ، وساروا من رشيد إلى أبو قير ومن هناك أبحرت بهم السفن فى أوائل شهر أغسطس سنة ١٨٠١ إلى فرنسا ، وجلوا نهائيا عن الديار المصرية .

وكان عددهم يوم جلائهم نحو ١٣,٠٠٠ رجل منهم ٩,٠٠٠ مقاتل صالحون للقتال والباقون من الجنود المرضى والرجال المدنيين ، وبذلك تم جلاء أكثر من نصف الجيش الفرنسى الذى كان يحتل مصر . وبقى النصف الآخر فى الاسكندرية بقيادة الجنرال منو .

ثم عن الاسكندرية

وقد جنح الجنرال منو هو أيضا للتسليم ووقع فى ٣١ اغسطس سنة ١٨٠١ اتفاقية الجلاء عن الاسكندرية ، وتقتضى شروطها أن يتم جلاء الجنود الفرنسية عن المدينة وقلاعها وملحقاتها فى عشرة أيام من يوم التوقيع على الاتفاق ، وأن يسلم الفرنسيون السفن التى لهم ، وأن تنقل الجنود الفرنسية على سفن الحلفاء ومعهم أسلحتهم وأمتعتهم وعشرة مدافع من مدافعهم ويسلموا باقى مدافعهم وذخيرتهم ثم تقلهم السفن الى أحد الثغور الفرنسية بالبحر الأبيض المتوسط ، وأن يسلم أعضاء المجمع العلمى ولجنة العلوم والفنون جميع الآثار والمجاميع والخرائط والرسوم والمخطوطات التى جمعوها فى مصر إلى قواد الحلفاء .

بدأ الفرنسيون يوم ٢ سبتمبر سنة ١٨٠١ يسلمون قلاع المدينة واستحكاماتها ومدافعها والسفن الحربية التى كانت لهم فى الثغر ، ولما جاء دور تسليم مقتنيات أعضاء المجمع العلمى ولجنة العلوم والفنون احتج اولئك الأعضاء على حرمانهم ثمرة ابحاثهم وجهودهم واكتشافاتهم ، وأوفدوا ثلاثة منهم لمقابلة الجنرال هتشنسون قائد الجيش الانجليزى لاقناعه بالعدول عن هذا الشرط ، فرفض طلبهم ، فأجمعوا رأيا على الامتناع عن تسليم تلك الكنوز العلمية ، وأنذروا القائد الانجليزى باحراقها بدلا من التفريط فيها وتسليمها ، وأبلغوه أنهم يلقون على عاتقه تبعة حرمان العلم من هذه النفائس فى حالة إصراره على طلبه ، فبهت القائد الانجليزى أمام هذا التهديد ، وقبل مكرها أن يتنازل عن نفاذ هذا الشرط وترك لهم مقتنياتهم ، بيد أنه منعهم من أخذ العاديات التى أرادوا تهريبها معهم وحجزها بحجة أنها ملك مصر ، لكن مصر حرمت منها ونقلها الانجليز إلى بلادهم وزانوا بها متاحفهم ، ومن الآثار (حجر رشيد) المشهور الموجود إلى اليوم فى المتحف البريطانى بلندن .

وأقلعت السفن المقلة للجنود الفرنسيين من الاسكندرية فى خلال شهر سبتمبر سنة ١٨٠١ قاصدة إلى فرنسا ، وكان عددهم يوم رحيلهم ٧٢٠٠ من

الجنود و ١٥٠٠ من البحارة و ١٤٠٠ من المرضى و ٦٨٠ من المدنيين ، وكان آخر من أبحر منهم الجنرال (منو) الذى أصيب بالطاعون فى أواخر أيامه فغادر ثغر الاسكندرية يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٨٠١ .

وبجلاء الفرنسيين عن الاسكندرية طويت صحيفة الاحتلال الفرنسى فى مصر وخلصت البلاد لأهلها ، ثم أحبطوا على التعاقب مؤامرات الانجليز والترك والمماليك فى البقاء فيها بعد جلاء الفرنسيين ، كما سنبين ذلك فيما يلى .

●

الفصل السابع عشر :

نتائج ظهور العامل القومى على مسرح الحوادث السياسية

أخذ العامل القومى يظهر على مسرح الحوادث السياسية خلال الحملة الفرنسية ، ذلك حين نهضت الأمة لمقاومة الاحتلال الفرنسى بكل ما أوتيت من حول وقوة ، وجادت بكل تضحية ، واحتملت ضروب العنت وصنوف الأذى لتتخلص من احتلال الفرنسيين ، وظل العامل القومى محتفظا بقوته بعد جلاء الجيش الفرنسى ، فلم يستطع الترك ، ولا المماليك ، ولا الأنجليز ، ان يهزموه ، أو يقهروه ، أو يبعدوه عن الميدان ، وكان من نتائجه بعد انتهاء الحملة الفرنسية ثورة الشعب على حكم المماليك ، ثم على الوالى التركى ، ثم المناداة بمحمد على واليا مختارا على مصر سنة ١٨٠٥ ، ثم إخفاق الحملة البريطانية التى جردتها انجلترا لتحقيق أطماعها فى وادى النيل ، وهزيمتها فى رشيد والحماد سنة ١٨٠٧ .

ولقد أوجزنا القول فى الفصول السابقة عن مبلغ مقاومة الأمة للاحتلال الفرنسى ومدى الحركات الشعبية التى حدثت فى خلال تلك السنوات ، وانتهينا من ذكر النتائج الأولى لظهور العامل القومى .

والآن فلنتكلم عن النتائج التى أعقبت جلاء الفرنسيين .

وتمهيدا لهذا البيان يجدر بنا أن نوضح الحالة السياسية فى مصر بعد انتهاء الحملة الفرنسية .

الحالة السياسية فى مصر بعد جلاء الفرنسيين

جلا الفرنسيون عن مصر سنة ١٨٠١ بعد احتلال ثلاثة أعوام وشهرين

فتنازع السلطة فى البلاد ثلاث قوات مختلفة المصالح متباينة الأغراض ، اتحدت وقتاً ما على محاربة الفرنسيين ولما تم لها النصر عليهم بدأت كل قوة تعمل على تحقيق أطماعها الخاصة فى وادى النيل .

هذه القوات الثلاث هى : الأتراك ، والانجليز ، والمماليك .

الأتراك

تطلعت تركيا إلى بسط حكمها المطلق فى مصر بحجة أنها فتحتها بحد السيف ، وأرادت أن تجعل منها ولاية أو عدة ولايات تحكمها كما كانت تحكم ولايات السلطة العثمانية بولاتها الذين لم تر البلاد منهم منذ عهد الفتح العثمانى سوى الظلم والفوضى وسوء الإدارة .

أرادت تركيا أن تستخلص مصر لنفسها ، لذلك استقر عزمها على محاربة المماليك والقضاء عليهم حتى لا ينازعوها سلطة الحكم فى البلاد .

فكانت تعليماتها للصدر يوسف ضيا تقضى بإبادة بقية المماليك كيلا تقوم لهم قائمة ، أو إبعادهم عن مصر وإسكانهم فى ولاية أخرى من ولايات السلطة العثمانية .

كانت القوات العثمانية فى مصر مؤلفة من جيشين ، الجيش الأول وعدده نحو ٢٥ إلى ٣٠ ألف مقاتل بقيادة الصدر الأعظم ، ويتألف من الانكشارية وحرس الوزير والجنود الذين حشدهم فى سورية ، والمعسكر العام لهذا الجيش فى القاهرة ، وجنوده تحتل العاصمة ومعظم بنادر مصر الوسطى والصعيد كبنى سويف والمنيا وأسيوط .

أما الجيش الثانى فكان مرابطا شمال الدلتا بقيادة حسين قبطان قومندان العمارة العثمانية التى كانت راسية فى خليج أبو قير ، وعدد هذا الجيش نحو ستة آلاف مقاتل معظمهم من الأرناؤد والانكشارية يحتلون المواقع القريبة من مرسى العمارة .

الانجليز

كانت انجلترا تطمع فى أن تبسط نفوذها فى وادى النيل وتحتل بعض المواقع المهمة على شواطئه فى البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر لتضمن لنفسها السيادة فى البحار وترقب طريقها إلى الهند .

وكان الجيش الانجليزى فى مصر عند جلاء الجنود الفرنسيين مؤلفا من ستة عشر ألف مقاتل بقيادة الجنرال هتشنسون يحتلون الاسكندرية ورشيد ودمنهور ، ويلحق به الجيش الذى قدم من الهند بقيادة الجنرال بيرد Baird وعدده نحو ستة آلاف مقاتل معسكرين فى الجيزة .

كانت انجلترا ترمى إلى استدامة احتلالها لتلك المواقع ، وقد احتلتها

مرتكنة على معاهدة التحالف المعقودة بينها وبين تركيا فى ٥ يناير سنة ١٧٩٩ .

على أنها لم تكن ترمى من هذه المعاهدة إلى طرد الفرنسيين من مصر فحسب ، بل كانت لها أطماع أخرى تضمرها لوادى النيل ، ومع أن المعاهدة كانت مقصورة على «ضمان الحكومة البريطانية سلامة أملاك السلطنة العثمانية بلا استثناء كما كانت قبل الحملة الفرنسية على مصر» لكن اللورد الجين Elgin سفير انجلترا المفوض فى ألاستانة توصل إلى إضافة شرط ملحق بالمعاهدة وهو «أن الجيش الانجليزى لا يجلو عن مصر إلا بعد استتباب الأمن فى ربوعها» .

فالحكومة الانجليزية لم تضع هذا الشرط الاضافى عبثا .. بل كانت ترمى الى التذرع به لتعطيل أجل احتلالها للبلاد ما استطاعت الى ذلك سبيلا ، وما أشبه هذا النص بالحجج التى تذرعت بها بعد ثمانين عاما لتسيغ لنفسها احتلال مصر سنة ١٨٨٢ وتطيل أجل هذا الاحتلال ، والتاريخ يعيد نفسه .

المماليك

أما المماليك فقد كانوا يطمعون بعد انتهاء الحملة الفرنسية فى استعادة حكمهم فى مصر ، وحجتهم أنهم حكامها الاقدمون الذين دانت لهم البلاد السنين الطوال ، وقد فطنوا إلى أن الأتراك يأتمرون بهم ويريدون التخلص منهم ، فاتجهوا بأنظارهم إلى الانجليز يطلبون حمايتهم ويستمدون منهم المعونة لتحقيق أطماعهم ، وكانت خطة الانجليز حيال المماليك مغرية لهم على الاسترسال فى أوهامهم وآمالهم ، ذلك أن الجنرال هتشنسون سعى قبل أن يزحف على القاهرة فى ضم المماليك من خلفاء مراد بك إلى صفوفه ، وكانوا فى ذلك الحين موالين للفرنسيين بحكم اتفاق مراد ـ كليبر ، فوعدهم أن يعيد لهم سلطتهم القديمة فى مصر إذا هم انضموا إلى جيوش الحلفاء .

فرأى المماليك أن صفقة الانجليز أربح ، وأن نجم الفرنسيين آخذ فى الأفول ، فانتقضوا عليهم ونكثوا اتفاق مراد بك وانضموا إلى صفوف الانجليز ، وعزم هؤلاء على أن يتخذوهم صنائع لسياستهم فى وادى النيل ، فأيدوهم وناصروهم ومالؤهم على استعادة سلطتهم القديمة فى مصر ، ولا عجب فى ذلك فإن حكم المماليك قائم على الظلم والفوضى ، ومن مصلحة انجلترا انتشار الفوضى والمظالم فى البلاد لتجد سبيلا لاحتلالها والتدخل فى شئونها ، من أجل ذلك توثقت عرى المودة بين المماليك والانجليز واعتقد

المماليك أن سلامتهم فى الاستظلال بحمايتهم . ولما انتهت الحرب بجلاء الفرنسيين أبدى الجنرال هتشنسون عطفا كبيرا على مطالب المماليك .

تضعضع قوة المماليك

على أن المماليك تضعضت قوتهم وتحطمت شوكتهم فى المعارك التى نشبت بينهم وبين الفرنسيين خلال الحملة الفرنسية ، ولم يبق منهم سوى عدد يتراوح بين ثلاثة آلاف وخمسمائة إلى أربعة آلاف مملوك بما فيهم بضع مئين من الأرقاء الذين اشتروهم من القوافل القادمة من سنار ، وضموهم إلى صفوفهم ، وبضع مئات من الفرنسيين الذين لم يرحلوا مع الجنود الفرنسية حين الجلاء وأثروا البقاء فى مصر فانضموا إلى صفوف المماليك .

فمثل هذه القوة لم تكن لتقف أمام قوة الجيش العثمانى المرابط فى مصر وخاصة بعد أن منعت الدولة جلب الرقيق من بلاد الشركس فنضب معين المماليك وحرموا من إكمال النقص الواقع فى صفوفهم .

هذا فضلا عن عوامل الانقسام والتنافس التى كانت تضعف قوتهم وتصدع وحدتهم ، فإن التنافس القديم الذى كان بين حزبى ابراهيم بك ومراد بك قبل الحملة الفرنسية قد استمر بعد انتهائها ، فكان لكل منهما أنصار وشيعة من الأتباع والبكوات ، ولما مات مراد بك استمر الانقسام بين أنصار إبراهيم بك وخلفاء مراد بك ، وقد استخدمت تركيا هذا التنافس لتضرب المماليك بعضهم ببعض .

وكان المماليك مختلفين كذلك فى وجهة النظر السياسية ، ففريق منهم وهو الأغلب كانوا يرون السلامة فى الاستظلال بحماية الانجليز يتخذونهم وحماة أولياء ، وعلى رأس هذا الفريق محمد بك الألفى .

وفريق آخر كان يرى الاستنجاد بفرنسا ومنهم عثمان بك البرديسى ، وفريق ثالث يرى الكف عن القتال والتزام الحياد وموالاة الأتراك وعلى رأسهم عثمان بك حسن ، وكان الألفى والبرديسى زعيمى المماليك المرادية (أتباع مراد بك) ، وكان لابراهيم بك حزب آخر يتبعه ينافس البكوات المرادية فى الزعامة والسلطة ، على أن ابراهيم بك قد تضعضعت شوكته لكبر سنه فلم يكن له من الاحترام إلا ما كان جديرا به لشيخوخته وسابق سلطته .

فالتباعد بين المماليك ، والتنافس القديم بين زعمائهم ، وأطماعهم الشخصية واختلاف وجهة نظرهم السياسية ، كل هذا الظروف مجتمعة كانت من الأسباب التى عجلت بانقراض دولتهم وإراحة مصر من حكمهم .

تلك هى القوات التى تنازعت النفوذ والسلطة فى مصر بعد جلاء الفرنسيين .

وهناك قوة رابعة ظهرت على مسرح النضال السياسى وأخذت تنمو ويشتد ساعدها دون ان تأبه لها تلك القوات الثلاث أو تحسب لها حسابا ، على أنها القوة الثابتة الخالدة المؤيدة بحقها الشرعى فى تقرير مصير البلاد ، تلك هى قوة الشعب المصرى .

بدأت هذه القوة تظهر فى الميدان خلال السنوات التى قضاها الجيش الفرنسى فى البلاد .

ظهرت الأمة بشخصية جديدة ، وروح فتية ، وعزيمة قوية ، كونتها الحوادث والشدائد ، وصقلتها التجارب والآلام .

كانت هذه السنوات الثلاث بمثابة مران على النضال والكفاح السياسى ، وتطور فى الحياة القومية ، رأت الأمة خلالها من الحوادث والانقلابات ما فتح اعينها وهز أعصابها واستثار فيها روح التطلع إلى المجد والعلا ، رأت نابليون بونابارت يخطب ودها ، ويشيد بعظمتها ، ويتملق كبرياءها القومى ، ويتغنى بماضيها ، ويعلن حقها فى أن تحكم نفسها بنفسها .

ثارت فى وجه الحكم الفرنسى غير مرة ، فاعتادت مقاومة الاضطهاد ومكافحة القوة المسلحة ، وألفت خوض غمار الوقائع والمعارك .

قاومت نابليون قاهر الملوك ومزلزل العروش .

رأت خلاصة علماء فرنسا وأطبائها ومهندسيها يعرضون عليها اثار علمهم وتجاربهم ، رأت علوما وأفكارا جديدة ، ومنشآت ونظما حديثة ، رأت «ديوانا» مؤلفا من صفوة أبنائها بعد أن كان الديوان القديم مقصورا على المماليك .

أيقظت الحوادث فيها روح المقاومة الشعبية ، تلك الروح التى تنهض بالأخلاق وترقى بالأفكار ، وتفتق الأذهان ، وتنير البصائر ، وتغرس الفضائل فى النفوس ، وأخذ ترادف الحوادث فى خلال تلك السنوات الثلاث يمزق استار الصمت والجمود التى كانت تحجب عنها نور الحياة والنشاط ، فلا غرو أن ظهرت الأمة المصرية العريقة فى الحضارة والمدنية بشخصية جديدة ولدتها الحوادث ، وأن تقتحم ميدان النضال السياسى بروح معنوية جديدة تختلف كثيرا عن حالاتها القديمة ، وكذلك الأمم المستعدة للرقى تتطور نفسيتها وتتجدد شخصيتها تحت تأثير الحوادث السياسية والانقلابات ،

وهنالك يظهر مبلغ استعداد كل أمة للرقى ومقدار ماهو كامن فى قرارة نفسها من المواهب الدفينة ، فالأمة المصرية التى ظلت السنين الطوال رازحة تحت نير الاستبداد لم تفقد مواهبها القديمة التى ورثتها عن المدنيات المتعاقبة ، بل كانت هذه المواهب كامنة تحت الرماد ، يعلوها الصدأ ، فما أن صدمتها الحملة الفرنسية حتى أخذت تبدو للعيان ، كما تصقل المعادن وتجلى جواهرها فى لهب النار ، ونهضت الأمة فى وجه الاحتلال الاجنبى تحمل بين جنبيها قوة حيوية كبيرة .

ظهر الشعب المصرى فى الميدان قويا فتيا لا يمل الجهاد ولا ينكص على الاعقاب ، ولما طويت صحيفة الغزوة الفرنسية ظل يناضل عن كيانه فى وجه العوامل المثبطة والقوات المتألبة عليه .

وإذا تتبعت التقلبات التى أعقبت جلاء الفرنسيين رأيت العامل القومى ذا أثر فعال فى سير الحوادث وتطورها .

فهذا العامل الوليد الذى تمخضت عنه المقاومة المستمرة فى عهد الحملة الفرنسية أخذ ينمو ويترعرع ويشتد ساعده ، وأبى أن يعود إلى نظام الحكم القديم أو يكون مطية لأهواء الدول الطامعة فى وادى النيل ، وجعل يتطلع إلى نظام للحكم أرقى من النظم التى رزحت تحتها البلاد السنين الطوال .

فى خلال تلك السنوات ، وفى غمار المنازعات والأطماع المختلفة ، أخذ الشعب ينظر بعين السخط والمقت إلى عودة حكم المماليك وحكم الأتراك معا ، أما حكم المماليك فلم يكن قد نسى مظالمه القديمة ، وما جره على البلاد من الخراب ، وأما الحكم التركى فقد ظهر من سيئاته ومظالمه فى خلال السنوات التى أعقبت جلاء الفرنسيين ما جعل الشعب يكره أن يعود إلى نيره القديم ، وكانت الجنود العثمانية التى ساقتها تركيا إلى مصر خليطا من أردأ عناصر السلطنة العثمانية مجردة من النظام والرقى والتهذيب ، يقودها رؤساء جهلاء لم يألفوا من أساليب الحكم سوى الظلم والارتكاب ، ولم يكن لهم هم سوى النهب والتخريب والاستهانة بأرواح الناس وإرهاق الشعب بمختلف أنواع المظالم والمغارم ، فلا جرم أن كره الشعب حكم المماليك والأتراك وأخذ يدأب ويعمل للتخلص من كلا الحكمين معا .

قادة الشعب وزعماؤه

ظهر للشعب فى خلال تلك السنين زعماء معدودون كونتهم الحوادث وثقفتهم التجارب ، فكان لم فضل كبير فى إظهار شخصية الأمة وتوجيهها

إلى ما فيه خيرها وصالحها ، نالوا هذه الزعامة بما كان لهم من المقام المحمود بين الناس قبل الحملة الفرنسية وما أكسبهم اضطهاد الفرنسيين من المحبة والجلال ، وما اشتهروا به من نصرة المظلوم وحماية الضعفاء فى وجه القوة والظلم .

وقد ساعد على زيادة نفوذهم بعد جلاء الفرنسيين ان التنازع بين المماليك والأتراك قد أضعف مركز الفريقين ، فاستطاع الشعب فى خلال هذا التنازع أن يكسب نفوذا جديدا وسلطة جديدة ، وظهر لزعماء الشعب صوت مسموع فى حكومة البلاد وتطور الحوادث وعزل الولاة وتعيينهم .

فالنفوذ الجديد الذى اكتسبه الشعب وزعماؤه هو من أكبر مميزات سنوات الانتقال التى أعقبت الحملة الفرنسية .

فلنستعرض شخصية أولئك الزعماء الذين ملكوا قيادة الشعب فى دور من أهم أدوار حياته القومية ، ونخص بالذكر من كانوا أكثرهم عملا وأكبرهم أثرا فى سير الحوادث وتطورها .

السيد عمر مكرم

هو أكبر شخصية ظهرت بين رجالات مصر فى فجر النهضة القومية ، كان أكبر زعماء الشعب نفسا ، وأكثرهم شجاعة وإقداما ، وأعظمهم نفوذا ، وأرفعهم كلمة ، فلا غرو أن نعده زعيم الزعماء ورئيس الرؤساء .

لا نعرف الشىء الكثير عن مولده ونشأته ، ذلك لأن الجبرتى لم يترجم له كما ترجم لمعظم معاصريه ، لأن عادة الجبرتى أن يذكر تراجم الوفيات من رجالات مصر ، وهو يدرك وفاة السيد عمر مكرم ، ولذلك حرمنا ترجمة وافية لهذا الرجل النبيل من قلم مؤرخ محقق كانت ميزته البحث والاستقصاء ، والذى عرفناه من خلال تحقيقات الجبرتى أن السيد عمر مكرم أسيوطى المولد والنشأة ، ولد فى أسيوط ونشأ فيها ، ولذلك يسميه فى بعض المواطن السيد عمر الأسيوطى ، وقد تحققنا أنه من سلالة الحسن بن على ابن أبى طالب كرم الله وجهه .

كان نقيبا للأشراف فى مصر قبل مجىء الحملة الفرنسية ، فهو بحكم توليه النقابة فى مقدمة رجالات مصر منزلة وجاها .

فلما جاء الفرنسيون ظهرت شخصيته الكبيرة ونفسيته القوية بما دعا الشعب إليه من التطوع للقتال وما بثه فى نفوس الجماهير من روح المقاومة ،

يدلك على ذلك ما ذكره الجبرتى عن حالة القاهرة قبل واقعة الأهرام بأربعة أيام من النداء بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس استعداداً للمقاومة ، قال «وصعد السيد عمر افندى نقيب الاشراف إلى القلعة فانزل منها بيرقا كبيرا أسمته العامة البيرق النبوى فنشره بين يديه من القلعة إلى بولاق وأمامه ألوف من العامة» .

وهذا هو بعينه استنفار الشعب إلى التطوع العام لصد هجمات المعتدى المغير والسير فى طليعة المتطوعين للقتال .

فتأمّل فى حالة نقيب الأشراف النفسية وهو ينزل من القلعة ناشرا علم الجهاد يشق المدينة من شرقيها إلى غربيها وحوله الألوف من الناس ذاهبا بهم إلى بولاق تجاه أمبابه حيث وقعت الواقعة ، أن هذا الحالة النفسية هى أرقى ما يتصف به زعماء الشعب فى ساعة الشدة ، وهى لا تقل نبلاً عن الدعوة للتطوع العام التى بثها زعماء الثورة الفرنسية فى نفوس الشعب الفرنسى حينما نادوا «أن الوطن فى خطر» .

فالسيد عمر مكرم كان إذن فى طليعة المتطوعين للقتال المدافعين عن القاهرة فى وجه الاحتلال الفرنسى ، ولما وقعت الهزيمة فى معركة الأهرام لم يرض البقاء فى القاهرة بعد أن أصبحت تحت رحمة الغزاة ، ولم تلن قناته لهم على الرغم من أنهم اختاروه لعضوية الديوان الأول ، فرفض عضوية الديوان ، وهاجر إلى سورية وأبى العودة إلى القاهرة ، ولو هو عاد إليها لنال من احترام الفرنسيين وعطفهم ما يغرى النفوس ويكسر من حدتها ، ولكنه آثر الهجرة والنفى وشظف العيش إباء للضيم ونفورا من الذل ، وترك فى مصر أملاكه وأمواله عرضة للنهب والمصادرة .

وظل فى منفاه بمدينة (يافا) إلى أن احتلها الفرنسيون أثناء الحملة على سورية ، فقابله بها نابليون ، وكان يعرف منزلته من قبل ، فأمر بارجاعه إلى مصر معززا مكرما ، فعاد اليها لكنه اعتزل الفرنسيين واعتكف فى بيته ولم يشأ أن يتصل بهم او يتقرب اليهم ، ولو انه أراد ذلك لاغدقوا عليه النعم وخصوه بأعظم المزايا ليجتذبوه إلى صفوفهم ، وبقى فى عزلته إلى أن أبرمت معاهدة العريش ثم نقضت وتجددت الحرب بين الفرنسيين والعثمانيين وثارت القاهرة ثورتها الثانية ، فكان من زعمائها ، ولما أخمد الفرنسيون تلك الثورة هاجر من مصر ثانية ، واستهدف فى هذه المدة أيضا للنهب والمصادرة ، ثم عاد إلى مصر بعد جلاء الفرنسيين ، فزادت منزلته القديمة فى نفوس الشعب وعادت إليه نقابة الأشراف التى نزعت منه أثناء هجرته الأولى .

وإذا تأملت فى الحركات التى تتابعت فى البلاد بعد انتهاء الحملة الفرنسية تجد أن اسم السيد عمر مكرم يملأ الجو السياسى بما كان له من عظيم النفوذ والمكانة السامية والأثر البالغ فى تطور الحوادث ، وتتبين أن له اليد الطولى فى الثورة التى قامت ضد حكم المماليك سنة ١٨٠٤ ، وضد الوالى التركى سنة ١٨٠٥ ، وكان منظورا إليه من الشعب كرئيس تستجاب دعوته وتطاع كلمته وملجأ يأوى إليه المظلومون فيرفع عنهم شر المظالم ويقيهم طغيان الحكام .

فترجمته مقترنة بالحوادث الجسيمة التى وقعت فى البلاد بعد جلاء الفرنسيين إلى ولاية محمد على عرش مصر ، وتجد هذه الترجمة فى تتبع النبذ الآتية ولقد أفردنا له فوق ذلك نبذة خاصة تحت عنوان (عمر مكرم روح الحركة) يتبين منها مبلغ ما كان له من الفضل فى ثورة الشعب على الوالى التركى .

السيد محمد السادات

سليل بيت السادات العريق فى المجد وشرف المحتد ، تربى فى مهاد العز والنعمة ، وتلقى العلوم الشرعية واللغوية على شيوخ الأزهر فوصل فى العلم والثقافة إلى ما وصل إليه علماء ذلك العصر ، وجمع العلم وشرف النسب ، ذلك إلى ماورثه أسلافه من الثروة والجاه .

تولى خلافة آل السادات ومشيخة سجادتهم سنة ١١٨٢ هجرية على عهد على بك الكبير ، فعظمت مكانته وزادت منزلته لما اتصف به من الشمم والإباء والحزم مع الكرم وحسن المعاشرة والترفع عن الصغائر ، وحب المحاضرة فى العلم والأدب .

عاش السيد محمد السادات وافر الحرمة نافذ الكلمة عظيم المكانة بين الناس سواء قبل الحملة الفرنسية وفى خلالها وبعد انتهائها .

كان جريئا فى الحق لايهاب من بيدهم سلطة الحكم ، وبحسبك أن تتأمل فى موقفه حينما أوفدت الدولة العثمانية حسن باشا الجزائرلى سنة ١٧٨٦ إلى مصر لمحاربة المماليك واستعادة سلطتها المطلقة لتحكم على مبلغ ما اتصف به من الشهامة والمروءة ، فقد أسرف حسن باشا فى القسوة والجبروت واستباح أموال المماليك وقبض على نسائهم وأولادهم وأمر بانزالهم سوق المزاد وبيعهم زاعما انهم أرقاء لبيت المال ، فاجتمع الشيوخ والعلماء وذهبوا إليه معترضين ، وكان السيد محمد السادات هو المتكلم عنهم ، فاشتد فى مخاطبته وقال له : «أأنت أتيت إلى هذا البلد وأرسلك

السلطان لإقامة العدل ورفع الظلم كما تقول أم لبيع الأحرار وأمهات الأولاد وهتك الحرمات ؟» فقال له حسن باشا : «هؤلاء أرقاء لبيت المال» ، فقال له : هذا لا يجوز ولم يُقل به أحد .

فحنق حسن باشا على السادات والمشايخ وتهددهم بأن يبلغ السلطان معارضتهم لأوامره ، فلم يعبأ السادات بتهديده وأصر على معارضته حتى أفحمه وحمله على العدول عن قصده .

كان السادات فى موقفه هذا معارضا سياسة الدولة ، متحديا نائبها ، مؤيدا قوما تعدهم الدولة من العصاة ، ووقف كذلك فى وجه حسن باشا عندما صادر أموال المماليك ، فقد فرّ زعماؤهم من القاهرة إلى الوجه القبلى حتى لا يبطش بهم حسن باشا وأودع كبيرهم إبراهيم بك عند السادات ودائعه الثمينة ، فعلم بذلك حسن باشا ، فأرسل يطلب الوديعة ، فرفض بإباء ان يسلمها وقال فى ذلك :

«إن صاحبها لم يمت ، وقد كتبت على نفسى وثيقة بذلك فلا أسلمها ما دام صاحبها فى قيد الحياة» .

فحنق عليه حسن باشا وكاد يبطش به لولا أن خشى نفوذه ومنزلته بين قومه . وقف السادات هذا الموقف وهو أعزل لاسلاح معه إلا سلاح الحق ، وقاوم إرادة وزير من وزراء الدولة جاء على رأس جيش ليعيد فى مصر سلطة الحكومة العثمانية ، ولا يقف الرجل مثل هذا الموقف وخاصة فى ذلك العصر إلا إذا كان على حظ عظيم من الشجاعة وعلو النفس .

ومما يذكر عنه فى مجابهة رؤساء المماليك أنه لما جاءت الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ ووصلت العاصمة أخبار احتلال الاسكندرية وجمع ابراهيم بك ومراد بك العلماء للتشاور فى الأمر كان السيد السادات ضمن المجتمعين ، فوبخ المماليك على سوء سياستهم وقال لهم : «إن كل هذا من سوء فعالكم وظلمكم ، وآخر أمرنا معكم أنكم ملكتمونا للأفرنج» وخص مراد بك بالتوبيخ قائلا له : «وخصوصا بأفعالك وتعديك أنت وأمراؤك على متاجرهم وأخذ بضائعهم» .

فنقم عليه مراد بك هذه اللهجة فى الخطاب ، وأسرّها فى نفسه ، قال الجبرتى فى هذا الصدد ان مراد بك بعد أن اصطلح مع الفرنسيين أغراهم بالسيد السادات فكان هذا الإغراء من أسباب اضطهادهم إياه ، وقد ذكر عنه المؤرخون الفرنسيون أنه لم يكن يحب المماليك وكان المماليك من جهتهم لا يحبونه ويحقدون عليه لمكانته من الشعب .

وقد رفض عضوية الديوان فى عهد الحملة الفرنسية ، وظل محفوظ الكرامة مقبول الشفاعة ، ولم تلن قناته للفرنسيين ولا هم كانوا يثقون به ، وحدثت بينه وبينهم مشادة فى بعض المواطن ، فقد تقدم القول بأنهم اتهموه بزعامة ثورة القاهرة الأولى ، وقامت عليه البينات بذلك ، ولكن نابليون رأى أن محاكمته تجعله شهيدا فى نظر الشعب وأن الضرر من قتله أكثر من نفعه فأبقى عليه ، وحدث أنه لما أمر نابليون باعتقال ملا زاده ابن القاضى التركى كان الشيخ السادات اكثر العلماء اعتراضا على حبسه ، وعلم نابليون بموقفه فى هذا الصدد ، فنقم ذلك منه فاستدعاه ولامه على مسلكه ، فتدخل بينهما الشيخ محمد المهدى (الذى كان موضع ثقة نابليون) والقوميسير الفرنسى للديوان فانتهت المسألة بسلام .

ويقول عنه المؤرخون الفرنسيون أنه كان من زعماء ثورة القاهرة الثانية ووصفوه بأنه رجل يميل إلى الهياج والشغب .

وقد ناله من اضطهاد الفرنسيين فى عهد كليبر ومنو ما تقدم بيانه ، فلما جلا الفرنسيون عن البلاد علت منزلته فى نظر الشعب واشترك فى الحركات الشعبية التى قامت فى مصر ، ومع أن السيد عمر مكرم والسادات كانا فى مقدمة زعماء الشعب منزلة ونفوذا فقد وقعت بينهما المجافاة فى عهد محمد على وانضم السادات إلى محمد على فى الوقيعة بالسيد عمر مكرم ، وتولى نقابة الأشراف بدله وتوفى السادات سنة ١٢٢٨ هجرية .

الشيخ عبدالله الشرقاوى

هو الشيخ عبدالله حجازى بن ابراهيم ، ولد فى حدود سنة ١١٥٠ هجرية فى قرية (الطويلة) بإقليم الشرقية ، ولذلك سمى الشرقاوى ، وحفظ القرآن فى قرية (القرين) القريبة من الطويلة ، ثم أرسله أبوه إلى الأزهر ليتلقى العلم على شيوخ ذلك العصر ، وكان شأنه شأن طلبة العلم الذين يفدون على الأزهر ويتلقون علومه ثم ينتظمون فى سلك العلماء ، وتميز بالجد والمثابرة فى التحصيل وكان شافعى المذهب له مؤلفات فى العلوم الفقهية والتصوف .

وكان فى بداءة عهده «فى قلة من خشونة العيش وضيق المعيشة» كما يقول الجبرتى ، فكان بعض معارفه يواسونه ويمدونه بالعون إلى أن اشتهر ذكره بين الناس ، فواصله بعض السراة والتجار بالهدايا والصلات «فراج حاله وتجمل بالملابس وكبر تاجه» .

وبعد وفاة الشيخ احمد العروسى سنة ١٢٠٨ هـ تولى مشيخة الأزهر ، فعظمت منزلته واكسبته المشيخة نفوذا كبيرا ومكانة عظمى فى مصر لأن



صور قادة الشعب وزعمائه فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، ومن لم نعثر على صورهم اكتفينا بكتابة اسمائهم داخل الايطار (تاريخ الحركة القومية الجزء ٢ ص ٢٤٨ وما بعدها طبعة سابقة) .

شيخ الأزهر هو بمثابة كبير علماء العصر ، وكان أمراء المماليك يحترمونه ويراعون نفوذه الأدبى والدينى ، وله فى مقاومة مظالمهم مواقف تدل على مبلغ ماله من النفوذ والجاه .

ولما جاء الفرنسيون تولى فى عهدهم رياسة الديوان الذى أنشأوه ، وأسندت إليه رئاسته فى أدواره التى تعاقبت عليه ، فكان رئيسا للديوان الذى تأسس فى أول عهد الحملة ، ثم للديوان العام ، ثم للديوان العمومى والديوان الخصوصى اللذين انشأهما نابليون فى ديسمبر سنة ١٧٩٨ ، ثم للديوان الذى تأسس فى عهد الجنرال منو ، وجمع بين رأسة الديوان ومشيخة الأزهر ، فعظم جاهه وازداد نفوذه .

وكان له مع الفرنسيين شأن طويل ، فقد غضبوا عليه ثلاث مرات الأولى فى عهد نابليون حينما رفض أن يرتدى طيلسان الجمهورية المثلث الألوان ورمى به إلى الأرض ، فغضب عليه نابليون وقال إنه لا يصلح لرياسة الديوان .

والثانية فى عهد الجنرال (منو) ، فقد ارتاب الفرنسيون فى موقفه بعد مقتل الجنرال (كليبر) لأن قاتل كليبر كان يبيت فى الأزهر ويقيم به فأحضر الفرنسيون الشيخ الشرقاوى على أعتباره شيخ الجامع الأزهر والشيخ احمد العريشى قاضى مصر وحجزوهما إلى منتصف الليل ، وألزموهما البحث عن الأزهريين الأربعة الذين ذكرهم سليمان الحلبى فى اعترافه وإحضارهم كما تقدم بيانه ، وكان من نتائج هذه الحادثة وما أعقبها من تفتيش الأزهر أن العلماء وعلى رأسهم الشرقاوى اقفلوا ابواب المسجد وظل مقفلا الى ان شرع الفرنسيون فى الجلاء عن مصر .

والمرة الثالثة فى عهد (منو) أيضا حيث اعتقل فى القلعة كما فصلنا ذلك فى موضعه .

وفيما عدا هذا المرات الثلاث كان الشرقاوى يجامل الفرنسيين ويداريهم ، ويتبع حيالهم خطة المسالمة والمحاسنة ، ولعله شعر بما احتمل من تبعة أدبية جسيمة بانتهاج هذه الخطة ، فحاول فى كتابه (تحفة الناظرين) أن يدافع عن نفسه وعمن سلك مسلكه على عهد الحملة الفرنسية ، قال :

«والسبب الذى أوجب أهل مصر وقراها بعض الانقياد إليهم (إلى الفرنسيين) عجزهم عن مقاومتهم بسبب هروب المماليك الذين معهم آلات القتال ، وأنهم عند قدومهم كتبوا كتبا فرقوها فى البلاد وذكروا فيها أنهم ليسوا نصارى لأنهم يقولون ان الله واحد ، وأنهم يعظمون محمدا ويحترمون

القرآن ، وأنهم يحبون العثمانلى (كذا) ولم يأتوا إلا لطرد المماليك الظلمة لأنهم نهبوا أموالهم وأموال تجارهم ولا يتعرضون للرعايا فى شىء» .

هذه هى الروح التى أملت على الشرقاوى خطته فى محاسنة المحتلين ومجاملتهم ، وقد كان يجمل بكبير علماء مصر الا ينهج هذه الخطة وكان مطلوبا منه على الأقل ان يتبع خطة السيد عمر مكرم او السيد محمد السادات ، ومهما دافع عن نفسه وعن خطته فدفاعه لا يثبت أمام البحث والتحقيق ، لأنه ليس صحيحا أن الفرنسيين إنما جاءوا لطرد المماليك الظلمة وأنهم لا يتعرضون للرعايا فى شىء ، فإنهم جاءوا للفتح والغزو وإخضاع مصر والمصريين لحكمهم ، والشيخ الشرقاوى نفسه يعترف فى كتابه أن الفرنسيين أخلفوا عهدهم الذى اعلنوه فى كتبهم ومنشوراتهم ، فقد قال فى هذا الصدد : «ولكن لما دخلوا مصر لم يقتصروا على نهب أموال المماليك بل نهبوا الرعايا وقتلوا جملة من الناس لما قامت عليهم أهل مصر بسبب طلبهم تفريد غرامة (فرض ضريبة) على البيوت وقتل منهم ما يقرب من الألف وهتكوا بعض الأعراض فى مصر وقراها فإن كل قرية حاربتهم نهبوا أموالها وقتلوا رجالها وأخذوا نساءها وقتلوا من علماء مصر نحو ثلاثة عشر عالما» .

فمع اعتراف الشرقاوى بهذه الحقائق لا يقبل منه عذر فيما اختطه لنفسه حيال الفرنسيين من المداراة والمجاملة ، ولو أنه لم ينتفع فى ذات نفسه من هذه السياسة لكان محتملا ان يكون اتباعه إياها نتيجة اعتقاد منه بصلاحها للبلاد ، ولكن انتفاعه من ورائها مما يدعو إلى الشك فى أن خطته كانت عن عقيدة سليمة بريئة من الشوائب ، فالجبرتى وهو مؤرخ نزيه صادق يقول فى ترجمته ان الدنيا قد اتسعت عليه فى عهد الفرنسيس وزاد طمعه فيها ، ويقول انه انتفع فى أيامهم بما كانو يؤدى له من راتب رياسة الديوان وما كان يحصل عليه من «قضايا وشفاعات لبعض الاجناد المصرية ، وجعالات على ذلك ، واستيلاء على تركات وودائع خرج أربابها فى حادثة الفرنساوية وهلكوا ، واتسعت عليه الدنيا وزاد طمعه فيها واشترى دارا واسعة بظاهر الأزهر فى مساكن الأمراء الأقدمين» .

وقد ظل الشرقاوى مرعيا مشارا إليه بالبنان لمكانته العلمية ولما كانت تسبغه عليه مشيخة الأزهر من الاحترام والرياسة .

واشترك بعد جلاء الفرنسيين فى الحوادث التى ادت الى ولاية محمد على واقترن اسمه بهذا الحادث الهام .

وكانت وفاته سنة ١٢٢٧ هجرية .

الشيخ محمد الأمير

من كبار العلماء المشار إليهم بالبنان ، ولد فى (سنبو)[1] سنة ١١٥٤ هجرية ، وحفظ القرآن وطلب العلم على شيوخ عصره ، وتلقى علوم الهيئة الهندسية على الشيخ حسن الجبرتى والد المؤرخ الشهير عبدالرحمن الجبرتى ، فجمع بين العلوم الشرعية والرياضية ، وذلك إلى تضلعه فى علوم الأدب واللغة ، واشتهر بمؤلفاته العديدة فى مختلف العلوم .

ذاع ذكره فى مصر وفى مختلف أنحاء الشرق ، فكانت تأتيه الصلات من سلطان المغرب الأقصى ومن مختلف نواحيه كل عام ، وبلغت شهرته الاستانة وذهب إليها وألقى بها دروسا حضرها علماء الاستانة وشهدوا له بالفضل والعلم .

وقد انتخب عضوا بالديوان فى عهد نابليون ثم فى عهد منو ، واعتقله الفرنسيون بالقلعة فى شهر مايو سنة ١٨٠١ كما أسلفنا ذلك فى موضعه .

واشتهر بجرأته وشجاعته ، وكان فصيحا متكلما لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، يغلظ القول للبكوات المماليك والولاة الأتراك ، ذكر الجبرتى فى ترجمته ما كان من الوالى التركى خورشيد باشا واعتقاله السيدة نفيسة المرادية (زوجة مراد بك) وغيرها من نساء المماليك بعد انتهاء الحملة الفرنسية ، فقال ما خلاصته انه لما شاع الخبر تغيرت خواطر الناس وركب القاضى ونقيب الأشراف (السيد عمر مكرم) والشيخ السادات والشيخ الأمير وذهبوا إلى الباشا وتحدثوا إليه فى شأنها ، فاتهمها بأنها أرسلت إلى بعض كبار رؤساء الجند تستميلهم إلى المماليك العصاة وأنها وعدتهم بدفع رواتبهم ، وقال أنها مادامت تستطيع أن تدفع للجند رواتبهم فينبغى أن تدفعها لخزانة الحكومة ، واتضح أن غرضه إرهاق السيدة نفيسة وابتزاز المال منها قهرا ، فقال الشيوخ ان الأمر يحتاج إلى تحقيق ، وقام الشيخ سليمان الفيومى والشيخ محمد المهدى وخاطبا السيدة نفيسة فى ذلك فأنكرت ما نسب إليها ، وقالت : «إذا كان قصده مصادرة أموالى فلم يبق عندى شىء» فاعترض الشيوخ على خورشيد باشا وحدث أخذ ورد بينهم ، وقال الشيخ الأمير غاضبا : إن هذا أمر غير مناسب ويترتب عليه مفاسد ويقع اللوم علينا فإذا كان الأمر كذلك فلا علاقة لنا بشىء من هذا الوقت او نخرج من هذا البلد ، ومعنى ذلك أن الشيخ الأمير يهدد الوالى بمقاطعة الشيوخ له ، وهذا أمر له عواقبه ، فتوسط بعض أعوان خورشيد باشا فى الخلاف وتحدثوا إليه فى إطلاق سراح السيدة نفيسة المرادية والسماح لها بأن تقيم فى بيت السادات ، فرضى الوالى بذلك وأنزلوها من القلعة إلى بيت السادات .

---

(١) بمركز ديروط بمديرية اسيوط

فهذه الحادثة تدلك على مكانة الشيخ محمد الأمير وما كان له من الهيبة والجراة فى مقاومة مظالم الحكام .
وكانت وفاته سنة ١٢٣٢ هـ .

الشيخ سليمان الفيومى

ولد بالفيوم وحضر إلى مصر وحفظ القرآن وتلقى العلوم بالأزهر ، ومع قلة بضاعته فى العلم كما يقول الجبرتى فقد نال مكانة كبيرة بين الناس بما اشتهر عنه من الكرم والجود وحسن المعاشرة والبشاشة والتواضع والمواساة للكبير والصغير ، فكان الناس يلجئون إليه لرفع المظالم وقضاء الحاجات فلا يبخل على أحد بجاهه وسعيه .

فالرجل إذن كان مثال الشهامة والمروءة ، فلا غرو أن نال احترام الناس ومحبتهم ونال احترام الأمراء المماليك ونسائهم بما اشتهر عنه من مكارم الأخلاق والتعفف والتورع ، فكان يدخل بيوتهم ويتلقاه نساء الأمراء فى مجالسهن ويجلس معهن ويسرهن محادثته ويقلن - على رواية الجبرتى - «زارنا أبونا الشيخ ، وشاورنا أبانا الشيخ ، فأشار علينا بكذا ونحو ذلك» .

وله مواقف مشهورة تدل على الشهامة والمروءة فمن ذلك أنه لما جاء حسن باشا الجزائرلى إلى مصر سنة ١٧٨٦ لإعادة الحكم التركى ومحاربة المماليك ارتحل هؤلاء إلى الصعيد وأحاط حسن باشا بدورهم وطلب الأموال من نسائهم واعتقل اولادهم وجواريهم وازواجهم وأنزلهم إلى سوق المزاد فالتجأ إلى المترجم الكثير من نساء الأمراء فآواهن واجهد نفسه فى السعى لحمايتهن ومواساتهن مدة إقامة حسن باشا بمصر .

ولما جاء الفرنسيون إلى مصر وطردوا المماليك خرج نساؤهم من بيوتهم وذهبن إليه أفواجا لاجئات إليه ، فامتلأت بهن داره وما حولها من الدور ، فحماهن وتصدى للدفاع عنهن أمام الفرنسيين .
وكان مرعىَّ المكانة مقبول الشفاعة فى عهد الحملة الفرنسية ، وانتخب عضوا بالديوان فى عهد نابليون ثم فى عهد الجنرال (منو) ، وهو من أعضائه النابهين .

وكان له ضلع فى ثورة أمير الحج كما أشرنا الى ذلك فى موضعه فقد أخذ يطوف البلاد مع مصطفى بك أمير الحج لإثارة الفلاحين ، وكتب عنه الجنرال (دوجا) فى رسالة إلى نابليون أن طوافه مع أمير الحج كان من أسباب استفحال الثورة لما له من المكانة بين الناس ، وقد رجع الى القاهرة بعد

اخماد ثورة أمير الحج ووضع تحت المراقبة .

وفى عهد الجنرال منو وضع الفرنسيون نظاما جديدا لتعيين مشايخ البلاد (العمد) ، فأوجبوا أن يكون تعيين كل شيخ بلد بأمر من القائد العام وجعلوا لهيئة مشايخ البلاد مفتشين وجعلوا لها رئيسين أحدهما فرنسى والآخر مصرى وهو الشيخ سليمان الفيومى ، فصار كما يقول الجبرتى «شيخا للمشايخ» ، فازدحمت داره بمشايخ البلدان يأتون إليه أفواجا ويذهبون أفواجا .

وفى آخر عهد الحملة الفرنسية اعتقل فى القلعة حين وردت أنباء الحملة الإنجليزية العثمانية ، ولم يلبث قليلا حتى أفرجوا عنه .

وجاء العثمانيون والمترجم فى عداد العلماء والرؤساء ، وافر الحرمة ، شهير الذكر بعيد الصمت ، مرعى الجانب ، مقبول القول عند الأكابر والأصاغر .

وقد لازمته سجيته التى اشتهر بها فى إيواء المنكوبين ومواساتهم ومات سنة ١٢٢٤ هجرية .

الشيخ مصطفى الصاوى

من كبار العلماء والفصحاء المشار إليهم بالبنان ، وسمى الصاوى نسبه إلى بلدة (الصوة) من أعمال الشرقية ، وقد انتقل منها أبوه إلى السويس وولد بها المترجم فارتحل إلى مصر ، وكان ولده من أعيان التجار فألحق ابنه بالأزهر فحفظ القرآن واشتغل بالقراءة وحضر الدروس على شيوخ ذلك العصر ، وتضلع فى العلوم وضرب بسهم فى الأدب والبلاغة ، فكان كاتبا بليغا وشاعرا أديبا ، وقد أورد الجبرتى شيئا من نظمه ونثره ، وكان علماء الأزهر يعترفون له بالتفوق فى الكتابة والفصاحة .

ويدلك على منزلته من العلم انه كان مرشحا لمشيخة الجامع الأزهر بعد وفاة الشيخ العروسى ، وزاحم فيها الشيخ عبدالله الشرقاوى ، فهو إذن قرين الشرقاوى ونده فى العلم والمكانة ، ولكن مشيخة الجامع استقرت للشرقاوى ، وكان الشيخ الصاوى يتولى من قبل وظيفة التدريس فى المدرسة الصلاحية المجاورة لضريح الأمام الشافعى ، وهى من وظائف مشيخة الأزهر ، فلما تولى الشرقاوى المشيخة بقيت وظيفة التدريس فى يد الشيخ الصاوى ، وتلك ميزة تدل على ماله من المكانة العلمية .

ولما جاء الفرنسيون ووقعت هزيمة امبابة كان الشيخ مصطفى الصاوى هو والشيخ سليمان الفيومى على رأس الوفد الذى ذهب بالنيابة عن سكان القاهرة لمقابلة نابليون ، وانتخب عضوا بالديوان وظل عضوا به فى عهد نابليون وفى عهد الجنرال منو ، واضطهده الفرنسيون بعد إخماد ثورة القاهرة الثانية فخصوه بجزء من الغرامة التى فرضوها على سكان القاهرة ، واعتقلوه حتى سدد ما فرض عليه ، وكان نصيبه فى الغرامة خمسين ألف ريال .

واعتقلوه للمرة الثانية فى مارس سنة ١٨٠١ بعد وصول الحملة الانجليزية العثمانية ثم أفرجوا عنه لمرضه .

وكانت وفاته فى شهر ذى القعدة سنة ١٢١٦ ، ولم يدرك ثورة الشعب على حكم المماليك وعلى الوالى التركى .

الشيخ محمد المهدى

عالم من كبار العلماء ، اشتهر بسعة العلم وحدة الذكاء وقوة العارضة ، وضرب بسهم فى الأدب والإنشاء ، تردد اسمه كثيرا فى مذكرات نابليون وقواد جيشه وفى معظم المراجع الفرنسية .

لعب دورا كبيراً على مسرح الحوادث السياسية فى أواخر القرن الثامن عشر واوائل التاسع عشر .

ولد فى (ناهية) من أعمال الجيزة ، وسبب تسميته بالحفنى أن والده كان قبطيا وأسلم المترجم وهو دون البلوغ على يد الشيخ الحفنى من شيوخ ذلك العصر ، وفارق أهله ، وحضنه الشيخ الحفنى ورباه وأحبه واستمر بمنزله مع أولاده واعتنى بشأنه ، فقرأ القرآن ولما ترعرع اشتغل بطلب العلم واجتهد فى التحصيل ليلا ونهارا ، فظهرت عليه مخايل النباهة والجد ، وانتقل من التحصيل إلى التدريس فى الأزهر سنة ١١٩٠ هـ فاشتهر بسعة العلم وحسن الإلقاء مع الفصاحة والبيان وسلامة التعبير وتحقيق المشكلات ، فأدرك مكانة سامية بين أقرانه ، وساعده الحظ بانضمامه إلى الأمير إسماعيل بك الذى كان ينافس مراد بك وابراهيم بك فى إمارة مصر أواخر القرن الثامن عشر ، فلما فاز إسماعيل بك على خصميه بمعاونة حسن باشا الجزائرلى نال الشيخ محمد المهدى حظوة كبيرة لديه وأغدق عليه الخلع والعطايا .

فلما جاءت الحملة الفرنسية ، بدأ عهد جديد للمهدى نستخلصه من المراجع الفرنسية ومما ذكره الجبرتى ، فالشيخ المهدى قد نال من ثناء

نابليون ومديحه ما جعله فى نظره وفى نظر قواد الحملة الفرنسية فى طليعة العلماء ، فقال عنه فى مذكراته «أنه أذكى علماء الأزهر وأفصحهم لسانا وأكثرهم علما وأصغرهم سنا» ، وكان يخصه بالثقة فى كثير من المواطن ؛ فقد كان سكرتيرا لأول ديوان انشأه نابليون ، وأدرك من السلطة والنفوذ ما لم يتوافر لأحد من أعضاء الديوان ولا لرئيسه ، وكان نابليون يعهد إليه بصياغة منشوراته فى القالب العربى المسجع ، ولما زحف على سورية واحتل قلعة العريش وعزم على أن يبلغ نبأ هذا الانتصار إلى المصريين أنفذ إلى الجنرال (دوجا) نائبه فى القاهرة كتيبة من الجنود تحمل الإعلام التى استولى عليها من العثمانيين وعهد إليه أن يرفعها على منارات الأزهر ، وكتب إليه فى هذا الصدد يقول : «أريد ان تقابلوا الشيخ المهدى وأعضاء الديوان وتتفقوا معهم على إقامة احتفال صغير لمقابلة الأعلام المرسلة لكم» .

فاختصاص نابليون الشيخ المهدى بالذكر دليل على ما كان يشعر نحوه من الاحترام والثقة .

وكان الجنرال دوجا الذى استخلفه نابليون فى القاهرة أثناء الحملة على سورية يركن إلى المهدى ويشاوره فى كثير من الأمور .

ولما غضب نابليون على السادات لاعتراضه على اعتقال ملا زاده ابن القاضى التركى كان الشيخ المهدى هو الداخل فى الصلح بينهما ، فهذه الوقائع تدلك على ما كان للمهدى من المكانة عند أقطاب الحملة الفرنسية .

والظاهر أنه لم يستهدف لغضب المحتلين إلا مرة واحدة أو مرتين ، فالمرة الأولى لما عاد نابليون بعد انتصاره فى معركة (أبو قير) البرية ، فقد ساءه ما علمه عن المهدى أنه كان يعارض محافظ المدينة فى أحكامه ، وأظهر استياءه من سلوك المهدى والصاوى وبقية أعضاء الديوان ، وعاتبهم على مسلكهم ، ولكنه ما لبث أمام حُسن بيان المهدى أن تجاوز عن عتابه .

والمرة الثانية فى أواخر عهد الحملة الفرنسية حيث اعتقلوه بالقلعة ضمن من اعتقلوهم من أعضاء الديوان .

وقد احتفظ الشيخ المهدى بمكانته بعد جلاء الفرنسيين ، فصار من المتقدمين والمتصدرين فى الحركات الشعبية التى ظهرت على مسرح الحوادث السياسية ، واشترك مع السيد عمر مكرم والسادات والشرقاوى وغيرهم فى تولية محمد على حكم مصر ، وكان له فى هذا الصدد فضل مشهور ومقام محمود ، وهو الذى تولى تحرير محضر اجتماع العلماء وقرارهم بعزل خورشد باشا الوالى التركى ، وهو موقف تاريخى يشرف المترجم ويخلد اسمه ، ولكنه بعد أن تم الأمر لمحمد على كان قوام الوقيعة بالسيد عمر مكرم مما تراه مفصلا فى الحلقة الثانية من هذه المجموعة .

ولم يزل المهدى مرعىّ المقام عظيم المكانة إلى أن توفاه الله سنة ١٢٣٠ هجرية عن نحو خمس وسبعين سنة .

السيد أحمد المحروقى

كبير تجار القاهرة ، بل كبير تجار مصر فى ذلك العصر ، تختلف شخصيته عن الشخصيات المتقدمة بأنه نشأ فى غير البيئة التى نشأوا فيها ، فلا هو تخرج فى الأزهر ، ولا نال مكانته بانتسابه للعلم ، بل نشأ من بيت تجارى عريق ، ومارس التجارة فنال فيها منزلة سامية وأدرك بفضلها مركزا اجتماعيا كبيرا لا يقل رفعة وسموا عن منزلة كبار الرؤساء والعلماء ، وهذا يدلك على مبلغ ما للتجارة والأعمال الاقتصادية من الاحترام عند الشعب ، ولا غرو فقد كانت طبقة التجار هيئة ممتازة بين طبقات الأمة كما بينا ذلك فى الفصل الثانى . (ص ١٨)

كان أبوه من تجار الحرير بسوق العنبريين بمصر واشتهر بالصدق والأمانة والتدين والصلاح ، فأحسن تربية ابنه ، فلما ترعرع خالط الناس ومرن على الكتابة ، وكان على غاية من الحذق والنباهة ، وأخذ وأعطى ، وباع واشترى وشارك وتدخل مع التجار ، وحاسب على الألوف .

وقد شارك المترجم فى العمل تاجرا من كبار تجار القاهرة يسمى السيد أحمد بن عبدالسلام ، فضرب فى تجارة الصادرات والواردات بسهم وافر ، ولما مات السيد أحمد المذكور خلفه المترجم فى مركزه التجارى وفى منصبه (شاه بندر التجار) ، فصار كبير تجار القاهرة ، وإذا لاحظنا أن القاهرة عاصمة القطر التجارية كان المحروقى كبير تجار مصر قاطبة ، وقد ظهرت مواهبه ومزاياه فى مركزه الجديد ، فزادت شهرته وعظم شأنه ، واتصل بأمراء مصر من المماليك وتصدى لقضاء مطالبهم وهم أصحاب الحل والعقد وبيدهم سلطة الحكم ، فكانوا يبتاعون منه مطالبهم ومطالب الحكومة ، فاتسعت تجارته وذاع صيته فى الأقطار البعيدة وصار أكبر تجار الصادرات والواردات ، وتعددت معاملاته التجارية مع سائر الأقطار الشرقية وبعض الأقطار الافرنجية .

فالمحروقى إذن هو نموذج صالح يصح أن يقتدى به إلى اليوم فى الاضطلاع بالأعمال التجارية والاقتصادية والعظيمة المدى ، وفى إنماء ثروة مصر القومية .

ويدلك على مبلغ مكانته بين الناس انه لما اعتزم أداء فريضة الحج سنة ١٢١٢ هجرية «كان يوم خروجه يوما مشهودا اجتمع الكثير من العامة والنساء وجلسوا بالطريق للفرجة عليه» كما يقول الجبرتى .

فهذا الوصف يعطيك صورة من منزلة المترجم بين عظماء عصره وما أدركه من العز والجاه .

وظل على هذه المكانة حينما جاء الفرنسيون إلى مصر ووقعت هزيمة امبابة أثناء رجوعه من الأقطار الحجازية ، وقد جاء فى قافلة نهبها العربان بالقرب من بلبيس ، وكان نابليون وقتئذ يتعقب إبراهيم بك فى الشرقية ، فقابله وعرف مكانته فأكرم مثواه ووعده بردّ ما نهب منه ، وأرسل يتعقب المعتدين وردّ إليه ما أمكنه استخلاصه ، ورجع إلى القاهرة ، فكان لمنزلته التجارية والمالية موضع احترام الفرنسيين ، وانتخب عن التجار ضمن أعضاء الديوانين العمومى والخصوصى اللذين انشئا سنة ١٧٩٨ ، واصطحبه نابليون فى رحلته إلى السويس .

ولما وقعت ثورة القاهرة الثانية كان من زعمائها ، والمتصدرين لتنظيمها بماله وهمته ونفوذه .

يتبين مما تقدم أن السيد المحروقى لم يكن متوفرا على أعمال تجارته الواسعة فحسب ،بل كان يشترك فى الحياة العامة ، فارتفع إلى مستوى زعماء الشعب ، فهو من هذه الناحية خير مثال لكبار الأعيان والتجار يقتدى به فى الجمع بين تنمية الثروة الشخصية ، وأداء الواجبات الوطنية ، والواقع إن إنماء الثروة وتعهدها بالحزم وحسن التدبير ليس عملا شخصيا فحسب ، بل هو عمل قومى جليل لأنه إنماء للثروة القومية العامة ، والخير فيها يعم البلاد وأهلها .

اشترك المترجم فى ثورة القاهرة الثانية ، ولما أخفقت هاجر إلى سورية صحبة السيد عمر مكرم ، ولازمه منفاه وهجرته ، وصادر الفرنسيون أملاكه فى غيبته ، ولم يعد إلى مصر إلا بعد جلاء الفرنسيين .

وازدادت مكانته وعظم جاهه بعد عودته من منفاه ، وصار موضع الاحترام عند ولاة الأمور والجمهور معا ، وزاره الصدر الأعظم يوسف ضيا فى بيته تكريما له ، ودامت زيارته له ساعة من الزمن .

فالسيد المحروقى قد نال إذن من المنزلة الاجتماعية والسياسية بفضل كفايته الاقتصادية والمالية ما سما به إلى الصف الأول من الرؤساء والزعماء فى فجر النهضة القومية ، فلا غرو أن نعده شخصية ممتازة من شخصيات ذلك العصر .

وظل محتفظا بمكانته واسع الجاه عظيم المقام والاحترام إلى أن أدركته الوفاة سنة ١٢١٩ هجرية .

نظرة عامة إلى زعماء ذلك العصر

أولئك هم قادة الشعب وزعماؤه فى فجر النهضة القومية ، ومهما لاحظت فى تراجم بعضهم من مواطن ضعف أو نقد ، فلا تنس انهم رجال ظهروا على مسرح الحياة القومية منذ نيف ومائة وخمسين عاما ، اى قبل أن يسبقهم غيرهم إلى تمهيد سبيل العمل والجهاد فى عهدهم ، ففضلهم من هذه الناحية لا يصح أن ينكر ، وحقهم لا يصح ان يغمط .

ولا تنس أيضا أنك إذا طلبت إليهم أن يقدموا حسابا أمام التاريخ وأمام الأجيال المتعاقبة عن نصيبهم فى الحركة القومية ، فحسبهم أنهم فى مجموعهم أصحاب الفضل الأكبر واليد الطولى فى الحركات الشعبية التى ظهرت فى توجيه إرادة الأمة إلى مقاومة الحكم الفرنسى ، ثم مقاومة حكم المماليك ثم مقاومة الحكم التركى ، ثم احياء سلطة الأمة باختيار ولى الأمر وإجلاسه على عرش مصر ، فهم إذن دعاة التطور السياسى الذى شهدته مصر فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، وهم فى تواضعهم وخمول ذكر الأكثرين منهم ، قد قام على اكتافهم وبإرادتهم انقلاب كبير فى نظام الحكم ، فهم الذين أعلنوا حق الشعب فى تقرير مصيره . بخلعهم الوالى التركى وإسناد زمام الحكم إلى محمد على الذى اختاروه للولاية وقتئذ .

●

الصراع بين القوات الثلاث

إن ما أوردناه فى الفصل السابق هو كلمة إجمالية وصفنا بها حالة مصر السياسية خلال السنوات التى أعقبت جلاء الفرنسيين .

والآن فلننتقل من الإجمالى إلى التفصيل ، ولنستعرض الحوادث من بدء الصراع بين القوات الثلاث إلى خلع الوالى التركى خورشد باشا والمناداة بمحمد على واليا على مصر بإرادة الشعب سنة ١٨٠٥ .

تعيين خسرو باشا واليا لمصر

أخذت القوات الثلاث يرقب بعضها بعضا مدى شهرين كل منها بمرصد للأخرى تتحين الفرص لتحقيق أطماعها .

وفى خلال هذه المدة ظل يوسف ضيا (الصدر الأعظم) فى معسكره بالقاهرة صاحب الحول والطول ينظم الادارة ويعزل من شاء ويولى من شاء من صنائعه .

وتقلد محمد خسرو باشا ولاية مصر ، وهو أول وال عثمانى عين بعد جلاء الفرنسيين ، وكان قبل توليته كتخدا (وكيل) حسين قبطان باشا قائد العمارة العثمانية الراسية فى خليج أبو قير ومن خاصة أصدقائه ، وهو الذى سعى له فى تقليده ولاية مصر ، وقد بقى الوالى بأبو قير بجانب رئيسه قبطان باشا واكتفى بإرسال خازنداره إلى القاهرة .

كان الصدر الأعظم يتظاهر بالود للمماليك ، فاغتر هؤلاء بظاهره ، على حين كان فى الوقت نفسه يعمل على الفرقة وإيقاع الانقسام بينهم ليضربهم بعضهم ببعض تمهيدا للقضاء عليهم جميعا عند سنوح الفرصة ، فعين محمد بك الألفى أميرا على الصعيد ، وكان هذا المنصب مطمع كثير من البكوات المماليك ، فحنقوا ونفسوا على الألفى انفراده بهذه الامارة ، واعتزم الصدر الأعظم وحسين باشا القبطان أن يأخذا رؤساءهم غيلة ، وكانت هذه الأساليب مألوفة فى ذلك العهد ، فاتفقا على أن يدعو كل منهما فريقا من زعماء المماليك إلى الاجتماع به ، الأول فى القاهرة ، والثانى فى

الإسكندرية ، بحجة تكريمهم وتقليدهم سلطة الحكم فى البلاد ، فإذا ما اجتمعوا فتك بهم الجند أو غللوهم فى الحبوس وأرسلوهم إلى الاستانة لتقرر الحكومة التركية فى مصيرهم ما تراه .

المؤامرة على المماليك

ففى أوائل أكتوبر سنة ١٨٠١ أرسل حسين باشا القبطان يدعو كلا من عثمان بك الطنبورجى زعيم المماليك وخليفة مراد بك وعثمان بك البرديسى ومراد بك الصغير وغيرهم من البكوات من بيت مراد بك (اتباعه) إلى زيارته بمعسكره بأبو قير ، وأعلمهم أن الغرض من هذه الزيارة هو الاتفاق معهم على تخويلهم سلطة الحكم فى القاهرة بدلا من إبراهيم بك وأنصاره .

فلبى المماليك الدعوة وساروا لمقابلته فى معسكره ، وبالغ فى الحفاوة بهم وظلوا فى ضيافته أياما عدة ثم عقد اجتماعا تلا عليهم فيه فرمانا قال أنه صدر من السلطان بإعلان رضاه عن المماليك وإبقائهم فى مناصبهم التى كانوا عليها من قبل فى حكومة البلاد ، ثم دعاهم لهذه المناسبة إلى زيارة بارجته الراسية فى خليج أبو قير ، فنزل البكوات فى زورقه الخاص به لينقلهم إلى بارجة القبطان باشا ، وبعد أن ابتعد الزورق عن البر وأصبح فى اللجة التقوا بمركب آت من عرض البحر وفيه جماعة من السعاة أخبروا أن لديهم رسالة باسم قبطان باشا ، فنهض الباشا وتركهم بحجة الاطلاع على الرسائل ولنتقل إلى المركب الآخر وأمر أن يدفع به ، وبقى المماليك وحدهم ، فكانت هذه العلامة نذيرا بإنفاذ المؤامرة ، فما هى الا لحظة حتى أخذ الرصاص ينهال عليهم من رجال قبطان باشا ، وعلموا أنهم وقعوا فى الفخ الذى نصب لهم ، فدافع المماليك عن أنفسهم دفاعاشديدا وقتلوا كثيرا من العساكر الذين عهد إليهم بالفتك بهم ، ولكنهم غلبوا على أمرهم أمام كثرة الجنود والبحارة ، فقتل فى هذه المؤامرة من زعماء المماليك عثمان بك الطنبورجى خليفة مراد بك وعثمان بك الأشقر من مماليك إبراهيم بك ومراد بك الصغير ، وعلى بك أيوب ، ومحمد بك المنفوخ ، ومحمد بك الحسينى ، وإبراهيم كتخدا السنارى (وكيل مراد بك) وجرح كل من عثمان بك البرديسى وحسين بك . وسليمان أغا جروحا بليغة . وسيقوا مع باقى المماليك إلى بارجة قبطان باشا واعتقلوا بها .

كان الإنجليز يجهلون تدبير المؤامرة ، فلما علموا بها غضب الجنرال هتشنسون غضبا شديدا واعتبرها عملا عدائيا موجها ضد الإنجليز ، وعدها وحشية ، وكادت الحرب تنشب بين الإنجليز والعثمانيين لولا أن سلم حسين

باشا القبطان بإطلاق سراح المماليك المسجونين وتسليم جثث القتلى منهم ، وانتقل المماليك من معسكر ابو قير إلى الإسكندرية ليكونوا فى حمى الإنجليز واحتفل هؤلاء بدفن قتلى المماليك احتفالا عظيما بالاسكندرية وأرسل الجنرال هتشنسون نبأ هذه المؤامرة إلى الجيش الانجليزى المرابط بالجيزة .

مؤامرة القاهرة

وحدث لمماليك القاهرة ما حدث لإخوانهم بالاسكندرية ، غير أن الصدر الأعظم يوسف ضيا كان أقل فظاعة من حسين باشا القبطان .

ذلك أنه دعا إبراهيم بك والبكوات المماليك الذين كانوا فى القاهرة وضواحيها إلى ديوان عقده بقصره وأمر بتلاوة فرمان يشبه الفرمان الذى تلاه حسين باشا فى مؤامرة أبوقير ، وزاد فيه أن إبراهيم بك عين «شيخ البلد» وهو اللقب الذى كان يعرف به رئيس حكومة مصر فى عهد المماليك ، وبعد أن أغدق عليهم الهدايا ومناهم بالوعود الخلابة قلب لهم ظهر المجن وأمر بتلاوة فرمان آخر ينقض الفرمان الأول ويقضى بالقبض عليهم وتغليلهم بالحديد وإرسالهم مخفورين إلى الآستانة ، وقد قبض عليهم فعلا وسيقوا إلى سجن القلعة ، وأصدر يوسف باشا أوامره للجنود العثمانية بالقبض على كل من يعثرون عليه من المماليك فى القاهرة وضواحيها وتهديد من يؤويهم من الناس ، وانفذ طاهر باشا احد قواد الجند الألبانبين بطائفة من جنوده ليقبض على محمد بك الألفى فى الصعيد ، وذهبت طائفة أخرى إلى سليم بك أبى دياب أحد زعماء المماليك وكان مقيما بالمنيل لاعتقاله ولكنها لم توفق إلى القبض عليه لهربه واحتمائه بالجيش الإنجليزى الذى كان مرابطا بالجيزة .

وطلب سليم بك ابو دياب وباقى المماليك الذين لم يقبض عليهم حماية الإنجليز فحموهم .

وطلب الجنرال هتشنسون من الصدر الأعظم إطلاق سراح الأمراء المماليك وإلا أعلن الحرب على الجنود العثمانية ، وانفذ لهذا الغرض الجنرال ستوارت Stuart فحضر إلى الجيزة يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٨٠١ ، فخشى الصدر الأعظم عاقبة القتال وافرج عن السجناء .

هذا وقد ذهب المماليك بعد إطلاق سراحهم إلى الجيزة يصحبهم رجالهم واتباعهم وهناك التقوا بمن فروا من إخوانهم وانضم إليهم المماليك الناجون من مؤامرة ابو قير وبلغ عددهم جميعا نحو ٢٥٠٠ مملوك واتفقوا على الانتقام من الأتراك .

ما كسبه الانجليز من هذه المؤامرة

وقد كسب الانجليز بهذا التدخل جانب المماليك وأصبحوا حماتهم وصار القوم صنائع لهم فى قضاء مآربهم .

على أن الحوادث السياسية خيبت آمال الفريقين فخلصت البلاد من المماليك ومن الدسائس الانجليزية كما ستراه فيما يلى .

انتهت المؤامرة على المماليك بالفشل وتحرج مركز حسين باشا القبطان أمام حلفائه الإنجليز ، فلم يلبث أن سافر من أبو قير إلى الآستانة فى أواخر نوفمبر سنة ١٨٠١ (رجب سنة ١٢١٦) .

تغيير وقتى فى وجهة النظر الانجليزية

جمع المماليك شملهم واجتمع زعماؤهم الذين نجوا من مؤامرة الاسكندرية بمن نجوا من مؤامرة القاهرة ، وبقوا بالجيزة يعدون لقتال الأتراك وينتظرون المدد والعون من الانجليز .

على أن السياسة الانجليزية اقتضت ان تتظاهر مؤقتا بالتزام الحياد وأن تدخرهم لوقت آخر ، ذلك أن فرنسا اخذت تتقرب الى الباب العالى بعد جلاء جيشها عن مصر وتسعى لاعادة الصداقة القديمة التى كانت تصلها بتركيا وتراخت مدة الحملة الفرنسية ، فلما زالت اسباب الجفاء سعت فى عقد معاهدة صلح من شروطها إعادة العمل بالمعاهدات القديمة بين الدولتين ، أبرمت هذه المعاهدة فى باريس يوم ٩ اكتوبر سنة ١٨٠١ ووقعها المسيو (تاليران) وزير خارجية فرنسا والسيد على افندى سفير تركيا فى باريس .

فلما علمت بها الحكومة الإنجليزية ساءها أن ترى فرنسا منافستها وعدوتها اللدود تسترد مركزها فى الشرق بالاتفاق مع تركيا ، فأخذت تسعى لدى الباب العالى فى منع التصديق على المعاهدة ، وقد وجدت بادىء الأمر فتورا من الحكومة التركية لما بلغها من معاونتها للمماليك العصاة وتأييدها لمطالبهم ، فاضطرت انجلترا أن تنكر هذه المعاونة وانكرت موقف الجنرال هتشنسون والجنرال ستوارت واستدعت اولهما أرضاء لتركيا ، وسعى اللورد (الجين) Elgin سفير انجلترا فى الاستانة سعيا متواصلا ليحمل الباب العالى أن يعدل عن تصديق المعاهدة ، وكان لنفوذه الفعال على شاطىء البوسفور أثر كبير فى نجاح مسعاه ، فلم يقبل الباب العالى من شروط المعاهدة الا مالا يتعارض مع مقدمات الصلح التى أبرمت بين فرنسا وانجلترا فى لندن بتاريخ اول اكتوبر سنة ١٨٠١ وهذا معناه عدم التصديق على المعاهدة .

رحل الجنرال هتشنسون إذن عن مصر وخلفه فى قيادة الجيش الانجليزى الماجور جنرال اللورد كافان Cavan وجاء إلى مصر المستر ستراتن Straton سكرتير السفارة الانجليزية فى الاستانة يحمل تعليمات الحكومة البريطانية عن سياستها فى مصر ، وأفهم اللورد كافان والمستر ستراتن زعماء المماليك ان نصيحة الحكومة إلى «أصدقائها البكوات» أن يقبلوا شروط الصدر الأعظم .

ومعنى ذلك أنها تخلت وقتا ما عن حمايتهم .

رأى المماليك أن ينتظروا إلى أن تحين فرصة جديدة تساعدهم فيها الحكومة الإنجليزية ، فانتقلوا فى أواخر يناير سنة ١٨٠٢ إلى الصعيد لينظموا قواتهم استعدادا لقتال الأتراك .

وأصبحت السلطة فى القاهرة والوجه البحرى فى يد الأتراك لا ينازعهم فيها منازع ، واعتزم الصدر الأعظم الرحيل إلى الإستانة ، فاستدعى محمد خسرو باشا ليسلمه زمام الحكم قبل ارتحاله ، فحضر إلى القاهرة يوم ٢١ يناير سنة ١٨٠٢ واستقر فى الحكم ثم ارتحل الصدر الأعظم إلى سورية يصحبه جزء من الجيش العثمانى ، وصار محمد خسرو باشا صاحب الحل والعقد فى العاصمة .

جلاء الانجليز عن الجيزة

أخذ مركز خسرو باشا يبدو وطيدا فى مصر ، وزاد فى ثباته أن الحكومة الانجليزية أرسلت إلى الجيش المرابط بالجيزة تأمره بالعودة إلى الهند ، فانسحب الجيش الانجليزى من معسكره فى شهر مايو سنة ١٨٠٢ ، وسلم الجيزة إلى خسرو باشا ، ومضى إلى السويس فأقلعت به السفن إلى الهند فى اوائل يونيه ، ولم يبق من جيش الاحتلال الانجليزى فى مصر سوى القوة المرابطة بالاسكندرية .

جلاء الانجليز عن مصر ورحيلهم عن الاسكندرية

فى ٢٧ مارس سنة ١٨٠٢ أبرم الصلح المعروف بصلح (اميان) Amiens بين فرنسا وانجلترا وهولندا وأسبانيا ، ومن شروطه جلاء الانجليز عن مصر ، لكنهم رغم عهودهم أخذوا يماطلون فى الجلاء ويعملون باتفاقهم مع صنائعهم المماليك على إطالة أجل احتلالهم .

وقد كان نابليون ينظر بعين القلق إلى مماطلة انجلترا فى الجلاء عن مصر ، لأنه رأى بثاقب نظره أن رسوخ قدمهم فيها يهدد السلام فى البحر

الأبيض المتوسط وما يليه ويبسط نفوذ انجلترا وسيطرتها فى نواحيه وفى البلاد المفضية إليه ويملكها زمام التجارة فى الشرق .

فلما رأى مماطلتها فى الجلاء أنفذ إلى مصر الكولونل سباستيانى Sebastiani ليتعرّف نيات الانجليز ويدرس الحالة فى مصر .

والكولونل سباستيانى هذا من خاصة رجالات نابليون الذين حاربوا تحت لوائه واعتمد عليهم فى مهمات سياسية ، وقد عهد إليه برحلة سياسية إلى الشرق وخاصة فى مصر وتركيا سنة ١٨٠٢ ، ورفعه إلى درجة قائد فرقة بعد واقعة استرلنز ثم عينه سفيرا لفرنسا فى تركيا وبقى فى هذا المنصب إلى سنة ١٨٠٧ .

جاء سباستيانى إلى الاسكندرية خلال شهر أكتوبر سنة ١٨٠٢ ، وطالب الجنرال ستوارت قائدا القوات البريطانية بالجلاء عنها ، لكنه رأى منه العزم على البقاء وألفى الانجليز غير مكترثين لعهودهم ، وكذلك كان شأنهم فى كل عهود الجلاء التى قطعوها على أنفسهم .

ولما علم المصريون أن الكولونل سباستيانى قادم ليستعجل الانجليز فى الجلاء عن البلاد قابله كبراؤهم وعلماؤهم بالحفاوة والاكرام .

انتهى الكولونل سباستيانى من رحلته بمصر وغادرها إلى بعض الثغور السورية ثم إلى الاستانة ثم رجع إلى فرنسا وقدم إلى نابليون تقريرا عن مهمته .

وما فتىء نابليون يطالب انجلترا بالجلاء حتى اضطرت أن تجلو عن مصر وأرسلت أوامرها بذلك إلى الجنرال ستوارت .

موقف المماليك بعد جلاء الإنجليز

ابلغ الجنرال ستوارت زعماء المماليك أوامر حكومته بجلاء الجنود الانجليزية عن مصر ، فوقع هذا الخبر كالصاعقة على رؤوسهم لأنهم كانوا ينظرون إلى الانجليز كحماة وأولياء لهم ، وقد نصحهم الجنرال ستوارت بالعودة إلى الصعيد فى انتظار ما تبذله الحكومة الإنجليزية من المساعى لصالحهم .

وكان ستوارت قد خبر نفسية المماليك ، وعجم عودهم ، فاستيقن أنهم قوم أفاقيون لا يهمهم إلا قضاء لباناتهم ولو باعوا فى سبيلها حقوق مصر ومصالحها ، ورأى أن انجلترا رغم جلائها عن مصر تستطيع ان تدخرهم فى

المستقبل لتحقيق أطماعها فى وادى النيل ، وأن تتخذهم أداة لبسط نفوذها فى البلاد ، فرغب إلى محمد بك الألفى أن يسافر إلى انجلترا ليطلب منها مساعدة المماليك على حكم البلاد ويساومها فى هذا الشأن ، فاعتزم الألفى الرحيل إليها ليعرض عليها ولاءه وولاء زملائه وأتم الجنرال ستوارت معدات الجلاء ، ثم سلم قلاع الاسكندرية وأبراجها إلى خورشد باشا محافظ المدينة يوم ١٤ مارس سنة ١٨٠٣ ، وأقلعت العمارة البريطانية من الثغر يوم ١٦ تقل الجنود الانجليز وعددهم ٤,٤٠٠ مقاتل .

وبذلك خلصت مصر من الاحتلال الانجليزى الأول .

وسافر محمد بك الألفى صحبة العمارة الانجليزية وأخذ معه أموالا طائلة مما نهبه فى الوجه القبلى مدة إمارته .

تجدد الحرب بين المماليك والأتراك

صار الأتراك أصحاب الحول والطول فى الاسكندرية ، فأصبحت خطرا على المماليك بعد أن كانت ملجأ لهم مدة الاحتلال البريطانى ، ولم يطمئنوا إلى مقامهم بالبحيرة ، فانسحبوا بقيادة عثمان بك البرديسى إلى الصعيد حيث كان الجيش التركى محتلا بعض البنادر الكبيرة وأهمها المنيا وأسيوط وجرجا .

احتلال المماليك المنيا

فهاجم البرديسى المنيا واحتلها بعد قتال شديد ، وكانت الجنود العثمانية تدافع عنها بقيادة حاكم المدينة (سليم كاشف) وهو من المماليك الذين انضموا إلى الأتراك ، فلما تم للمماليك احتلال المنيا اعملوا فيها النار وقتلوا من فيها من الأهالى والجنود .

كان لاحتلال المنيا أثر كبير فى سير القتال ، لأنه جعل الملاحة فى النيل تحت رحمة المماليك واستطاعوا أن يمنعوا وصول الغلال من الصعيد إلى القاهرة والوجه البحرى ، وصارت الحاميات العثمانية فى أسيوط وجرجا فى خطر ، وقد أسرف الفريقان المتحاربان فى ظلم الأهالى وسلب أموالهم ، فكلما مروا بالقرى طلبوا من أهلها دفع الاتاوات والغرامات ووضعوا أيديهم قوة واقتدارا على ما يملكه الناس من مال وحاصلات ، فضج الناس من مظالم الفريقين وتمنوا الخلاص منهما ، مما هيأ لمحمد على فرصة الظهور فى الميدان .

ظهور محمد على في الميدان

نشأ محمد على بمدينة (قوله) من ثغور مقدونيه ، ولد سنة ١٧٦٩ ، وقد انتظم في سلك الجهادية جنديا بسيطا ، وزوّجه حاكم قوله بقريبة له مطلقة ذات ثروة واسعة ، وهى التى رزق منها بابراهيم وطوسون واسماعيل ، واشتغل بتجارة الدخان وربح منها ، ثم ما لبث أن عاد إلى الحياة العسكرية حين شرعت تركيا فى إعداد جيش لمحاربة الفرنسيين في مصر ، وقد صدر الأمر إلى حاكم قوله بتقديم ما لديه من الجنود ، فألف كتيبة من ثلثمائة جندى انتظم محمد على فى سلكها ، وكان ابن الحاكم رئيسا لها ، ومحمد على معاونا له ، وجاءت هذه الكتيبة إلى مصر على ظهر العمارة التركية التى رست فى ساحل (أبو قير) فى شهر مارس سنة ١٨٠١ .

اشترك محمد على فى المعارك الأخيرة التى دارت رحاها فى مصر بين الأتراك والانجليز من جانب ، والفرنسيين من جانب آخر ، وشهد انتهاء عهد الحملة الفرنسية ، وبقى فى مصر وارتقى فى غضون ذلك إلى مرتبة كبار الضباط ، فنال رتبة (بكباشى) قبل جلاء الفرنسيين ، ثم رقى إلى رتبة (سرجشمة) أى (لواء) فى أواخر سنة ١٨٠١ ، وأخذ يرقب تطور الصراع بين القوات الثلاث التى كانت تتنازع السلطة بعد جلاء الفرنسيين . فطمحت نفسه إلى تولى سلطة الحكم فى مصر ، ورسم لنفسه خطة تدل ولا ريب على دهائه وهى التودد إلى زعماء الشعب والتحبب إليهم والاستعانة بهم للوصول إلى قمة السلطة .

وقد ترك القوات الثلاث (الانجليز والأتراك والمماليك) تتنازع وتتصارع ، وشهد مؤامرة الأتراك على المماليك التى سبق الكلام عنها ، ثم جلاء الانجليز عن مصر ، ثم تجدد الحرب بين الأتراك والمماليك وفوز المماليك ، فأخذ يستعد للتخلص من هؤلاء ، وتمهيدا لهذه الغاية ترك لزعماء المماليك زمام السلطة حتى يحملهم تبعة الحكم ومساوئه ويجعلهم هدفا لسخط الشعب .

عودة محمد بك الألفى وفشل خطته السياسية

سلف القول بأن محمد بك الألفى سافر إلى انجلترا حين جلاء الانجليز عن الاسكندرية ، وغايته أن يطلب من الحكومة الانجليزية معاونة المماليك على رجوعهم للحكم .

قضى الألفى فى هذه الرحلة طويلا من الزمن ، وكانت الرحلة على جانب

كبير من الخطورة ، ولو نجح الألفى فى مهمته لتغير وجه التاريخ المصرى الحديث .

فالألفى كان بلا نزاع أقوى قوى زعماء شكيمة وأشدهم بأسا وأبعدهم نظرا ، وحسبك أن الجبرتى يقول عنه أنه «آخر من أدركنا من الأمراء المصريين شهامة وصراحة ونظرا فى عواقب الأمور ، وكان وحيدا فى نفسه ، فريدا فى أبناء جنسه ، وبموته أضمحلت دولتهم ، وتفرقت جمعيتهم ، وانكسرت شوكتهم ، وزادت نفرتهم ومازالوا فى نقص وإدبار وذلة وهوان وصغار ولم تقم لهم بعده راية وانقرضوا وطردوا إلى أقصى البلاد فى النهاية» .

فهذا الرجل البعيد النظر الذى بموته اضمحلت دولة المماليك لعب دورا خطيرا على مسرح الحوادث المصرية ، والنقطة البارزة فى تاريخه أنه يمثل خطة سياسية معينة رسمها واتبعها ودعا إليها زملاءه المماليك وكان لا ينفك يسعى لنجاحها ، تلك الخطة هى الاستظلال بحماية انجلترا وتخويلها احتلال ثغور الاسكندرية ورشيد ودمياط مقابل مساعدتها المماليك على الاستقرار فى مصر والاستئثار بزمام الحكم فيها ، ولو نجحت هذه الخطة لوقعت مصر منذ نيف ومائة وخمسين عاما فى قبضة الانجليز ولما تكونت الدولة المصرية المستقلة .

كان الألفى يمثل الحماية الانجليزية ، ومن هنا تتبين لماذا ساعدت انجلترا الألفى وحاربت مصر طوال عهد محمد على .

كان محمد بك الألفى صنيعة السياسة الانجليزية فى مصر ورسول المماليك لدى الانجليز فى الاستظلال بحمايتهم ، وكان الانجليز كما قدمنا لا يفتئون يساعدون المماليك على تولى زمام الحكم فى مصر ، وقد بذلوا لهم فوق مساعداتهم فى مصر نفوذهم السياسى فى الاستانة ليضمنوا لهم الحكم وخاصة بعد أن أبرم صلح اميان Amiens الذى يقضى بجلاء القوات البريطانية عن مصر ، فأنهم عزموا إذا هم جلوا عنها أن يتخذوا المماليك صنائع وأولياء لهم فى البلاد ليضمنوا بسط نفوذهم فيها واحتلالها يوما ما ، فسعوا لدى الباب العالى لاستمالته إلى المماليك ولكنهم أخفقوا فى مسعاهم ورفض السلطان رجوعهم إلى الحكم ، ومن ثم تجددت الحرب بينهم وبين الأتراك فكان النصر حليفهم .

أخفقت انجلترا فى مسعاها بالاستانة ، ولو أنها نجحت لوقعت مصر فريسة فى أيدى المماليك ولرزحت تحت نير الظلم والتأخر أحقابا طويلة ، ولصارت على يدهم إلى الحماية البريطانية ، لكن الحوادث خيّبت ظنونهم ، فسلمت مصر من حكم المماليك ومن حماية الانجليز معا .

غلبة البرديسى على الألفى

رجع الألفى من انجلترا تقلّه سفينة حربية جعلتها الحكومة الانجليزية تحت تصرفه .

وصل إلى أبو قير يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٠٤ وسار من فوره إلى رشيد وهناك التقى بالمستر بتروتشىPetrucci نائب القنصل البريطانى وخلا به عدة ساعات ، ثم اقلته سفينة القنصل فى النيل يرفرف على مؤخرها العلم الانجليزى وانحدرت به إلى القاهرة .

علم (محمد على) بعودة الألفى إلى مصر ، فأوجس فى نفسه خيفة ، لأن محمد على كان يحسب للألفى حسابا كبيرا ويعده أقوى خصومه وأشدهم بأسا وأصعبهم مراسا ، لكن الحظ ساعده بأن سخر له عثمان بك البرديسى ليخلصه من خصمه ، ذلك أن البرديسى قد دبت فى نفسه عقارب الحسد من عودة زميله وصديقه القديم من انجلترا ، وداخله الخوف من أين يرى الألفى ينافسه النفوذ والسلطة مؤيد الجانب من إحدى الدول العظمى ، فاعتزم الفتك به والتخلص منه .

أنفذ البرديسى رجاله للقبض على الألفى وقتله ، وكاد الألفى يقع فى الشرك لولا أن لجأ إلى الاختفاء والفرار ، واستطاع أن ينجو بنفسه وذهب إلى الصعيد حيث أخذ يسعى فى تكوين حزب يناصره .

وهكذا انقسم المماليك وتفرقت أهواؤهم ، فكان ذلك من الأسباب التى عجلّت بزوال دولتهم .

لم يكن النزاع بين البرديسى والألفى قوامه الفكرة السياسية ، بل كان منشؤه الحسد والتنافس على السلطة والحكم ، فما كان البرديسى أقل من خصمه رغبة فى الاستظلال بالحماية الانجليزية .

●

ثورة الشعب على المماليك

مارس سنة ١٨٠٤

الت زعامة المماليك إلى عثمان بك البرديسى بعد اختفاء الألفى من الميدان ، وأمن على سلطته فى الحكم ، على أن البرديسى بدأ يحتمل تبعة الحكم أمام الشعب ويواجه مقاومة قوية أخذت تشتد وتقوى حتى انتهت بسقوط دولة المماليك .

ذلك أن الحالة فى القاهرة كانت تزداد تفاقما بسبب تذمر الشعب من كثرة وقوع المظالم وإرهاقه بمختلف الضرائب والمغارم ، وكان المماليك لا يدعون فرصة إلا ويفرضون على الناس غرامة أو ضريبة جديدة ، فاشتد الضيق بالأهلين ، وزاد فى سوء الحالة نقص النيل فى تلك السنة (أغسطس سنة ١٨٠٣) نقصا فاحشا ، فأثر هذا النقص فى حالة الزراعة واستولى الذعر على الناس فى القاهرة وازدحموا على شراء الغلال ، فارتفعت أسعارها وشحّ الخبز فى الأسواق واشتد الضيق بالفقراء وأواسط الناس ، وهم السواد الأعظم من السكان ، واجتمع إلى هذا الضيق اعتداء المماليك والجنود الأرناؤد على ما بأيدى الناس من الأموال والغلال والمتاع .

وفى خلال ذلك (نوفمبر سنة ١٨٠٣ ـ شعبان سنة ١٢١٨) شكا الناس إلى كبار العلماء من ترادف هذا الاعتداء ، فذهب السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والشيخ عبدالله الشرقاوى والشيخ محمد الأمير إلى البكوات المماليك وطلبوا إليهم منع اعتداء العساكر على الناس .

فوعدوهم بالتدخل ، وركب الأغا (المحافظ) والوالى (رئيس الشرطة) وأمامه جماعة من عسكر الأرناؤد والمنادى ينادى بالأمن والأمان للرعية وأنه إذا وقع من الجند اعتداء أو نهب فللناس أن يضربوهم وإن لم يقدروا عليهم فليأخذوهم إلى رؤسائهم .

على أن مثل هذه الوعود والتنبيهات ذهبت عبثا ، واستمر الجند والمماليك فى اعتدائهم على الأهالى ، وأخذ جوّ المدينة يكفهر منذرا بوقوع حوادث خطيرة .

بدأت هذه الحوادث بمطالبة الجنود برواتبهم المتأخرة ، وذهبوا إلى دار عثمان بك البرديسي يضجون ويتوعدون ، ولم يكن محمد على بعيداً عن تدبير هذه الحركة ، فاستنجد البرديسي بصديقه محمد على ، فتدخل هذا فى الأمر وهدّأ حركة الجنود فى مقابل وعد من البرديسى بأن يدبر فى بضعة أيام المال اللازم لدفع رواتبهم المتأخرة .

كانت خزانة الحكومة خالية من المال بسبب سوء الإدارة وتلف الأراضى الزراعية وتعاقب الفتن وما أدى إليه الظلم من انقباض أيدى الناس عن العمل .

ففكر البرديسى فى ابتداع الوسائل للحصول على المال ، ففرض على تجار القاهرة ضريبة جديدة ، لكنه لم يحصل على المال الكافى لسد حاجة الجنود الذين كانوا يزدادون كل يوم ضجة وصخبا ، فاعتزم البرديسى فى شهر مارس سنة ١٨٠٤ (ذى القعدة سنة ١٢١٨) أن يفرض ضريبة جديدة على جميع الأهالى بلا استثناء ، ضربها على العقارات والبيوت أجرة سنة موزعة على الأملاك والمستأجرين ، وكلف عمال الحكومة بأن يحصلوها من كل فرد من أفراد القاهرة من ملاك ومستأجرين .

كانت فداحة الضرائب من أهم أسباب الثورات فى مختلف العصور والبلدان ، كذلك كانت هذه الضريبة الجديدة المنطوية على الإرهاق والظلم سببا فى ثورة القاهرة على المماليك ، لأنها نزلت بالناس فى وقت اشتداد الضيق ووقوف حركة الأعمال .

أخذ عمال الحكومة وكتابها يعاونهم جنود المماليك يجوبون أحياء المدينة وشوارعها وحاراتها يكتبون أسماء الملاك والتجار والمستأجرين ويلزمون كل مالك وكل ساكن بدفع نصيبه فى الضريبة على النحو الذى قررته الحكومة بالاتفاق مع رؤساء التجار والطوائف ، فبدأ الناس يتذمرون ، وامتنع كثير من الناس عن دفع المطلوب منهم إما لعجزهم أو لاستنكارهم لهذا الظلم ، فوقعت الملاحاة بينهم وبين عمال الحكومة ، واشتد سخطهم وعلا صياحهم ، واحتشدوا يوم ٢٥ ذى القعدة سنة ١٢١٨ وجاهروا باستنكار هذه المظالم وامتناعهم عن دفع الضرائب ، وخرج الناس من بيوتهم يضجون ويصخبون ، واحتشدوا فى الشوارع حاملين الرايات والدفوف والطبول ، وأخذوا يستمطرون اللعنات على الحكام .

إيش تاخذ من تفليسي يا برديسى

وكانت صيحاتهم منصبة على الحكام المماليك الذين بيدهم الحل والعقد

فأخذت جموعهم تنادى «إيش تأخذ من تفليسى ! يا برديسى

وأغلق التجار وكالاتهم ودكاكينهم ، واتجهت جموع الناقمين إلى الأزهر لمقابلة المشايخ والاحتجاج لديهم على الضريبة الجديدة ، فقام المشايخ إلى الأمراء المماليك يطلبون إلغاءها .

كان احتشاد الجماهير وغضبهم وتجمهرهم من نذر الثورة والتمرد ، فأخذت روح الثورة تنتقل من حى إلى حى حتى عمت أنحاء المدينة .

فاضطرب عثمان بك البرديسى أمام رؤية الشعب الثائر يستولى على الميادين والشوارع ، وكانت الحركة موجهة ضد حكم المماليك من جهة وضد مساوىء الجنود الأرناؤد من جهة أخرى .

وخشى محمد على أن تصيب الثورة جنوده بالأذى ، فبادر إلى كشف المماليك أمام الشعب وجعلهم وحدهم هدفا لغضب الجماهير ، وجاهر بانضمامه إلى العلماء والمشايخ ، ونزل فى الشوارع واختلط بالجماهير الصاخبة وقابل العلماء بالأزهر وتعهد لهم بأن يبذل نفوذه لرفع هذه الضريبة ، كما أنه أوصى جنوده الارناؤد بأن يحترموا الشعب ، فاختلطوا بالناس وأعلنوا عدم رضاهم عن الضريبة وجاهروا انهم إنما يطلبون رواتبهم من الحكومة لا من الأهالى ، قال الجبرتى فى هذا الصدد : «وفى وقت قيام العامة كان كثير من العسكر منتشرين فى الأسواق ، فداخلهم الخوف ، وصاروا يقولون لهم إنا معكم سواء ، وأنتم الرعية ونحن العسكر ولم نرض بهذه الضريبة ، ورواتبنا على الميرى لا عليكم» .

يتبين من رواية الجبرتى أن ثورة الشعب كانت على جانب من الخطورة وأن جنود محمد على اوجسوا منها خيفة وحسبوا لها حسابا كبيرا ، ولولا ذلك لما «داخلهم الخوف» كما يقول الجبرتى ، ولما استرضوا الشعب بإعلان انضمامهم إليه فى ساعة غضبه ، ويؤيد رواية الجبرتى ما ذكره المسيو (فولابل) الذى عاصر تلك الحوادث . قال[1] يصف حالة القاهرة وما وقع فيها :

«انتشر عمال الحكومة ومعهم طوائف من الجنود المماليك فى أحياء القارة وشوارعها يطالبون كل مالك وكل تاجر بأن يدفع لفوره حصته فى الضريبة التى فرضت عليهم ، وبدأت المطالبة هادئة يعقبها الدفع ، ثم ما لبثت أن أثارت الاحتجاجات وامتنع كثير من التجار عن دفع ما يطلب منهم إما لكونهم أكثر احتياجا ممن دفعوا الضريبة أو أكثر شجاعة منهم ، فاشتدت المناقشة وعلا الصخب ، واحتشد الجيران ، ثم لم يلبث الشعب أن احتشد بأجمعه فى

(١) فى كتابه مصر الحديثة .

الشوارع واتجهوا إلى المساجد التى اتخذوها ملتقى لاجتماعاتهم ، فسرعان ما غصت المساجد بجموع الشعب ، وأثار اجتماعه فى نفوس الجماهير روح الحماسة والشعور بالقوة والحق ، وقبضت الجماهير فى ساعة الغضب الأولى على بعض جباة الضرائب وقتلوهم .

«كان لهذا الموقف الجرىء الذى ركبه الشعب أثر دهشة وروعة فى نفوس الحزبين اللذين يتنازعان السلطة (المماليك والارناؤد) ، ولم يعلما عند أى حد تقف حركة الشعب الثائر يستولى على الشوارع والميادين والمبانى ويستعد للمقاومة العنيفة ، ولم يكن خافيا على زعماء الأرناؤد أن جنودهم قد استهدفوا باعتداءاتهم وفظائعهم لكراهة الأهالى مثلما استهدف لها المماليك سواء بسواء ، فلجأ المماليك إلى وساطة العلماء ، أما محمد على فقد بادر إلى اغتنام الفرصة لخدمة برنامجه وأن يستفيد من الحوادث التى لا مفر من وقوعها ، فانضم إلى المشايخ واتصل بالجماهير واختلط بالعامة وتعهد ببذل جهوده حتى يصل إلى رفع هذه الضريبة ، فهدأت وعوده من روع الشعب الغاضب ، وتفرقت الجموع راضية عنه» .

قابل عثمان بك البرديسى هذه الثورة بالغطرسة والكبرياء ، ونقم على المصريين قيامهم فى وجهه وخروجهم على حكمه ، وتوعدهم بالشر والنكال ، وفى ذلك يقول الجبرتى : «أظهر البرديسى الغيظ والأنحراف من أهل مصر وخرج من بيته مغضبا إلى جهة مصر القديمة وهو يلعن أهل مصر ويقول لابد من تقريرها (الضريبة) عليهم ثلاث سنوات ، وافعل بهم وأفعل حيث لم يمتثلوا لأوامرنا» .

فالبرديسى والبكوات المماليك نقموا من المصريين لأنهم «لم يمتثلوا لأوامرهم» وكانوا يريدون منهم الطاعة العمياء والرضوخ للظلم والقهر ، ولقد جهلوا أن روحا جديدة دبت فى نفوس المصريين وحفزتهم إلى التطلع لحياة أرقى ومركز أسمى مما كانت البلاد تعانيه فى ذلك العصر ، وأخذ المماليك يستعدون لمقاومة الثورة ويجمعون جموعهم ويستدعون رجالهم الذين كانوا موزعين فى الأقاليم ، ولكنهم أبطأوا فى الحضور لانهماكهم فى نهب القرى وتحصيل الجبايات ، وانتهز محمد على فرصة غضب الشعب على المماليك وثورته عليهم وتوزع جنود المماليك فى الأقاليم ليتخلص منهم ، فأمر جنوده فهاجموا المماليك الموجودين بالقاهرة يوم ١١ مارس سنة ١٨٠٤ وحاصروا بيت إبراهيم بك ببركة الفيل وبيت عثمان بك البرديسى بالناصرية وبيوت باقى المماليك فى أنحاء العاصمة واستمر الحصار إلى اليوم التالى .

أسقط فى أيدى المماليك ورأوا أنفسهم حيال قوتين ، ثورة الأهالى من

جهة ، وجنود محمد على من جهة أخرى ، فلم يجدوا سبيلا للنجاة سوى الفرار من القاهرة ، بعد أن قتل منهم من قتل ، وكان أول الفارين عثمان بك البرديسى وهو الذى كان من قبل يشمخ بأنفة ويهدد ويتوعد ، ومع أن بيته كأن أشبه بقلعة تحيط بها الأبراج المحصنة وفيها الجنود وآلات الحرب والقتال إلا أنه لاذ بالفرار إلى مصر القديمة ومنه إلى ناحية البساتين ثم إلى حلوان ، وفر كذلك إبراهيم بك إلى الرميلة ثم إلى الصحراء ، وكان جنود المماليك يحتلون قلعة الجبل ويطلقون القنابل على الأزبكية ، فلما علموا بفرار زعيمهم عثمان بك البرديسى وإبراهيم بك وقع الرعب فى قلوبهم وأبطلوا الرمى ، وأخلوا القلعة ونزلوا من باب الجبل ولحقوا بإبراهيم بك فى فراره ، وتسلم القلعة جنود محمد على ، وخرج المماليك من المدينة على أسوأ حال ، وذهبوا إلى الوجه القبلى يستعدون لاستئناف الحرب والقتال ، وينهبون القرى ويفرضون عليها الغرامات والإتاوات ، وكانوا فى فرارهم من القاهرة على غير الشجاعة التى كانوا يتفاخرون بها أيام الرخاء .

قتل من المماليك وأجنادهم فى ذلك اليوم نحو ثلثمائة وخمسين ، وارتحل الباقون منهم عن المدينة ، وانتفض الشعب فى رشيد ودمياط وسائر العواصم على الحكام المماليك ، فهربوا إلى الصعيد ودالت دولتهم وانقضى حكمهم من البلاد ، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة .

وفى اليوم التالى أبطلت الضريبة التى كانت سببا فى اشتعال نار الثورة .

ثورة الشعب على الوالى التركى

مايو سنة ١٨٠٥
الحالة السياسية فى القاهرة

بعد أن دالت دولة المماليك اجتمع العلماء ورؤساء الجند وأجمعوا رأيا على تعيين خورشد باشا محافظ الإسكندرية واليا وتعيين محمد على قائمقاما له ، وأوفدوا إلى الاسكندرية رسولا يدعو خورشد باشا إلى الحضور للقاهرة ليتولى منصب الولاية .

ولاية خورشد باشا

وصل خورشد باشا إلى بولاق فى أواخر مارس سنة ١٨٠٤ ، وهو خامس من تقلد ولاية مصر فى نحو سنتين ، فأولهم خسرو باشا وقد خلع ، ثم طاهر باشا وقد قتل ، ثم أحمد باشا وقد طرد ، ثم على باشا الجزائرلى وقد قتل ، ثم جاء خورشد باشا وفى عهده قامت الثورة التى سنتكلم عنها فيما يلى :

ولا جرم أن هذه التعيينات والتقلبات تدلك على مبلغ تزلزل النفوذ التركى فى البلاد وما آلت إليه سلطة الوالى من الضعف والانحلال .

والواقع أن الوالى العثمانى لم تكن سلطته تتعدى حدود مدينة القاهرة وكانت أبدا عرضة لتمرد الجنود وعصيانهم .

لم يفقد المماليك أملهم فى استعادة سلطتهم القديمة بالرغم من طردهم من القاهرة وعواصم الوجه البحرى وتشتتهم فى الوجه القبلى ، فجمعوا شملهم وعادوا إلى الجيزة بقيادة عثمان بك البرديسى وابراهيم بك يريدون فتح القاهرة ، وتفرقت جماعات منهم فى الشرقية والقليوبية والمنوفية والغربية يعيثون فى البلاد فسادا وينهبون حاصلات الأهالى ومواشيهم ويفرضون عليهم الإتاوات والغرامات ، وأصبحت القاهرة فى شبه حصار واستمرت الحرب سجالا بين المماليك وجنود الوالى ومحمد على عدة أشهر إلى أن ارتدوا عن القاهرة ، وكان فيضان النيل من أهم أسباب ارتدادهم لأن المياه غمرت البلاد التى كانوا مرابطين فيها فاضطروا إلى الرحيل عنها وانسحبوا ثانية إلى الصعيد .

وفى أثناء ذلك أخذ خورشد باشا يدبر الوسائل للتخلص من محمد على ، فاستصدر من الاستانة فرمانا بعودة الألبانيين ورؤسائهم إلى بلادهم ، وجاء الفرمان يحمله رسول إلى القاهرة ، وتظاهر محمد على بالإذعان وأعد عدته للرحيل ، بيد أن العلماء لما علموا بأمر هذا الفرمان طلبوا إلى محمد على البقاء بمصر ، واضطربت القاهرة لنبأ هذا الرحيل ، وأقفلت الأسواق والدكاكين ، وكاد حبل الأمن يضطرب ، فقبل محمد على طلب العلماء وأعلن بقاءه إرضاء للرأى العام .

فلما تحقق خورشد باشا عدول محمد على عن السفر أدرك أن مكيدته قد أخفقت واضطر للاذعان مؤقتا للأمر الواقع والاستعانة بمحمد على فى محاربة المماليك بالصعيد ، ورأى فى تكليفه هذه المهمة ذريعة لإبعاده هو وجنوده عن القاهرة ليخلو له الجو فيها .

سار محمد على من القاهرة على رأس جنوده الأرناؤد وعددهم نحو ثلاثة آلاف مقاتل يوم ١٧ أكتوبر سنة ١٨٠٤ (١٢ رجب سنة ١٢١٩) وكان يعاونه جيشان آخران جردهما الوالى ، الأول بقيادة سلحداره وعدده نحو أربعة آلاف ، والثانى بقيادة حسن باشا وعدده نحو ١٢٠٠ مقاتل .

فأخذت هذه القوات تطارد المماليك فى الصعيد واستولت على المنيا يوم ١٥ مارس سنة ١٨٠٥ بعد حصار دام ستة وخمسين يوما .

وبينما كان محمد على منهمكا فى قتال المماليك بالصعيد ، أراد خورشد أن يتخلص من منافسه فى السلطة ، فطلب من الحكومة العثمانية إمداده بقوات جديدة ، فصادف هذا الطلب هوى فى نفسها لأنها لم تنظر بعين الرضا إلى تضعضع نفوذ ممثلها الرسمى فى مصر ، فأنفذت إليه جيشا من الدلاة[1] احتشد فى سورية وسار منها إلى مصر ، فلما وصل إلى محمد على نبأ وصول هذا الجيش ورأى أنه هو المقصود بقدومه عجل بالعودة هو وزميله حسن باشا إلى القاهرة ليحبط سياسة خورشد باشا قبل أن ترسخ قدوم الدلاة فى البلاد .

كان غرض خورشد ان يستعين بجيش الدلاة لتثبيت سلطانه ، ولكن هذا الجيش كان السبب فى القضاء المبرم على سلطة الوالى كما سيجىء بيانه .

سوء سياسة خورشد باشا ونفوذ العلماء

كان خورشد باشا سىء الرأى فاسد التدبير ، ميالا إلى الظلم ، غير

(١) جمع ديلى وهى كلمة تركية معناها المجنون ، واطلقت كلمة دلاة او دلاتية على هذا الجيش لشهرة رجاله بالتهور ، ومعظمهم من الاكراد .

مكترث بميول الشعب ، معتمدا على القوة الغشوم .

سكن القلعة من اليوم التاسع من صفر سنة ١٢١٩ (٢٠ مايو سنة ١٨٠٤) ، فكان انتقاله إليها نذيرا بالتجائه إلى القوة المسلحة فى إخضاع المدينة ، تعددت مظالمه فتدخل العلماء غير مرة لرفعها عن الناس ، ومن أجل هذا عظم نفوذهم فكانوا موئل الشعب يفزع إليهم عند وقوع الملمات ، وكانت مساوىء خورشد باشا هى الباعثة على ذلك .

ففى عهده قوى سلطان العلماء وبلغ نفوذهم أقصى مداه حتى أثاروا الشعب واقتلعوا بقوته الوالى عن كرسى ولايته ، وأجلسوا واليا آخر (محمد على) مكانه ، ولم يسبق لهم هذا النفوذ من قبل ، كما لم يخلص لهم مثله بعد انقضاء هذا العصر .

مقدمات الثورة

فرض خورشد باشا فى شهر مايو سنة ١٨٠٤ إتاوة جديدة على أرباب الحرف والصنائع ، فضجوا منها لما كانوا فيه من الضيق وسوء الحال وأقفلوا حوانيتهم وحضروا إلى الجامع الأزهر يشكون أمرهم إلى العلماء ، وكان إقفال الحوانيت من نذر الثورة ، فمر المحافظ ورئيس الشرطة فى الأسواق ينادون بالأمان وفتح الحوانيت فلم يفتح منها إلا القليل .

وظلت الخواطر فى هياج يومى السبت والأحد (١٦ ـ ١٧ صفر سنة ١٢١٩) ، وفى يوم الإثنين (١٨ صفر سنة ١٢١٩ ـ ٢٩ مايو سنة ١٨٠٤) اشتد الهياج ، وأقفلت جميع الدكاكين والأسواق ، واحتشدت جموع الصناع وأرباب الحرف وجماهير الناس بالجامع الأزهر ومعهم الطبول ، وصعد كثير منهم إلى المنارات يصرخون ويدقون الطبول ، فوصل دوىّ ندائهم إلى نواح بعيدة فى المدينة وسمعه الوالى وهو بالقلعة ، ووصله خبر التجمهر ، فأرسل إلى السيد عمر مكرم نقيب الأشراف رسولا ينبئه بأنه رفع الإتاوة عن الفقراء منهم ويطلب إليه فض الجماهير ، فقال السيد عمر مكرم «إن هؤلاء الناس وأرباب الحرف والصنائع كلهم فقراء وما كفاهم ماهم فيه من الكساد وسوء الحال حتى تطلبون منهم مغارم لرواتب العسكر» ومعنى هذا أن السيد عمر مكرم طلب رفع الإتاوة عن الجميع ، فرجع الرسول بذلك إلى الوالى وحضر الأغا (محافظ المدينة) ومعه عدة من الجنود وجلس بالغورية يأمر الناس بفتح الدكاكين ، ويتوعد من يختلف ، فلم يحضر أحد ولم يسمعوا لقوله ، فاضطر الوالى أمام هذه الحركة إلى رفع الإتاوة فى ذلك اليوم ، وأعلن إبطالها ونادى المنادى بذلك فاطمأن الناس وتفرقوا .

كان الشعب إذاً مستعدا للهياج متحفزا للانتقاض والثورة ، وقد كان لهذه الحركة أثرها فى نفوس الناس لأنهم أيقنوا أن فى استطاعتهم رفع المظالم باجتماعهم وتقرير الإضراب العام وامتناعهم عن دفع الضرائب .

فانظر ماذا جرى بعد ذلك وكيف تطورت الحوادث .

فظائع الجنود الدلاة وهياج الشعب

كان جيش الدلاة الذى جلبه خورشد باشا مؤلفا من ثلاثة آلاف مقاتل من أردأ عناصر السلطنة العثمانية ، فأخذوا يعيثون فى الأرض فسادا ويرتكبون الجرائم ويعتدون على الأموال والأرزاق والأرواح .

وقعت هذه المظالم وترادف اعتداء الجنود الدلاة ، واضطر الوالى إلى الإغضاء عن سيئاتهم ليستعين بهم فى تثبيت سلطانه ، ومد لهم فى حبل السلب والنهب وعلم خورشد أن محمد على راجع إلى القاهرة .

سعى خورشد باشا فى استمالة العلماء إليه ولكنه أخفق فى مسعاه فأراد أن يجعلهم تحت رقابته فطلبهم وطلب السيد عمر مكرم فى اليوم الحادى عشر من شهر محرم سنة ١٢٢٠ (١١ أبريل سنة ١٨٠٥) فلما اجتمعوا به قال لهم إن محمد على وحسن باشا راجعان من الوجه القبلى من غير إذن وطالبان شرا ، فأما أن يرجعا من حيث أتيا ويقاتلا المماليك وأما أن يذهبا إلى بلادهما أو يتوليا ولايات ومناصب فى غير مصر ، وقال أن لديه أمرا من السلطان «أعزل من أشاء وأولى من أشاء وأعطى من أشاء وامنع من أشاء» وطلب اليهم أن يبقوا عنده (بالقلعة) يقيمون معه صحبة كبار الضباط .

ففهم العلماء أن الوالى يريد ان يبقيهم فى القلعة ليكونوا رهائن تحت يده ، فاعتذروا بأن بعضهم وهم الشرقاوى والبكرى والمهدى غائبون عن مصر ، فقال إذا نرسل لهم بالحضور .

وانتهى الاجتماع على أن يبيت بالقلعة كل ليلة اثنان من المشايخ واثنان من الوجاقلية (الجهادية) وأعدوا لهم مكانا بالضربخانه (دار الضرب) .

وكان الشعب يعتبر الوالى مسئولا عن فظائع الدلاة ومظالمهم ، لأنه هو الذى جلبهم لتأييد سلطته ، فأخذ تيار السخط العام ينحدر نحو الوالى وعبّ عبابه ، ولم يبق بين السخط والثورة إلا أن تقع حادثة تشعل نار البركان .

ايام الثورة
أول مايو ـ ٩ يوليو سنة ١٨٠٥

فى يوم الأربعاء أول مايو سنة ١٨٠٥ اعتدى الجنود الدلاة على أهالى مصر القديمة وأخرجوهم من بيوتهم ونهبوا مساكنهم وأمتعتهم وقتلوا بعض الأهالى الآمنين ، فعظم الهياج فى مصر القديمة وحضر جميع سكانها رجالا ونساء إلى جهة الجامع الأزهر ، وانتشر خبر الاعتداء والهياج بسرعة البرق فى أنحاء المدينة ، واجتمع العلماء وذهبوا إلى الوالى وخاطبوه فى وضع حد لفظائع الجنود الدلاة ، فأصدر الوالى أمرا للجنود بالخروج من بيوت الناس وتركها لأصحابها .

وكان هذا الأمر صوريا ، لأن الجنود لم يخضعوا ولم ينفذوه ، فخوطب الوالى ثانيا فى الأمر ، فطلب مهلة ثلاثة أيام ليرحل الجنود من المدينة قاطبة .

فلما علمت الجماهير بهذا الجواب اشتد ضجيجهم وتضاعف سخطهم وتألبت جموعهم وبدأت علائم الثورة فى أفق المدينة .

وفى اليوم التالى (الخميس ٢ مايو) عمّت الثورة أنحاء العاصمة

إضراب العلماء عن التدريس

فاجتمع العلماء بالأزهر وأضربوا عن القاء الدروس ، وأقفلت دكاكين المدينة وأسواقها ، واحتشدت الجماهير فى الشوارع والميادين يضجون ويصخبون ، فإدرك الوالى خطر الحالة ، وأرسل وكيله صحبة رئيس الانكشارية (المحافظ) إلى الأزهر لمقابلة العلماء ومفاوضتهم لوقف الهياج ، فلم يجدهم بالأزهر ، فذهب إلى بيت الشيخ عبدالله الشرقاوى وهناك حضر السيد عمر مكرم وزملاؤه فأغلظوا له فى القول فانصرف على غير جدوى ، ومضى يقصد القلعة ، لكن الجماهير لم تكد تبصره حتى أنهالوا عليه رجما بالأحجار ، ورفض العلماء أن يتدخلوا لإيقاف الهياج ، وطلبوا جلاء الجنود الدلاة عن المدينة فى مدة حددوها ، وكانت إجابة هذا الطلب صعب التحقيق لأن الوالى يستحيل عليه أن يبعد الجنود عن القاهرة وهم من جهة عدته فى القتال ومن جهة أخرى فان لهم رواتب متأخرة والخزاة خالية من المال ، فظل العلماء مضربين عن القاء الدروس ، وبقيت الدكاكين والأسواق مقفلة اكثر من أسبوع ، وامتنع العلماء عن مقابلة الوالى طوال هذه المدة .

تبين لك مما تقدم أن حركة شعبية قوية قامت تناوىء سلطة الوالى التركى كانت هذه الحركة قوامها الشعب وزعماؤه ، ومن الخطأ أن يظن أحد أن محمد على هو

الموعز بهذه الحركة ، فإن منطق الحوادث يدل يقينا على أنها نتيجة تذمر الجماهير وتبرمها من مظالم الحكم ، وإنما اغتنم محمد على تلك الحركة ليكسب تأييدهم كما فعل فى ثورة الشعب على حكم المماليك .

تعيين محمد على واليا لجدة
ومحاولة إبعاده عن مصر

وبين ذلك ما فتىء خورشد باشا يبذل الوسائل لإقصاء محمد على عن مصر ، وكان من قبل يسعى سعيا حثيثا لدى الباب العالى لهذه الغاية ، وقد نجح فى مسعاه إذ ورد فرمان سلطانى بتقليد محمد على ولاية (جدة) .

وكان الغرض من هذا التعيين إبعاد محمد على عن مصر بأية وسيلة ولو بترقيته ، فابتهج خورشد باشا لورود هذا الفرمان وظن أنه سيخلصه من منافسه فى المنصب ، وأرسل إلى محمد على يستدعيه إلى القلعة ليسلمه الفرمان ويخلع عليه خلعة الولاية الجديدة ، لكن محمد على أدرك ما فى هذا التعيين من الدسيسة وخشى الغدر به إذا هو صعد إلى القلعة تلبية لدعوة الوالى فأرسل ينبئه أنه مستعد لتلقى أمر التعيين فى المدينة فى أى منزل يختاره الوالى ، فغضب خورشد باشا من هذا الجواب ، وكاد الأمر يستفحل لولا تدخل الشيوخ فاتفقوا على أن يكون الاجتماع فى منزل سعيد أغا وكيل دار السعادة وصديق محمد على ، فرضى خورشد باشا بهذا الحل مرغما ، وذهب فى الميعاد (٣ مايو سنة ١٨٠٥) إلى دار سعيد أغا بالأزبكية ، وأمر بتلاوة الفرمان القاضى بتعيين محمد على والياً لجدة ، وكان ذلك بحضور علماء المدينة وكبرائها ، ولما انتهى الاجتماع خرج محمد على ومضى إلى داره ، وعاد الوالى إلى القلعة بعد ان كاد الجنود المطالبون برواتبهم المتأخرة يفتكون به ، ولم ينل خورشد باشا من وراء هذه الدسيسة سوى الخيبة والفشل ، فإن محمد على قد زادت مرتبته بتقلده الولاية دون أن يبتعد عن الميدان أو يذهب إلى جدة .

اجتماع زعماء الشعب ومطالبهم
١٢ مايو سنة ١٨٠٥

انتهت الفترة التى حددها العلماء لجلاء الجنود الدلاة عن المدينة يوم السبت ١١ مايو سنة ١٨٠٥ ، واستطاع الوالى أن يبعد رهطا منهم تهدئة للخواطر الثائرة ، ولكن بقى منهم بالقاهرة نحو ألف وخمسمائة ، وعلم زعماء الشعب انهم ممتنعون عن الجلاء حتى تدفع رواتبهم وأن الوالى لايريد

اخراجهم حتى تؤدى لهم تلك الرواتب وأنه لا سبيل إلى دفعها مع خلو خزانة الحكومة من المال إلا بفرض ضريبة جديدة على المدينة .

أحدثت هذه الانباء هياجا عظيما فى الخواطر ، وبات الناس ليلة الأحد فى هرج ومرج ، والزعماء يتشاورون فيما يعدونه للغد .

وعندما تبلج صبح يوم ١٢ مايو سنة ١٨٠٥ (١٢ صفر سنة ١٢٢٠) اجتمع زعماء الشعب واتفقوا رأيا على الذهاب الى دار المحكمة الكبرى (بيت القاضى) لاختصام الوالى واصدار قراراتهم فى مجلس الشرع .

ولم تكد تعلم الجماهير بما استقر عليه رأى الزعماء حتى احتشدت جموعهم واتجهت إلى دار المحكمة ، وأقبلت الجموع من كل صوب على دار العدل واحتشدت بفنائها وحولها ، وبلغت عدتها أربعين ألف نسمة .

فكان اجتماع هذا البحر الزاخر من الخلائق هو الثورة بعينها ، وظهرت روح الشعب قوية ناقمة على الوالى وعلى الحكم التركى .

يارب يامتجلى اهلك العثمللى

ويكفيك لتتعرف نفسية الشعب فى ذلك اليوم العصيب أن تتأمل فيما ذكره الجبرتى عن صيحاتهم التى كانوا ينادون بها فقد كانوا يصيحون «يارب يامتجلى ، أهلك العثمللى» ، فهذا النداء يدلك على ما كان يجيش بنفوس المصريين من روح السخط على الحكم التركى واعتزام التخلص منه ، وهذا يعطيك صورة لما أحدثته الروح القومية من الأثر البالغ فى النفوس .

وثيقة الحقوق

اجتمع زعماء الشعب فى دار المحكمة وطلبوا من القاضى أن يرسل باستدعاء وكلاء الوالى ليحضروا مجلس الشرع ، فأرسل يستدعيهم على عجل فحضروا وعندما انعقد المجلس عرض الزعماء ظلامة الشعب وحرروا مطالبهم وهى :

ألا تفرض من اليوم ضريبة على المدينة إلا إذا أقرها العلماء وكبار الأعيان .

أن تجلو الجنود عن القاهرة وتنتقل حامية المدينة إلى الجيزة .

الا يسمح بدخول أى جندى إلى المدينة حاملا سلاحه .

أن تعاد المواصلات فى الحال بين القاهرة والوجه القبلى .

هذه هى المطالب التى أملاها وكلاء الشعب فى اجتماع ١٢ مايو سنة ١٨٠٥ وسلموا صورتها إلى القاضى وقام وكلاء الوالى ليبلغوها إلى خورشد باشا بالقلعة .

نقلنا بيان هذه المطالب عن المسيو فولا بل الذى دونها فى كتابه (مصر الحديثة) وأسماها «وثيقة الحقوق» تشبيها لها «بوثيقة اعلان الحقوق» التى قررها البرلمان البريطانى سنة ١٦٨٨ وأيد فيها حقوق الشعب الانجليزى وأهمها أن لا يجوز للملك أن يفرض ضريبة إلا بعد موافقة البرلمان .

وقد رجعنا إلى الجبرتى فرأيناه يوردها بصيغة أخرى تختلف قليلا عن رواية فولا بل وان كانت تتفق واياها فى مجموعها قال : «فحضر الجميع واتفقوا على كتابة عرضحال بالمطلوبات ، ففعلوا ذلك وذكر فيه تعدى طوائف العسكر والايذاء منهم وإخراجهم من مساكنهم والمظالم والفرد (الضرائب) ، وقبض مال الميرى المعجل ، وحق طرق المباشرين ، ومصادرة الناس بالدعاوى الكاذبة وغير ذلك واخذوه (وكلاء الوالى) ووعدوا برد الجواب فى ثانى يوم» .

رأى الوالى أن الحركة خطيرة ، وأن الثورة تؤذن أن تقتلعه من مقره ،وكان السيد عمر مكرم نقيب الأشراف فى مقدمة زعماء الحركة وأكبرهم نفوذا ، وفى ذلك يقول فولا بل : «أن السيد عمر مكرم ظهر فى الصف الأول من صفوف المجاهدين الذين رآهم الشعب لأول مرة يدافعون عن مصالحه »فأراد الوالى أن يلقى القبض عليه ويعتقله بالقلعة ليشل الحركة القائمة فى المدينة ، فلما وصلته رسالة القاضى أرسل إليه يستدعيه ويستدعى السيد عمر مكرم والعلماء إلى القلعة ليتشاور معهم فى الأمر ، لكن السيد عمر فطن إلى مقاصد الوالى وخشى الغدر ، فأشار برفض الذهاب إلى القلعة ، وكان محقا فى حذره لأنهم علموا بعد ذلك أن الوالى أعد أشخاصا لاغتيالهم فى الطريق .

خلع خورشد باشا والمناداة بمحمد على واليا لمصر ١٣ مايو سنة ١٨٠٥

لم يجب أحد من زعماء الشعب دعوة الوالى ولم يذهبوا إلى القلعة ، فحنق عليهم وعد امتناعهم عن الذهاب إليه تمردا وعصيانا ، وتلقاء ذلك رفض إجابة المطالب التى قرروها .

كان هذا الرفض معجلا لسير الحوادث .

فاجتمع وكلاء الشعب من العلماء ونقباء الصناع في اليوم التالي (الاثنين ١٣ مايو - ١٣ صفر سنة ١٢٢٠) بدار المحكمة ليتداولوا فى الموقف .

واحتشدت الجماهير فى فناء المحكمة وحولها يؤيدون وكلاءهم ، وهناك اتفقت كلمة نواب الشعب وأجمعوا رايهم على عزل خورشد باشا وتعيين محمد على واليا بدله ، وعندئذ قاموا وانتقلوا إلى دار محمد على لتنفيذ قرارهم وأبلغوه ما اتفقوا عليه وقالوا :

«أننا لا نريد هذا الباشا واليا علينا ولابد من عزله من الولاية» .

ونادى السيد عمر مكرم بالنيابة عنهم وقال .

«اننا خلعناه من الولاية» .

فقال محمد علي : «ومن تريدونه واليا» .

فقال الجميع بصوت واحد : «لا نرضى الا بك وتكون واليا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير» .

فأظهر محمد على ترددا وامتناعا خشية المسئولية وحتى لا ينسب إليه أنه المحرض على هذه الثورة الشعبية ، وقال أنه لا يستحق هذا المنصب وأن هذا التعيين قد يمس حقوق السلطان ، فألح وكلاء الشعب عليه وقالوا جميعا قد اخترناك برأى الجميع والكافة ، والعبرة برضا أهل البلاد ، وأخذوا عليه العهود والمواثيق أن يسير بالعدل وألا يبرم أمرا الا بمشورتهم .

فقبل محمد على ولاية الحكم ، ونهض السيد عمر مكرم والشيخ عبدالله الشرقاوى والبساه خلعة الولاية ، وكان ذلك وقت العصر .

وبذلك تمت مبايعة نواب الشعب لمحمد على ، وأمروا بأن ينادى به فى أنحاء المدينة واليا لمصر .

هذا هو اليوم المشهود الذى تولى فيه محمد على حكم مصر بارادة الشعب .

وهو من الأيام التاريخية المعدودة فى تاريخ الحركة القومية ، ففيه تم انقلاب عظيم فى نظام الحكم ، فيه وضعت مصر لنفسها أساس حريتها واستقلالها ، فيه أعلنت عن حقها فى تقرير مصيرها ، فيه تجلت سلطة الأمة ممثلة فى أشخاص زعمائها وذوى الرأى فيها ، تجلت سلطة الأمة فى خلع الوالى الذى لم ترض حكمه واسناد ولاية الأمر إلى من انتخبه زعماء الشعب ووكلاؤه .

وتلك اول مرة فى تاريخ مصر الحديث يعزل الوالى ويختار بدله بقوة الشعب وارادته .

لقد كان الولاة يعزلون بقوة الجند وارادة رؤسائهم من المماليك ، لكن هذه

المرة كان الانقلاب شعبيا فوقع بارادة الشعب وبقوة الشعب ، تم انتخاب محمد على للولاية على الرغم من صدور الفرمان السلطانى باسناد ولاية جدة إليه ، وكان معروفا أن الحكومة التركية تؤيد خورشد باشا وتناصره فى موقفه ، فخلع خورشد باشا وانتخاب محمد على واليا لمصر فيه معنى الاستقلال عن الحكومة التركية ومقاومة تدخلها فى حكم مصر .

ويمتاز هذا الانقلاب بأنه لم يكن مقصورا على مجرد انتخاب وكلاء الشعب لولى الأمر ، بل كان مقرونا باشتراطهم أن يرجع إليهم ، فى شئون الدولة ، فوضعوا بذلك قاعدة الحكم الدستورى فى البلاد ، وفى ذلك يقول الجبرتى عن ولاية محمد على : «تم الأمر بعد المعاهدة والمعاقدة على بسيره بالعدل وإقامة الأحكام والشرائع والإقلاع عن المظالم وإلا يفعل أمرا إلا بمشورته ومشورة العلماء وأنه متى خالف الشروط عزلوه» .

وثمت ميزة أخرى أكسبت ذلك الانقلاب بهاء وجلالا ، ذلك أنه تم فى دار المحكمة ، فى ساحة القضاء ، فاتخذ معنى الاحتكام إلى العدالة والتمسك بالحق ، وهى فكرة جليلة امتازت بها تلك الثورة المصرية ، ولا نظن ثورة أخرى غربية أو شرقية تسامت إلى هذا المعنى البديع .

فالثورة إذا كان قوامها المطالبة بالحق والاحتكام إلى العدل ، كان أساسها الحق ومن ورائه قوة الشعب تسنده وتؤيده . وما أحوج الثورات والحركات القومية إلى أن تحافظ فى كل أدوارها على معانى الحق والعدل والنزاهة ؛ فإنها بذلك تسلم من الانحدار فى مهاوى الرذيلة والفساد والفوضى والطغيان .

القتال بين الشعب والوالى

أبلغ زعماء الشعب قراراتهم إلى خورشد باشا ، وذهب وفد منهم إلى القلعة لمقابلته ، فأجابهم «إنى مولى من طرف السلطان فلا أعزل بأمر من الفلاحين ، ولا أنزل من القلعة إلا بأمر من السلطنة» .

ومعنى ذلك انه رفض الإذعان لمطالب وكلاء الشعب وكبر عليه أن يصدر منهم أمر أو نهى وأنكر عليهم هذا الحق بأسلوب يدل على مبلغ ما كان يشعر به الحكام من ازدراء الشعب ، فلم يكن بد من نشوب القتال بين الشعب والوالى .

وقد حرر نواب الشعب يوم اجتماعهم محضرا بعزل خورشد باشا وتعيين محمد على بدله ، ولم يذكر الجبرتى أنهم حرروا محضرا إلا فى يوم ١٦ صفر (١٦ مايو) حينما طلب منهم خورشد باشا سندا شرعيا بالعزل ، لكن (فولابل) يقول إنهم حرروا محضرا يوم ١٣ مايو اى قبل المحضر الثانى ، ويقول أن

الذى تولى تحريره هوالشيخ محمد المهدى واقتبس منه العمارة الآتية وقال عنها إنها جديرة بالتفات النظر اليها وهى « ان للشعوب طبقا لما جرى به العرف قديما ولما تقضى به أحكام الشريعة الإسلامية الحق فى أن يقيموا الولاة ولهم أن يعزلوهم إذا انحرفوا عن سنن العدل وساروا بالظلم لأن الحكام الظالمين خارجون على الشريعة» .

وأخذ الوالى يحصن القلعة ويتزود من الميرة والذخيرة ويستعد للقتال لإخضاع المدينة واخماد الثورة .

وأخذ زعماء الشعب من ناحيتهم يعدون الوسائل لحصار القلعة لاجبار خورشد باشا على التسليم ، فدعوا الأهالى إلى حمل السلاح ، واحتشد الثائرون فى ميدان الأزبكية حتى ملئوه ، واعتزم الزعماء ، أن يعيدوا إبلاغ الوالى قرارهم ويطلبوا إليه احترامه منعا للفتنة وحقنا للدماء ، فبعثوا برسالة إلى عمر بك وصالح قوش[٢] يذكرون فيها «ما اجمع عليه رأى الجمهور من عزل الباشا وأنه لا ينبغى مخالفتهم لما يترتب على ذلك من الفساد العظيم وخراب الإقاليم» .

فأرسل عمر بك وزميله يطلبان سندا شرعيا مثبتا لعزله ، فاجتمع الزعماء فى يوم الخميس (١٦ مايو ١٨٠٥ ـ ١٦ صفر ١٢٢٠) بدار المحكمة (بيت القاضى) وحرروا محضرا فى شكل سؤال وجواب على نحو الفتاوى التى كانت تصدر بخلع السلاطين فى الاستانة ووقعوا على المحضر وأرسلوه إلى الوالى ومستشاريه ، فلم يقتنعوا به ولم يتعقلوه ، واستمر الوالى على عناده .

فأخذ السيد عمر مكرم يحرض الناس على الاجتماع والاستعداد للقتال ولبى الأهالى الدعوة متطوعين حاملين ما وصلت إليه أيديهم من الاسلحة والعصى ، فأقاموا المتاريس والاستحكامات بالقرب من القلعة وتحصنوا بها وحمل السلاح كل قادر على حمله ، وخلت مخازن الأسلحة مما فيها من آلات الكفاح واشتركت جميع طبقات الشعب فى حمل السلاح على إختلاف أعمارهم ومراكزهم وطوائفهم ، وبلغ عدد الثوار أربعين ألفا حاملين الأسلحة والعصى «وكان الفقراء من العامة يبيعون ملابسهم أو يستدينون ويشترون الأسلحة» .

وأرسل خورشد باشا إلى القاضى يطلب الرواتب المتأخرة لجنوده وبقاءه فى القلعة إلى أن يرد جواب الدولة وقال فى رسالته أن إقامته بالقلعة ليس فيها ضرر على الرعية ، فأجابه القاضى : «إن إقامتكم بالقلعة هى عين الضرر فإنه حضر يوم تاريخه نحو الأربعين ألف نفس بالمحكمة طالبين نزولكم او محاربتكم فلا يمكننا دفع قيام هذا الجمهور ، وهذا آخر المراسلات بيننا وبينكم والسلام» .

(٢) هما من خاصة مستشارى الوالى وكانا من ضباط الأرنؤد

هذا ما ذكره الجبرتي عن المفاوضات بين زعماء الشعب وخورشد باشا ، ولم يذكر لنا فى هذه النقطة مركز محمد على خلال تلك المفاوضات ، لكن فولابل يلقى على هذه الناحية شيئا من الضوء فيقول فى كتابه أن (محمد على) كان يميل بعد المناداة بمبايعته إلى أخذ خورشد باشا بالحسنى لأن اقتراب المماليك من القاهرة فى خلال تلك الأيام قد أقلق باله ، هذا فضلا عن أنه لم يكن ينظر بعين الارتياح إلى استمرار الشعب ثائرا حاملا السلاح لأنه رأى فى ذلك مصدر قلق على سلطته الجديدة ، إذ كان يميل فى خاصة نفسه إلى الاستبداد بالحكم إذا استقر له الأمر ، فرغب إلى الشيوخ أن يفاوضوا خورشد باشا فى طريقة سلمية ترضى الفريقين ، فأجاب خورشد بأنه لا يسلم القلعة كما صرح بذلك من قبل إلا إذا جاءه أمر من السلطان ، على أنه مع ذلك يكف عن ضرب المدينة إذا تعهد له الشيوخ بأنهم لا يتمسكون بمحاسبته على الأموال التى دخلت خزانته وأن يمكنوه من تزويد القلعة بالمؤونة اللازمة لجنود الحامية .

ويقول فولابل ان الشيوخ قبلوا الشرط الثانى أما الشرط الأول فكان محمد على ميالا إلى قبوله لكن زعماء الثورة رفضوه بتاتا وأصروا على ضرورة محاسبة خورشد على الضرائب التى جباها ، فلما علم بنتيجة المفاوضة أصر علي رفض اى اتفاق على غير الاساس الذى عرضه ، فعاد الفريقان إلى استئناف الحرب والقتال ، وبعث خورشد باشا إلى سلحداره ليغادر الصعيد بجيشه ويجىء إلى القاهرة لنجدته .

عمر مكرم روح الحركة

كان للشعب زعماء عديدون يجتمعون ويتشاورون ويشتركون فى تدبير الأمور ، ولكل منهم نصيبه ومنزلته ، ولكن من الإنصاف أن يعرف للسيد عمر مكرم فضله فى هذا الحركة .

فقد كان بلا جدال روحها وعمادها ، كان أكثر الزعماء شجاعة وإقداما وأقواهم إخلاصا وإيمانا ، واكثرهم عملا ، وأبعدهم نظرا .

كان يتقدم الصفوف ، ويشدد العزائم ، ويدعو إلى مواصلة الجهاد ، ويتلافى أسباب الخلاف والانقسام ، تتجلى شخصيته فى كلماته ومواقفه وأعماله ، فهو أول من دعا إلى الاجتماع فى دار المحكمة الكبرى لإعلان خلع خورشد باشا واختيار محمد على باشا بدله ، وهو أول من دعا إلى محاصرة القلعة بعد أن أبى خورشد النزول منها ، وأول الثابتين فى إيمانهم بعدالة قضية الشعب .

التقى يوما بعمر بك أحد مستشارى خورشد باشا ، فوقع بينهما جدل طويل فى صدد القرارات التى أصدرها زعماء الشعب ، ومن جملة ما قاله عمر بك اعتراضا على تلك القرارات «كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم وقد قال الله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ؟» فأجابه عمر مكرم على الفور : «أولو الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل ، وهذا رجل ظالم ، وقد جرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة ، وهذا شيء مألوف من زمان ، حتى الخليفة والسلطان إذا سار فى الناس بالجور فإنهم يعزلونه ويخلعونه» .

فقال عمر بك : «وكيف تحصروننا وتمنعون عنا الماء والأكل وتقاتلوننا ؟ أنحن كفرة حتى تفعلوا معنا ذلك ؟» فقال عمر مكرم : «قد أفتى العلماء والقاضى بجواز قتالكم ومحاربتكم لأنكم عصاة» .

فهذه الكلمات التى فاه بها بداهة تدل على ما يجيش فى صدره من المبادىء والأفكار العالية .

وكان عمر مكرم قائما على تنظيم حركة المقاومة يتعهدها ويتولى قيادة الصفوف فيها ، فتاريخها مرتبط بجهاده وأعماله .

حرض الجماهير على الاجتماع والاستعداد لحصار القلعة ، وركب هو والعلماء إلى بيت محمد على بالأزبكية يتبعهم الكثير من الجهادية والعامة مسلحين بالأسلحة والعصى ، وواصلوا السهر ليلا فى الشوارع والحارات وأقاموا المتاريس بالقرب من القلعة بجهات الرميلة والصليبية والحطابة والطرق النافذة اليها مثل باب القرافة والحصرية (درب الحصر) وغيرها ، ومنعوا الصعود إلى القلعة والنزول منها ، وأخذ الفريقان يترامون بالبنادق ، وصعد جماعة من الثوار إلى منارة جامع السلطان حسن يرمون منها القلعة ومن فيها .

وصف الجبرتى وقائع الثورة فى تلك الأيام وصف شاهد عيان فذكر ما خلاصته أنه فى يوم الأربعاء ٢٢ صفر (٢٢ مايو سنة ١٨٠٥) ركب السيد عمر مكرم والمشايخ ومعهم جمع كثير من الناس إلى الأزبكية ، وبعد ركوبهم حضر الجمع الكثير من العامة وطوائف الأجناد من سائر النواحى وخاصة الحسينية والعطوف والقرافة والرميلة والحطابة والصليبية ومعهم الطبول والبنادق حتى غصت بهم الشوارع وذهبوا إلى الجامع الأزهر ثم رجعوا إلى الأزبكية .

وكان الغرض من هذه الحركات وما تخللها من ذهاب ومجيء إذكاء نار الحماسة فى نفوس الشعب ودعوة طبقاته إلى تأييد الثورة والانضواء تحت لوائها ، قال المسيو (فلكس مانجان) فى هذا الصدد : «أن هذه الجولات

الحربية وما بدا على الجموع من روح القوة أثرت فى نفوس جند الوالى الذين انكمشوا أمام هذه المظاهرات» .

ولحقت الجموع بالمشايخ وخرج هؤلاء من عند محمد على واستمرت الحال كذلك إلى ليلة الجمعة ٢٤ مايو سنة ١٨٠٥ ، وفى تلك الليلة فيما بين المغرب والعشاء خرج جنود الوالى من القلعة يريدون الاستيلاء على متاريس الثوار ، فتبادل الفريقان اطلاق الرصاص إلى ما بعد العشاء ، ثم ارتد جند الوالى على أعقابهم إلى داخل القلعة .

ويقول الجبرتى ان العساكر الأرناؤد من جنود محمد على كانوا فى هذه الملاحم يحاربون جنود الوالى بفتور مراعين أنهم «من أجناسهم لأن غالبهم منهم» ، فهذه الشهادة قوية الدلالة على أن الثورة التى انتهت بإجلاس محمد على على عرش مصر قامت على أكتاف الشعب دون جنود محمد على أنفسهم ، وملاحظة الجبرتى يؤيدها ان أكبر أعوان خورشد باشا وأخص مستشاريه وهما عمر بك وصالح قوش كانا من الرؤساء الأرناؤد يعملان بكل الوسائل لمناصرته وضم الأرناؤد إلى جانبه ، فلو لم يجد محمد على التأييد من زعماء الشعب وأفراده لما وصل إلى قمة السلطة ، ويؤيد هذا المعنى قول الجبرتى فى موطن آخر : «انتصر محمد على بالسيد عمر مكرم النقيب والمشايخ والقاضى وأهل البلدة والرعايا» ويقصد بالرعايا جمهور الشعب .

استمرت الحرب سجالا ، ففى يوم الجمعة ٢٤ مايو نزل عمر بك من القلعة وأشاع بين الجماهير أن خورشد باشا عزم على النزول من القلعة والتسليم ، ولم يكن ذلك القول الا خدعة أراد بها أن يفتّ فى عضد الثوار ويضعف من عزائمهم وليتزود من الذخيرة والميرة ، فلما كان يوم الاثنين ٢٧ مايو تجدد القتال وشدد السيد عمر مكرم فى حصار القلعة ، قال الجبرتى يصف ما رآه فى هذا الصدد :

«ركب السيد عمر مكرم وصحبته الوجاقلية وأمامه الناس بالاسلحة والعدد والاجناد ، وأهل خان الخليلى والمغاربة شىء كثير جدا ، ومعهم بيارق ولهم جلبة وازدحام ، بحيث كان أولهم بالموسكى وأخرهم جهة الأزهر ، وانفصل الأمر على رجوع عمر بك إلى القلعة ونزول عابدى بك[٣] بعد أن قضوا (أى جنود خورشد) أشغالهم وعبوا ذخيرتهم واحتياجهم من الماء والزاد والغنم ليلا ونهارا مدة ثلاثة أيام ، وقد كانوا أشرفوا على طلب الأمان وتبين أنهم إنما فعلوا ذلك من باب المكر والخديعة واتفق الحال على إعادة المحاصرة» ، ثم ذكر الجبرتى ما بذله السيد عمر مكرم فى إعداد معدات الحصار ، قال : «ورجع السيد عمر إلى منزله وأخذ فى أسباب الإحاطة بالقلعة كالأول وذلك

---

(٣) هو اخو حسن باشا احد قواد الجنود الالبانيين وقد ذهب إلى القلعة موفدا من قبل اخيه لاقناع خورشد باشا بالكف عن المقاومة فلم يوفق.

بعد العشاء ليلة الثلاثاء (٢٨ صفر) ووقع الاهتمام فى صبحها بذلك ، وجمعوا الفعلة والعربجية وشرعوا فى طلوع طائفة من العسكر والعرب وغيرهم إلى الجبل (المقطم) ـ لضرب القلعة ـ وأصعدوا المدافع ورتبوا عدة جمال لنقل الاحتياجات والخبز وروايا الماء تطلع وتنزل كل يوم مرتين وطلع إليهم الكثير من باعة الخبز الكعك والقهاوى وغير ذلك ، واستهل شهر ربيع الأول والأمر على ذلك مستمر من تجمع الناس وسهرهم بالليل فى سائر الإخطاط» .

أى أن حالة الثورة صارت حالة عادية ألفها الناس ، وكان الفتور قد تسرب إلى جنود الأرناؤد الذين يشاركون الثوار فى القيام على المتاريس ، وطلبوا رواتبهم من محمد على ، فاستمهلهم حتى يسلم خورشد باشا فأبوا «ولم يمتثلوا وتركوا المتاريس التى حوالى القلعة وتفرقوا فذهب جماعة من الرعية وتترسوا فى مواضعهم» هذه شهادة الجبرتى ، وهى صريحة فى أن الشعب هو صاحب اليد الطولى فى تلك الثورة وأنه كان يسد الفراغ الذى يحدث فى الصفوف بانصراف الجنود الأرناؤد عن القتال .

كان السيد عمر مكرم شديد اليقظة والحذر ، ويرقب تطور الحوادث بنظر ثاقب وجنان ثابت ، رأى ان بعض المفسدين يسعون فى الإيقاع بين الشعب وجود محمد على لإحباط الحركة لأن هؤلاء الجنود لم يكتفوا بالتقاعد عن القتال ، بل كان كثير منهم يهاجمون الثوار فى منازلهم وينهبون ويعتدون ، فسعى جهده فى إحباط الفتنة وحال دون استفحال الشر ، وكان له الصوت المسموع والكلمة التى لا ترد فى تلك الأيام التاريخية ، تعقد الاجتماعات فى داره وينادى باسمه فى الأسواق وتعلن الأوامر منسوبة إليه ، قال الجبرتى فى حوادث يوم السبت عشرة ربيع الأول سنة ١٢٢٠ (٨ يونيه سنة ١٨٠٥) : «حضر حسن نجاتى المحتسب وأمر الأفندى بالمناداة ، فمر وأمامه المنادى يقول حسبما رسم السيد عمر الأفندى والعلماء لجميع الرعايا بأن يأخذوا حذرهم وأسلحتهم ويحترسوا فى أماكنهم وأخطاطهم» .

من ذلك يتبين أن سلطة الحكم فى تلك الأيام التاريخية كانت فى يد السيد عمر مكرم والعلماء وكان هو المرجع لحل المعضلات فى تلك الحركة ، فكان محمد على يتودد إليه ويراسله ويتردد على بيته ويرجع إليه فى مهمات الأمور .

وحدث أن خورشد باشا بعث برسالة إلى الجنود الدلاة يستنجد بهم و «يطلبهم للحضور ويذكر لهم أنه يجب عليهم معاونته صيانة لعرض السلطنة وإقامة لناموسها وناموس الدين وأن الفلاحين محاصروه ومانعون عنه الأكل والشرب» فلما وصلت الرسالة إلى الدلاة فى قليوب أعرضوا عن تلبية الدعوة وبعثوا بالرسالة إلى محمد على فأرسلها إلى السيد عمر مكرم النقيب

وقال الجبرتي عن الاجتماعات التي عقدت في داره : «وفي ليلة الأربعاء رابع عشر ربيع الأول (١٢ يونيه سنة ١٨٠٥) حضر كتخدا (وكيل) محمد على وجرجيس الجوهري (كبير المباشرين الأقباط) إلى بيت السيد عمر وحضر أيضا الشيخ الشرقاوي والشيخ الأمير والقاضي ، وتشاوروا على أمر ورأي رآه محمد على باشا ، ولم يذكر الجبرتي ذلك الرأي الذي كان موضوع الاجتماع والتشاور ، ولعله كان سرا لم يبح به المجتمعون ، فلم يصل إلى علم الجبرتي ، على أن المسيو (فلكس مانجان) قد ذكره في كتابه[4] فقال أنهم اتفقوا في هذا الاجتماع على مضاعفة الجهد لإجبار خورشد باشا على تسليم القلعة ، فمن ذلك أنهم قرروا زيادة عدد المخافر في الاستحكامات والمتاريس وعهدوا إلى السيد عمر إرسال المؤونة والماء كل يوم إلى المقاتلة المرابطين بالمقطم .

وكان ليقظة السيد عمر مكرم وانتباهه فضل كبير في نجاح الحركة ونجاتها من الفشل ، فقد حدث في مدة الحصار أن حضر على باشا السلحدار (قائد الجيش التركي في الصعيد) بجنوده من (المنيا) لنجدة خورشد باشا ورابط بمصر القديمة وما جاورها ، وأمكنه أن يتصل بالقلعة من طريق الجبل وأن يمد حاميتها بالمؤونة والذخيرة ، وأخذ يعمل من جهة أخرى على الاتصال بجنود محمد على ليفسدهم ويصرفهم عن تأييد الحركة ، فانضم إليه فعلا كثير منهم ، واعتزم أن يركب فيمن معه من الجنود ويهجم على متاريس الأهالي جهة الصليبية ، فأرسل ليلة السبت ١٥ يونيه (١٧ ربيع الأول) إلى خورشد باشا ينبئه بعزمه ويطلب إليه في حالة هجومه من تلك الناحية أن يساعده هو من القلعة بضرب المدينة والمتاريس بالمدافع ، فينزعج الناس ويدب في صفوفهم الرعب ويستولي جنود الوالي على المتاريس ويتم ما دبره ، وأراد أن يحكم تدبيره بالمكر والخداع ، فأوعز إلى اثنين من كبراء ضباطه أن يكتبا إلى السيد عمر مكرم خطابا مضمونه أنهما يريدان الحضور إلى جهة القلعة ليسعيا في الصلح ، وأنهما يطلبان الإذن لهما بالذهاب إلى القلعة. ويلتمسان إصدار الأمر إلى المرابطين في المتاريس من الأهالي بإخلاء الطريق لهما ، ولكن رجلا صادقا أمينا من رجال عمر مكرم علم بهذه المكيدة وجاءه بعد الفجر وأخبره بها فأخذ أهبته لإحباطها .

حجاج الخضري

قال الجبرتي : «فأرسل السيد عمر أفندي إلى من بالنواحي والجهات وأيقظهم وحذرهم . فاستعدوا وانتظروا وراقبوا النواحي ، فنظروا إلى ناحية

---

(٤) كتابنا تاريخ مصر في عهد محمد على . الجزء الأول .

الفراقة فرأوا الجمال التى تحمل الذخيرة الواصلة من على باشا السلحدار إلى القلعة ، ومعها أنفار من الخدم والعسكر ، وعدتها ستون جملا ، فخرج عليهم (حجاج الخضرى) ومن معه من أهالى الرميلة فضربوهم وحاربوهم وأخذوا منهم تلك الجمال وقتلوا شخصين من العسكر وقبضوا على ثلاثة وحضروا بهم وبرءوس المقتولين إلى بيت السيد عمر ، فأرسلهم إلى محمد على باشا ، فأمر بقتل الآخرين ، فلما رأى من بالقلعة ذلك فعندها رموا بالمدافع والقنابل على البلد وبيت محمد على وحسن باشا وجهة الأزهر ولم يزالوا يراسلون الرمى من أول النهار بعد الظهر فلم ينزعج أهل البلد من ذلك لما ألفوه من أيام الفرنسيين وحروبهم السابقة» .

و(حجاج الخضرى) الذى ورد ذكره فى هذه العبارة هو شيخ طائفة الخضرية فى ذلك العصر ، وإليه تنسب البوابة المعروفة ببوابة حجاج ، وتسمى أيضا بوابة الخلاء قبلى مسجد السيدة عائشة بشارع باب القرافة ، وقد ذكره الجبرتى غير مره ، فقال عنه أنه «الشهير بنواحى الرميلة ، وكان مشهورا بالاقدام والشجاعة طويل القامة عظيم الهمة وكان شيخا على طائفة الخضرية صاحب صولة وكلمة ومكارم أخلاق بتلك النواحى ، وهو الذى بنى البوابة بآخر الرميلة عند عرضه الغلة أيام الثورة ، وشنق مظلوما» وقال عنه أنه خرج من القاهرة عقب رحيل خورشد باشا خوفا على نفسه من اعتداء العسكر (الأرناؤد) وذهب إلى بلده (المنوات) ثم عاد وأرسل إلى السيد عمر مكرم «فكتب له أمانا من الباشا (محمد على) فحضر بذلك الأمان وقابل الباشا وخلع عليه ونادوا له فى خطته بأنه على ماهو عليه فى حرفته وصناعته ووجاهته بين أقرانه فصار يمشى فى المدينة وصحبته عسكرى ملازم له» .

ثم ذكر الجبرتى أنه اختفى بعد ذلك بسبب ما داخله من الوهم والخوف من العسكر والظاهر أنه اعتقد أنهم ينوون قتله غيلة .

وقد ذكر المسيو (فلكس مانجان) فى كتابه وقال عنه انه كان يتولى القيادة فى الاستحكامات القريبة من القلعة وأنه علم من أحد أعوانه بقدوم الحملة التى بعث بها السلحدار إلى خورشد باشا ، وقال لهذه المناسبة أنه اشتهر ذكره فى حصار القلعة وأنه جمع رجاله وهجموا على الحملة واستولوا على الجمال وروى الواقعة كما ذكرها الجبرتى .

استمر القتال متراسلا بين الشعب والوالى إلى أوائل شهر يوليه سنة ١٨٠٥ ، وفى غضون ذلك أشار محمد على ، على السيد عمر مكرم أن يأمر رجاله بنقل مدفع كبير من طابية قنطرة الليمون وهى من القلاع التى انشأها الفرنسيون لإخضاع القاهرة وتركيبه بالجبل لضرب أسوار القلعة كى يكون الضرب أشد أثرا من المدافع التى كان الثوار يستعملونها فى القتال ، فجمع

السيد عمر رجاله وجلب الابقار لجر هذا المدفع الثقيل ونقلوه من مكانه وأخرجوه من باب البرقية وركبوه عند باب الوزير ، واستمروا فى جره يومين كاملين ، وبعد أن تم تركيبه أخذ القواد يضربون به القلعة واستمر الضرب من الجانبين شديدا متراسلا ، وحاول بعض جنود الوالى أن يهجموا على ذلك المدفع لتعطيله فردهم الثوار وضربوهم وقتلوا كبيرهم ، وكانت مدافع القلعة تصوب قنابلها على حى الأزهر وعلى بيت محمد على وبيت حسن باشا .

يتبين من الحوادث المتقدمة أن السيد عمر مكرم هو المنظم للثورة الشعبية فى ذلك العصر ، وقد شهد له بذلك كتاب الافرنج فيما دونوه من وقائع تلك الثورة قال «فولابل» فى هذا الصدد :

«كان من الصعب ان يسود النظام وتدبر التدابير المحكمة بين الجنود الذين اعتادوا عيشة الفوضى ، والأهالى الذين لم يألفوا من قبل حركات القتال ومتاعبه ، ولكن السيد عمر مكرم قد سد هذا النقص من جميع النواحى بهمته ونشاطه وشجاعته ، فكان دائما دائب العمل واليقظة ، يحرك الجموع ويرتب مواقفهم ويبعث الحمية فى نفوسهم ويشعل فى كل لحظة نار الحماسة كلما خمدت جذوتها أو دب إليها دبيب الفتور» .

سرد الجبرتى حوادث الثورة الشعبية ومر عليها كأنها حوادث عادية لا تختلف عن الوقائع والأنباء التى كان يدونها فى تاريخه ، ومع أنه كان دقيقا فى تدوينها وفاق فى بيانه واستقرائه جميع الكتاب والمؤرخين الأفرنج الذين كتبوا عنها سواء أكانوا ممن شهدوها أم سمعوا بها فإنه لم يلفت نظر قارئه إلى ما تنطوى عليه من السمو والعظمة ، على أنها مجموعة وقائع تاريخية رائعة ، ولا غرو فهى تمثل نفسية جديدة للشعب المصرى ولدتها الحركة القومية التى ظهرت فى أفق البلاد أواخر القرن الثامن عشر ، ولقد كانت هذه الحوادث رابع ثورة قام بها الشعب فى تاريخ مصر الحديث فى فترة من الزمن لا تتجاوز تسع سنوات .

فالثورة الأولى قاوم بها نابليون .

والثانية قاوم بها كليبر .

والثالثة قام بها فى وجه المماليك .

والرابعة فى وجه الوالى التركى ، كل ذلك يدل على مبلغ حيوية الشعب فى تلك الحقبة من الزمن .

ولقد فطن الكتاب الافرنج إلى ما فى ثورة سنة ١٨٠٥ من معان سياسية كبيرة ، فلم يفتهم أن ينوهوا بها فيما كتبوه عن وقائعها ، قال (فولابل) فى هذا الصدد :

«أن الحوادث التى سردناها تسترعى النظر ، فلاول مرة وقع تغيير

سياسى خطير فى ولاية من ولايات السلطنة العثمانية القديمة بإرادة الشعب وباسم الشعب ، ولا جدال ان المطالب التى فرضها الشيوخ على خورشد باشا تدل على ما يجيش بصدورهم من الإحساس بالحرية وما يشعرون به من الحاجة إلى أخذ الضمانات الكافية التى تكفل مراقبة الحكومة ، ولقد كان هذا الشعور إلى ذلك العصر مجهولا فى الشرق» .

انتصار الثورة

ظلت الحرب بين الشعب والوالى التركى سجالا إلى أن جاء القاهرة من الاستانة يوم ٩ يوليه سنة ١٨٠٥ (١١ ربيع الثانى سنة ١٢٢٠) رسول يحمل فرمانا يتضمن الخطاب لمحمد على «والى جدة سابقا» بتثبيته واليا على مصر «حيث رضى بذلك العلماء والرعية وان خورشد باشا معزول عن ولاية مصر» .

فبطل الضرب من القلعة ، وأبطل الثوار الضرب من الجبل مع استمرار الحصار وبقاء المتاريس ومرابطة الثوار بالجبل إلى أن أذعن خورشد باشا وسلم القلعة يوم الاثنين ٥ أغسطس سنة ١٨٠٥ (٩ جمادى الأولى سنة ١٢٢٠) ونزل منها ثم رحل عن البلاد ، فكان آخر وال عثمانى حكم مصر بإرادة الاستانة وأوامرها .

وبذلك توجت الثورة بفوز إرادة الأمة ، واستقر فى الحكم من إختاره نواب الشعب وليا للأمر .

●

فهـرس

صفحة

فهرس الخرائط والصور

للمؤلف

حقوق الشعب :

يتضمن شرح المبادىء والنظريات والقواعد الدستورية وحقوق الإنسان . طبع سنة ١٩١٢ .

نقابات التعاون الزراعية :

يتضمن تاريخ التعاون الزراعى ومنشأته فى أوروبا ، ونشأة التعاون فى مصر وتاريخه ونظامه ، وعلاقته بالنهضة الاقتصادية والاجتماعية . طبع سنة ١٩١٤ .

الجمعيات الوطنية :

صحيفة من تاريخ النهضة القومية يتضمن تاريخ الانقلابات السياسية والنهضات القومية فى طائفة من البلدان مع شرح أصول الدساتير ، والنظم البرلمانية فيها والمقارنة بينها . طبع سنة ١٩٢٢ .

تاريخ الحركة القومية (في جزأين) :

الجزء الأول : يتضمن ظهور الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث وبيان الدور الأول من أدوارها وهو عصر المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر . وتاريخ مصر القومى فى هذا العهد (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٩)

الجزء الثانى : من إعادة الديوان فى عهد نابليون إلى عهد ولاية محمد على (الطبعة الأولى سنة ١٩٢٩) .

عصر محمد على :

يتناول تاريخ مصر القومى فى عهد محمد على (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٠)

عصر إسماعيل (فى جزأين) :

الجزء الأول : يشتمل على عهد عباس وسعيد وأوائل عهد إسماعيل (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢)

الجزء الثانى : وفيه ختام الكلام عن عهد إسماعيل (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢) .

الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٧) .

مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال :

تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٢)

مصطفى كامل : باعث الحركة الوطنية
تاريخ مصر القومي من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨ (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٩) .
محمد فريد : رمز الإخلاص والتضحية
تاريخ مصر القومي من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤١)

ثورة سنة ١٩١٩ في جزأين :
تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١ (في جزأين) الطبعة الأولى سنة ١٩٤٦)

الجزء الأول : يشتمل على شرح حالة مصر وحوادثها التاريخية أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) وبيان الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية للثورة . وتطور الحوادث من بعد انتهاء الحرب إلى شبوب الثورة في مارس سنة ١٩١٩ ثم وقائع الثورة في القاهرة والأقاليم .

الجزء الثاني : وفيه الكلام عن مهادنة الثورة واستمرارها ومحاكمات الثورة ولجنة ملنر ، والحوادث التي لابستها ومفاوضات ملنر واستشارة الأمة في مشروع ملنر . والتبليغ البريطاني بأن الحماية علاقة غير مرضية . ونتائج الثورة في حياة مصر القومية .

في أعقاب الثورة المصرية (ثورة سنة ١٩١٩) : في ثلاثة أجزاء :

الجزء الأول : تاريخ مصر القومي من أبريل سنة ١٩٢١ إلى وفاة سعد زغلول في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧)

الجزء الثاني : تاريخ مصر القومي من وفاة سعد زغلول سنة ١٩٢٧ إلى وفاة الملك فؤاد سنة ١٩٣٦ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨ - سنة ١٩٤٩) .

الجزء الثالث : تاريخ مصر القومي من ولاية فاروق عرش مصر في ٦ مايو سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٥١ (الطبعة الأولى سنة ١٩٥١) .

مقدمات ثورة يوليه سنة ١٩٥٢
(الطبعة الأولى سنة ١٩٥٧)
الكفاح في القتال سنة ١٩٥١ - حريق القاهرة سنة ١٩٥٢
وزارات الموظفين - أسباب الثورة - فاروق يمهد للثورة .

ثورة ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢
تاريخنا القومي في سبع سنوات ١٩٥٢ - ١٩٥٩ (طبع سنة ١٩٥٩)

تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة :
من فجر التاريخ إلى الفتح العربي (طبع سنة ١٩٦٢)

تاريخ مصر القومي :
من الفتح العربي حتى عصر المقاومة والحملة الفرنسية طبع بعد وفاة المؤلف .

مذكراتي (١٨٨٩ - ١٩٥١)
خواطري ومشاهداتي في الحياة

شعراء الوطنية فى مصر :
تراجمهم . وشعرهم الوطنى . والمناسبات التى نظموا فيها قصائدهم الطبعة الأولى سنة ١٩٥٤ .

مجموعة اقوالى واعمالى فى البرلمان : (مجلس النواب الأول) طبع ١٩٢٥ .
أربعة عشر عاماً فى البرلمان :
فى مجلس النواب سنة ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥ :
وفى مجلس الشيوخ من سنة ١٩٣٩ إلى سنة ١٩٥١ (طبع سنة ١٩٥٥) .

كتب مختصرة

مصطفى كامل :
باعث النهضة الوطنية (طبع سنة ١٩٥٢)

بطل الكفاح . الشهيد محمد فريد : (طبع سنة ١٩٥١)

الزعيم الثائر احمد عرابى :
(الطبعة الأولى ـ يناير سنة ١٩٥٢)

جمال الدين الأفغانى : (طبع سنة ١٩٦٦)

بحث وتحليل معاهدة سنة ١٩٣٦ :
استقلال أم حماية (طبع سنة ١٩٣٦)
كتب لطلبة المدارس الثانوية :
(طبعت سنة ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩)
مصر المجاهدة فى العصر الحديث :
فى ست حلقات تشتمل على كفاح الشعب فى عهد الحملة الفرنسية ثم كفاحه فى العهود التالية إلى بداية ثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢ .
(تحت الطبع)
مختاراتى من دواوين الشعراء فى الجاهلية والإسلام .

رقم الايداع : ٧٣٥٧/ ٨٩
ISBN ٩٧٧ - ١١٨ - ٤٤٥ - ٨ الترقيم الدولى :

مصر المجاهدة فى العصر الحديث فى ستة أجزاء ، قام عبد الرحمن الرافعى المؤرخ الوطنى الكبير وجبرتى مصر الحديثة بتلخيص بعض مؤلفاته فى تاريخ مصر القومى خلال المدة من عصر المماليك والحملة الفرنسية حتى بدء ثورة ٢٣ يوليو ، حتى يقف الشباب وغيرهم من المثقفين على وقائع تاريخ مصر وأحداثه وشخصياته فى سهولة ويسر ، تلك التى سجلها الرافعى فى هذه الحلقات بصدق وأمانة دون [illegible] أو غرض . ووقو[illegible] كفاح الشعب ال[illegible] وجهاده .

١٤١٠ هـ . ١٩٨٩

دار الهلال